
محمد قطب
جاهلية القرن العشرين
دار الشروق

جَاهِلِيَّةُ
القَرْنِ
العِشْرِين

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

محمد قطب



دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

سيعجب الناس من العنوان .. وسيستنكره كثيرون !

القرن العشرون ؟! .. الحضارة والمدنية .. العلم والكشوف .. التنظيم والتنسيق .. سيطرة الإنسان على الطبيعة .. الذرة والصاروخ . كل ذلك جاهلية ؟!

لقد بلغ الإنسان أوجًا من العظمة لم يبلغه فى تاريخه كله .. وبلغ من القوة والسيطرة والجبروت مدى لم يحلم به سكان الكوكب الأرضى قبل عشرات من السنين فقط ؛ فضلاً عن عشرات من القرون ! فكيف نقول بعد ذلك إن الإنسان يعيش فى الجاهلية فى هذا القرن العشرين ؟

و « القيم » التى يعيش فى ظلها البشر اليوم .. الحرية والتحرر .. الإخاء والمساواة .. الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ..

كيف بالله نقول إن هذا العصر الذى نعيش فيه .. عصر جاهلية ؟!

* * *

يحسب الكثيرون أن « الجاهلية » فترة معينة من الزمن ـ كانت ـ فى الجزيرة العربية ـ قبل الإسلام .

أولئك « الطيبون » .. الذين لا يجادلون فى صدق ما وصف الله به الحياة العربية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤمنون أنها كانت جاهلية حقا بالقياس إلى الإسلام .

أما « الخبيثون » ـ تدفعهم دوافع غير إسلامية ، من تلك التى قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من دعا إلى عصبية .. »[1] ـ فأولئك يجادلون كثيرًا فى هذا

---

(١) « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » أخرجه مسلم والنسائى وأبو داود .

الأمر ، منافحين عن الجاهلية العربية وأنها لم تكن «جاهلية» كما وصفها القرآن ! فقد كان فى البيئة العربية «فضائل» و «قيم» ذاتية ، و «معلومات» و «حضارة» مكتسبة من الاتصال بالرومان والفرس .. مما كشفت عنه «الدراسات» الحديثة التى قام بها المستشرقون ! وهم من باب أولى لا يتصورون أن تكون الجاهلية قائمة فى هذا القرن العشرين ، مادام مقياسهم هو هذا المقياس !

هؤلاء وأولئك لا يدركون معنى «الجاهلية» كما هو فى واقع الأمر وكما عناه القرآن !

* * *

الطيبون يحصرون مظاهر الجاهلية فى الشرك الساذج والوثنية البدائية وأخذ الثأر والمفاسد الخلقية التى كانت سارية فى البيئة العربية .. أى أنهم يأخذون «مظاهر» الجاهلية العربية على أنها هى «الجاهلية» ذاتها . ومن ثم يحصرونها فى هذه الصورة المحدودة ، فى هذه الفترة المعينة من التاريخ فى هذه البقعة من الأرض فى الجزيرة العربية .. ويظنون – من ثم – أنها مضت إلى غير رجعة فى الزمان أو المكان !

والخبيثون يظنون أن «الجاهلية» هى مقابل ما يسمى «العلم» أو «الحضارة» أو «التقدم المادى» أو «القيم» الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أو «الإنسانية !» ومن ثم يجهدون أنفسهم إجهادًا – مدفوعين بتلك الدوافع غير الإسلامية التى نوه بها رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم – لكى يثبتوا أن العرب لم يكونوا جهلاء ، فقد كانوا يعرفون بعض المعارف . ولا متأخرين ، فقد كانوا ملمين بشىء مما يسمونه الحضارة وشىء من المدنية . ولا خاوين من القيم ، فقد كان لديهم من الفضائل : الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وبذل النفس فى سبيل الشرف أو النخوة أو الكرامة أو ما شابه ذلك من الأمور . ومن ثم فوصف القرآن لهم بالجاهلية ليس حقيقة تاريخية ! ! ومن ثم كذلك فالقرن العشرون فى نظرهم هو قمة الارتفاع البشرى الذى يمكن أن يحلم به الإنسان ..

وهؤلاء وأولئك كما قلنا لا يدركون معنى «الجاهلية» كما هو فى واقع الأمر ، وكما عناه القرآن !

ليست الجاهلية «صورة» معينة محدودة كما يتصورها الطيبون الذين يرون أنها فترة تاريخية مضت إلى غير رجوع . إنما هى «جوهر» معين ، يمكن أن يتخذ صورًا شتى ،

بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان ، فتتشابه كلها فى أنها «جاهلية» وإن اختلفت مظاهرها كل الاختلاف .

وليست هى المقابل لما يسمى العلم والمعرفة والحضارة والمدنية والتقدم المادى والقيم الفكرية والاجتماعية والسياسية والإنسانية على إطلاقها - كما يتصورها الخبيثون - سواء بالنسبة للجاهلية العربية أو بالنسبة للقرن العشرين ..

إنما الجاهلية – كما عناها القرآن وحددها – هى حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله ، ووضع تنظيمى يرفض الحكم بما أنزل الله : «أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟!»[1] .

هى إذن مقابل معرفة الله - والاهتداء بهدى الله - والحكم بما أنزل الله .. وليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة المادية ووفرة الإنتاج !

* * *

ولم يقل القرآن قط إن العرب كانوا فى «جاهلية» لأنهم لا يعرفون الفلك والطبيعة والكيمياء والطب .. أو لأنهم لا يعرفون النظم السياسية .. أو لأنهم قاصرون فى ميدان الإنتاج المادى .. أو لأنهم خلوا من بعض الفضائل - أو خلوا من «القيم» على الإطلاق !

ولو قال لهم ذلك لأعطاهم البديل من نفس النوع ! البديل من الجهل العلمى «معلومات» علمية فلكية وطبيعية وكيميائية وطبية .. الخ ! والبديل من الجهل السياسى نظريات سياسية مدروسة مفصلة ! والبديل من القصور فى الإنتاج المادى توجيهات لزيادة الإنتاج أو لتحسينه ! والبديل من نقص بعض الفضائل وبعض القيم مزيدًا من هذه وتلك مطلقة من أى ارتباط .. !

ولكنه لم يقل لهم ذلك - ولم يكن البديل الذى أعطاهم إياه شيئًا من ذلك كله ..[2] .

---

(١) سورة المائدة [٥٠] .

(٢) حقا لقد وجد ذلك كله نتيجة «البعث» الإسلامى - ولكنه لم يكن هو البديل الذى طلبه الله من الناس ليخرجوا من الجاهلية !

إنما قال لهم إنهم جاهليون لأنهم يحكّمون أهواءهم ويرفضون حكم الله .. وأعطاهم البديل من الجاهلية .. الإسلام .

فذلك هو المقياس الذى يقيس به القرآن الحياة البشرية .. وهو المقابل للجاهلية - سواء جاهلية العرب أو أية جاهلية غيرها فى التاريخ ..

ولقد قص القرآن عن «حضارات» كثيرة فى أمم خالية ، كانت ــ ولا شك ــ أكثر تحضرًا من العرب حين نزل عليهم الإسلام ، ومع ذلك اعتبرها الإسلام جاهلية لأنها لا تهتدى بهدى الله : «أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون»[1] .

فهنا يوجه القرآن العرب «الجاهليين» إلى النظر فى أمر «جاهلية» سابقة ، ليروا نتائجها ويحذروها ، فلا يكذبوا بآيات الله ، بل يؤمنوا بها ويهتدوا . وإن كان لا يستخدم هنا لفظ «الجاهلية» بالتحديد ، فإنه يستخدم مدلولها ، ويقول للعرب الجاهليين : هؤلاء مثلكم فى الجاهلية ، وإن كانوا أكثر منكم قوة وتعميرًا للأرض و «حضارة» و «مدنية» .. فخير لكم أن تخرجوا من الجاهلية ــ التى تشملكم وتشمل تلك «الحضارة» المنحرفة سواء ــ بأن تدخلوا فى هدى الله وتصبحوا مسلمين ..

* * *

الجاهلية ــ إذن ــ حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله ، ووضع تنظيمى يرفض الحكم بما أنزل الله .. ثم تصيبها النتائج الحتمية لهذا الانحراف . نتائج تختلف باختلاف صورة الانحراف ومداه .. ولكنها تتفق فى أنها اضطراب فى حياة البشر وشقاء ، وقلقلة وتدمير وعذاب ..

ومن ثم فهى ليست محصورة فى الجاهلية العربية ولا فى فترة من الزمن معينة .. وإنما هى حالة يمكن أن توجد فى أى وقت وفى أى مكان .. كما توجد كذلك فى أى

---

(١) سورة الروم [٩ : ١٠] .

«مستوى» من المعرفة و «الحضارة» والتقدم المادى والقيم الفكرية والسياسية والاجتماعية و «الإنسانية !» .. إذا كانت هذه كلها لا تهتدى بالهدى الربانى ، وتتبع أهواءها وترفض أن تتبع ما أنزل الله .

وإن «الجاهلية» و «الهوى» .. سيان .

فالذين يتبعون أهواءهم يرفضون أن يتبعوا ما أنزل الله .. وهم حينئذ فى «الجاهلية» لهذا السبب عينه : لأنهم يرفضون هدى الله .. أيًا كان مبلغهم من العلم البشرى ومبلغهم مما يسمى الحضارة والتقدم المادى والتنظيم السياسى والاجتماعى والاقتصادى .. وهم كذلك عرضة للنتائج الحتمية لهذه الجاهلية .. من اضطراب وشقاء ، وتفتت وحرمان ..

ومن ثم فليس العرب وحدهم هم الذين كانوا يعيشون فى الجاهلية ، قبل الإسلام . وإنما كذلك كل قوم انحرفوا عن الهدى الربانى ، واتبعوا الأهواء ..

* * *

والذين يظنون أن الجاهلية هى جاهلية العرب قبل الإسلام وحدها .. نحب أن نبين لهم حقيقة الجاهلية ، ليتبينوا نوع الحياة التى يعيشونها فى القرن العشرين !

والذين ينافحون عن الجاهلية العربية ـ بدافع من العصبية ـ نحب أن نقول لهم يطامنوا من الجهد الجاهد الذى يبذلونه فى هذا السبيل .. فمهما أجهدوا أنفسهم فلن يستطيعوا أن يزعموا أن العرب فى جاهليتهم قد بلغوا من التقدم العلمى ، والتنظيم السياسى والاجتماعى و «القيم» الفكرية ما بلغته حضارة القرن العشرين ! ومع ذلك فالقرن العشرون أبشع فى جاهليته من العرب فى جاهليتهم قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان . بل إن جاهلية القرن العشرين ـ فى الواقع ـ أبشع جاهلية فى تاريخ البشر على ظهر الأرض .

لقد كانت الجاهلية العربية جاهلية ساذجة قريبة الغور ! تعبد أوثانًا محسوسة فجة ساذجة ! وتمارس ألوانًا من التصور وألوانًا من السلوك ، منحرفة .. نعم .. ولكنه انحراف ساذج غير عميق ! وكل ما كان من بطش قريش وكيدها وحرصها على «مصالحها» و «سيادتها» ، ووقوفها فى طريق الحق والعدل الأزليين من أجل هذه المصالح وتلك السيادة .. كل ما كان من هذا البطش والكيد ـ وإن يكن من حيث الجوهر موجودًا فى

كل جاهلية ، قديمة أو حديثة ـ إلا أنه كان يتخذ صورة بسيطة غير معقدة ، صريحة على كل التوائها ، مباشرة على كل تخابثها ، ذلك أن الفساد لم يكن فى أصل الفطرة بقدر ما كان فى مظهرها الخارجي .. فما هو إلا أن عرك الحق القشرة الخارجية الزائفة حتى استسلمت الفطرة للحق الأزلى ، وانجابت الظلمات ..

أما الجاهلية الحديثة فشأنها أوعر ، وأخبث ، وأعنف ..

إنها جاهلية «العلم» !

جاهلية البحث والدراسة والنظريات !

جاهلية النظم المستقرة المتعمقة فى التربة !

جاهلية التقدم المادى المفتون بقوته ، المزهو بما وصل إليه من آفاق !

جاهلية الكيد المنظم المدروس المخطط الموجَّه لتدمير البشرية .. على أسس علمية !

جاهلية لا مثيل لها فى التاريخ ..

* * *

وهذا الكتاب مَعْنِىّ بدراسة هذه «الظاهرة» التى يعيش فيها القرن العشرون .. ظاهرة الجاهلية ..

مَعْنِىّ بدراسة أسبابها . وملامحها . وانعكاساتها فى تصورات البشر وسلوكهم الواقعى . ونتائجها فى حياتهم . ومستقبلها .

وشواهدنا فى هذه الدراسة مستمدة كلها من الواقع الذى نعيش فيه ، سواء فى الشرق أو الغرب ..

شواهد من كل الأرض ..

وهدفنا من هذه الدراسة هو تصحيح التصور وتصحيح السلوك . هو كشف هذه الجاهلية التى تفتن الناس باسم «التقدم» و «التطور» و «الحضارة» و «المدنية» .. حتى يفيئوا إلى أنفسهم ، ويعرفوا حقيقة الهوة التى ينحدرون إليها ، وهم يحسبون أنهم مهتدون ..

وهدفنا كذلك التبشير بمستقبل البشرية ..

المستقبل الذى نؤمن به .. حين يخرج الناس من الظلمات إلى النور ..

وأنا أعلم بطبيعة الحال أن هذا الأمر لا يصنعه كتاب .. ولا ألف كتاب !

ولكنى هنا أسجل أمرين اثنين :

أولهما : أننى أومن حقا بأن «الكلمة» لا يمكن أن تضيع .. وإن تجافتها الآذان فترة من الزمان ..

والثانى : أننى أومن بأن هذا التحول من الظلمات إلى النور قد بدأ بالفعل !

بدأ فى الظلمات الحالكة بصيص من النور .. أراه رأى العين .. وعلى ضوئه أكتب هذا الكتاب .

والله الموفق لما يريد .

محمد قطب

تمهيد

إذا عرفنا أن الجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة فى ثنايا التاريخ ..

وإذا عرفنا أنها ليست المقابل لما يسمى بالعلم والحضارة والمدنية والتقدم المادى .. الخ ..

وإنما هى رفض الاهتداء بهدى الله ورفض الحكم بما أنزل الله ..

إذا عرفنا هذا وذاك فقد تهيأت أذهاننا ونفوسنا ـ بعض التهيؤ ـ للحديث عن جاهلية القرن العشرين !

نقول «بعض التهيؤ» .. لأن كثيرين ممن أخذتهم الجاهلية الحديثة فى طوفانها سيهزون أكتافهم ساخرين ، يقولون : إذا كان هذا مقصدكم «بالجاهلية» فنعم الذى نحن فيه ! إننا راضون عنها كل الرضا ، ولو سميتموها جاهلية ! بل نحن حريصون عليها كل الحرص ، نرفض أن نتخلى عنها ونعود إلى «هدى الله» ! فقد كان «هدى الله» هو الجهل والخرافة والتأخر والانحطاط والهمجية .. ونحن قد خرجنا منه عامدين .. لنتحضر ونتمدن .. ونخرج من الظلمات إلى النور .. ! كلا ! الجاهلية أحب إلينا مما تدعوننا إليه !

وصدق الله العظيم إذ يقول : «فاستحبوا العمى على الهدى !»[1] .

وصدق الله العظيم إذ يقول : «كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم ...»[2] فالجاهليون صنف واحد من البشر على مدار التاريخ !

* * *

لقد تهيأت أذهاننا ونفوسنا بعض التهيؤ للحديث عن الجاهلية الحديثة .. لم يعد الموضوع عجيبًا ولا مستنكرًا كما بدا لأول وهلة . ولكنه ما زال بعد فى حاجة إلى كثير من التوضيح ..

---

(١) سورة فصلت [١٧] .

(٢) سورة البقرة [١١٨] .

بل هو فى حاجة إلى بيان مستفيض يستغرق هذا الكتاب كله وكتبًا أخرى كثيرة لمن يشاء !

إن عقدة الجاهلية ـ كل جاهلية ـ أنها تستنكر هدى الله ، وتستحب العمى على الهدى ، وتزعم أن ما هى فيه هو الخير المحض ، وأن ما تُدْعَى إليه من الهدى هو الضرر والخسران !

ولا يستبين لها ما هى فيه من ضلال وانحراف وشقوة واضطراب ، إلا بعد أن تهتدى .. بعد أن تخرج من الظلمات إلى النور .. بعد أن تعود إلى استقامة الفطرة على هدى الله ..

ومهمتنا فى هذا الكتاب أن نبين للناس ما يعانونه من ضلال وانحراف وشقوة واضطراب .. وصلة هذا كله بابتعادهم عن هدى الله ..

ولن يكون الأمر سهلاً على نفوسهم ولا أفهامهم ! فقد تعودت الجاهلية أن تبث فى نفوس أهلها ألوانًا كثيرة من الانحراف فى التصور وفى السلوك :

فهى تارة تقول لهم إنهم لا يخالفون الله فيما هم عليه من تصورات ومن سلوك ! وإن الله قد أقر هذا الذى يصنعونه أو أمر به !

وتارة تقول لهم إنه لا يد لهم فيما يجرى من انحراف فى التصور وفى السلوك . فهو أمر «حتمى» لا يملكون رده ولا تغييره !

وهى دائمًا تفسر لهم الأمر من كل زاوية إلا الزاوية التى يجىء فيها ذكر الله وما أمر به الله ! فقوة ما ـ من قوى الأرض ـ هى الباغية . وقوة ما ـ من قوى الأرض ـ ينبغى أن تقاتل ، ووضع ما ينبغى أن يعدل .. ولكن دون أن تقاس هذه القوة أو هذا الوضع بمقياس الله .. لأنه ليس داخلاً فى الحساب !

وسيعجب الناس ـ حين يفيئون إلى أنفسهم ويتيقظون لما هم فيه ـ أن هذا ليس شأن الجاهلية الحديثة وحدها مع الناس ! وإنما هو شأن كل جاهلية فى ثنايا التاريخ !

«وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ! »[1] .

---

(١) سورة الأعراف [٢٨]

«سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ! »[1] .

« ....

فالجاهليات تختلف فى صورتها المادية والبيئية .. ولكنها لا تختلف كثيرًا فى تصوراتها وفى أفاعيلها على مدار التاريخ !

وأيًّا كان الأمر ، فلن يجد الناس من السهل عليهم أن يتبينوا ما هم فيه من انحراف ، أو أن هذا الانحراف ـ إذا تبينوه ـ ناشىء من ابتعادهم عن هدى الله ، أو أن هدى الله ـ حتى إذا تبينوا أن انحرافهم ناشىء من البعد عنه ـ يملك أن يخرجهم مما هم فيه من اضطراب وشقوة وألم وعذاب .. إلى الاستقرار والطمأنينة والسعادة والرضوان .. ويملك حلولاً لمشكلاتهم التى عقَّدوها على أنفسهم بما هم فيه من جاهلية وانحراف !

لن يجد الناس ذلك سهلاً على نفوسهم ، بعد الجهد الجهيد الذى بذلته الجاهلية الحديثة فى إبعادهم عن الله ، وتنفيرهم من هداه ، وتفسير الحياة لهم من خلال كل التفسيرات إلا التفسير الربانى الذى أنزله الله !

ولكن صعوبة الأمر لن تقعدنا عن تقديم هذا البيان ! ولا هى حائل حقيقى يحول بين الناس وبين الاهتداء إلى الحق ! فالناس ـ على غير ما توحى إليهم الجاهلية الحديثة ـ وكل جاهلية ـ يملكون فى لحظة أن يفتحوا قلوبهم للحق فيتبينوه ، ويملكون ـ بعد أن يعرفوه ـ أن يحبوه ، وأن يعملوا به ويجاهدوا فيه !

* * *

لن يصدق الناس فى بادىء الأمر !

لن يصدقوا أن ما هم فيه اليوم من اضطراب يشمل وجه الأرض قد نشأ من بعدهم عن الله !

فقد أوحت إليهم الجاهلية الحديثة أن «رأس المال» هو السبب فى هذه الشقوة . أو أنه «صراع الطبقات» أو أنه «الملكية الفردية» أو أنه «التناقضات الحتمية» أو أنه «الضغط الاقتصادى» أو ... أو ... ولم تقل لهم مرة واحدة إن الله أو سنة الله أو منهج الله ذو صلة قريبة أو بعيدة بواقع الحياة !

(١) سورة الأنعام [١٤٨] .

بل لقد سخرت الجاهلية الحديثة أيما سخرية من أى تفسير للحياة فى صعودها أو هبوطها ، فى سعادتها أو شقائها ، يفسر الأمر بسنة الله أو منهج الله ! وحرصت على إبعاد كل ما يتصل بالله جملة عن نفوس الناس وأذهانهم وهم يتناولون واقع الحياة ، سواء فى عالم التطبيق أو فى عالم النظريات !

وفوق ذلك فقد ربطت بين الله ومنهجه ، وبين العصور الوسطى وعصور الظلام ! كما ربطت بين العلم ومنهجه ، وبين البعد عن منهج الله !

لذلك لن يصدق الناس فى يسر فى بادىء الأمر !

* * *

ومنهجنا فى هذا البحث أن نبين للناس أولاً : كيف نشأت الجاهلية الحديثة .. صفحة من التاريخ .

ونبين لهم ثانيًا : ملامح الجاهلية التى يعيشون فيها .. صفحة من الحاضر .

ثم نتتبع ملامح الجاهلية فى حياتهم جميعًا . فى التصور والسلوك . فى السياسة والاقتصاد . والاجتماع وعلم النفس . والأخلاق والفن . وكل ما تشمله الحياة من نشاط . صفحة من الواقع .

ثم نبين لهم أخيرًا كيف كانت تصبح هذه الأمور كلها لو أنهم ساروا على منهج الله ، وكيف يمكن فى هذه اللحظة ـ إذا أرادوا ـ أن ينفضوا عنهم الغبار كله ، ويستووا على الطريق النظيف الصاعد على هدى من الله .. صفحة من الأمل فى المستقبل .

وفيما يلى من الفصول بيان لهذه الصفحات ..

صفحة من التاريخ

للجاهلية تاريخ قديم فى الأرض .. كما للإيمان !

كلاهما يرجع إلى الإنسان الأول ـ إلى آدم ـ وإلى بنيه ..

وكلاهما يرجع إلى الطبيعة البشرية ذاتها ، فى ازدواجها ، وقابليتها للضلال والهدى ـ وللجاهلية والعرفان : «ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها»[1] . «وهديناه النجدين» .[2] «إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا»[3] .

فكل ما يحدث من البشر على الأرض ، وكل ما يحدث لهم ، إنما يجرى على هذه السنة الإلهية التى خلقت الإنسان مزدوج الطبيعة ، قابلاً للهدى وقابلاً للضلال . ولم يحدث للبشر فى تاريخهم كله ، ولم يحدث منهم ، خروج على هذه السنة ولا إمكان للخروج عليها فى وقت من الأوقات ![4]

وتاريخ البشر كله على الأرض لا يخرج عن أحد هذين الوضعين : الهدى أو الضلال .. الإسلام أو الجاهلية !

ويتطور البشر على الأرض تطورات شتى ..

يتطورون بالمعنى الحقيقى المستقيم للكلمة ـ أى أنهم ينمون وينضجون ويتكاملون ..

أو يتطورون بالمعنى الزائف المنحرف ، أى ينحرفون عن سواء السبيل[5] .

---

(١) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .

(٢) سورة البلد [١٠] .

(٣) سورة الإنسان [٣] .

(٤) انظر كتاب «دراسات فى النفس الإنسانية» .

(٥) انظر كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية» .

ويتخذون فى تطورهم هذا وذلك «صورًا» شتى .. تلائم البيئة والتقدم المادى والعلمى والمستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى .. ولكنهم فى كل تطوراتهم ، وفى كل الصور التى يتخذها تطورهم ، لا يخرجون عن وضعين اثنين لا يوجد لهما ثالث : إما الهدى وإما الضلال .. إما الإسلام وإما الجاهلية !

ومن ثم ينتفى ـ فى وضوح ـ أى ارتباط بين الجاهلية وبين الزمان والمكان ، كما ينتفى أى ارتباط بينها وبين مستوى «العلم» والتقدم المادى والحضارة والمدنية والتنظيم ..

والهدى كله جوهر موحد .. والجاهلية كلها جوهر موحد .. ثم تختلف بعد ذلك الصور والأشكال .

الهدى هو المعرفة بالله ، واتباع هداه ..

والجاهلية هى الجهل بالله ، والابتعاد عن هداه ..

ثم يتخذ الهدى والجاهلية أشكالاً ـ فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفن والعلم ... الخ ـ تناسب ما بلغ إليه «العقل» البشرى فى احتكاكه بالكون المادى من حوله ، وما بلغت إليه «التجربة» فى التنظيم والتنسيق والربط بين مختلف العوامل فى الحياة .

ولا يخرج الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفن والعلم .. الخ ، فى أية حالة من حالاتها «المتطورة» عن أحد وضعين اثنين : إما الهدى وإما الضلال .. إما الإسلام وإما الجاهلية !

ومن هنا ينتفى ـ فى وضوح ـ أى ارتباط بين الجاهلية وبين «طور» معين من أطوار الإنسان أو أطوار التاريخ !

* * *

ولن نتتبع هنا كل صفحات التاريخ .. فذلك أمر مستحيل !

ولكننا نأخذ أمثلة منها تبين هذه الحقيقة التى أهملتها الجاهلية الحديثة إهمالاً متعمدًا لتفصل بين الناس وكل ما يربطهم بالله فى واقع الحياة !

الدين ـ منذ وجد ـ تنظيم شامل للحياة .. يشمل اجتماعياتهم واقتصادياتهم وسياستهم .. كما يشمل وجدانهم وعقيدتهم . وقد حرصت الجاهلية الحديثة ـ لأمر

سنبينه فيما بعد ـ على أن تنفى هذه الحقيقة ، وتزعم أن الدين لم يكن قط موكلاً بغير الوجدان والعقيدة ، وأنه لا شأن له بالتشريع للحياة !

فأما العقيدة فهى ثابتة لا تتغير.. الله هو الخالق ، والله هو المعبود.. (وإن اختلفت «صور» العبادة من دين إلى دين على مدار التاريخ).

وأما الشريعة فقد تدرجت مع الناس فى نموهم ونضوجهم ، من البساطة إلى التعقيد ، ومن التعميم إلى التفصيل.. حتى اكتمل الدين عقيدةً وشريعةً يوم قال تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينًا»[1].

وعلى مدار التاريخ وجد الهدى والجاهلية متجاورين ومتعاقبين.. كلما أرسل رسول ونزل من عند الله وحى.. فاستقام الناس على الهدى فى «أطوار» مختلفة من حياتهم ، وارتدوا إلى الجاهلية فى هذه الأطوار ذاتها أو فى أطوار أخرى.. فكان الهدى وكانت الجاهلية فى كل مرة متناسبين ومتناسقين مع «طور» الحياة الذى وجدا فيه :

«وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم. فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها. ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا. واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين»[2].

فهذه رسالة شعيب إلى قومه : عقيدة وشريعة. العقيدة الثابتة التى لا تتغير : «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره». وشريعة مبسطة ، تشمل خيوطًا اقتصادية : «فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم» ، وخيوطًا اجتماعية وسياسية : «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها.. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به..» على قد «الطور» الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى كانوا يعيشون فيه.

وفى هذا الطور نظم بعض الناس حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على هدى شريعة الله فكانوا مؤمنين. أو كانوا «مسلمين» بالمعنى الشامل للإسلام. وأبى آخرون ـ

---

(١) سورة المائدة [٣].

(٢) سورة الأعراف [٨٥ ـ ٨٦].

من قوم شعيب أنفسهم ـ أن ينظموا حياتهم على هدى الشريعة فكانوا على الجاهلية . وكلا الإسلام والجاهلية كان على مستوى «الطور» الذى يعيشه الناس فى ذلك الحين .

ثم .. جاء موسى عليه السلام ونزلت عليه التوراة فيها هدى ونور .. فيها العقيدة الثابتة التى لا تتغير : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. وفيها الشريعة التى تناسب نمو البشرية إلى مجتمع منظم ودولة وحكومة . فيها تشريعات اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة وشاملة : البيع والشراء . والزواج والطلاق . والجريمة والعقاب . ونظام الدولة .. الخ .

وفى هذا الطور كذلك نظم بعض الناس حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على هدى شريعة الله فكانوا مؤمنين ومسلمين . وأبى آخرون ـ من قوم موسى أنفسهم ـ أن ينظموا حياتهم على هدى الشريعة فكانوا على الجاهلية .. وكلا الإسلام والجاهلية كان على مستوى الطور الذى يعيشه الناس فى ذلك الحين .

ثم جاء عيسى عليه السلام بالإنجيل مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، وليحل لهم بعض الذى حرم عليهم ، فكان من حيث العقيدة والشريعة إتمامًا للتوراة وامتدادًا لها .. فتبعه قوم فكانوا مؤمنين مسلمين ، وأبى آخرون فكانوا على الجاهلية . وأخذ الإسلام والجاهلية كلاهما صورة الطور الذى يعيشان فيه .

ثم جاء الإسلام ..

واكتمل الدين وتمت نعمة الله على البشرية ..

جاء الإسلام عقيدة وشريعة ككل دين جاء من عند الله .. العقيدة الثابتة التى لا تتغير : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، والشريعة المتطورة فى آخر صورها .. الصورة التى أرادها الله لمستقبل البشرية كلها ، والتى وضعها الله على مستوى النضج للبشرية كلها ، وصاغها بحيث تشمل كل دقائق حياتهم ، وتسير مع كل نموهم و «تطورهم» حتى يرث الله الأرض وما عليها . وقد تحدثت بالتفصيل فى غير هذا الكتاب عن قضية الثابت والمتطور فى حياة الإنسان ، وكيف عالج الإسلام الأمرين معًا بحيث لا تخرج الحياة البشرية فى أية لحظة من «تطورها» عن مفاهيم الإسلام وتشريعاته[1] ، ولن

---

(١) اقرأ بالتفصيل فصل «الإسلام وحياة البشرية» فى كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية» .

يتسنى نقل الكتب الأخرى فى هذا الكتاب ! ولكنا سنعود إلى هذا الموضوع بالحديث المفصل فى موضعه من هذا البحث ..

وقد آمن بالإسلام قوم فأصبحوا مؤمنين مسلمين .. وأبى قوم آخرون فأصبحوا فى الجاهلية .. منذ ذلك الحين ..

و «تطورت» الحياة أو «تغيرت» فى خلال الأربعة عشر قرنًا التى مضت منذ مجىء الإسلام .. وظل الناس فى كل الأرض فريقين لا ثالث لهما : مسلمين أو جاهليين .. كلٌّ فى «الطور» الذى يعيش فيه ، وعلى مستوى ذلك الطور ومقتضياته .. إما قوم يعرفون الله حق معرفته فيهتدون بهديه ويحتكمون إلى شريعته فى تفصيلات حياتهم كلها ، فأولئك هم المسلمون ، وإما قوم لا يعرفون الله حق معرفته ، فلا يهتدون بهديه ولا يحتكمون إلى شريعته فأولئك هم الجاهليون [ولو كانوا «رسميا» أو «تقليديا» ممن يسمون أنفسهم مسلمين .. !] .

* * *

تلك أمثلة من التاريخ .. تبين حقيقة واضحة .

فالحياة كلها لا تخرج عن أحد وضعين : إما الهدى وإما الضلال .. إما الإسلام وإما الجاهلية .

والأطوار كلها تتشكل فى أشكال مختلفة ، جيلاً بعد جيل ، ولكنها تتشكل فى داخل أحد هذين الإطارين اللذين لا ثالث لهما : الهدى أو الضلال .. الإسلام أو الجاهلية . فليس الطور ذاته هو الذى يحدد الهدى أو الجاهلية .. وإنما الطريق الذى ينهجه هذا الطور هو الذى يحدد مكانه : إن كان فى إطار الهدى أو إطار الجاهلية . ومن جانب آخر فليس الهدى طورًا معينًا من حياة البشرية ، ولا الجاهلية كذلك . وإنما هما داخلان فى كل الأطوار من البدء إلى الانتهاء ..

تلك الأمثلة التى ذكرناها من التاريخ ، ليست هدفنا الحقيقى فى هذا الفصل ! إنما هى تقدمة ضرورية لتوضيح ما نريد أن نعرضه فى هذه الصفحة من التاريخ .. أما هدفنا فهو عرض تاريخ الجاهلية الحديثة : كيف بدأت ، ولماذا سارت فى خطها الذى سارت فيه حتى استفحلت فى هذا القرن العشرين ، والعوامل التى نفخت فيها حتى تضخمت وتشعبت وملأت واقع البشر كله فى هذا الجيل ..

* * *

أوروبا اليوم هى الغالبة على كل الأرض .. إن لم يكن بذاتها [وأمريكا مجرد امتداد لها] فبحضارتها ومفاهيمها وتصوراتها وعقائدها .

وتاريخ أوروبا كله تاريخ جاهلية متصلة الحلقات !

منذ القدم كانت الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية ..

ثم كانت جاهلية العقيدة المحرفة فى العصور الوسطى ..

وأخيرًا كانت الجاهلية الحديثة ، التى هى - فى جانب منها - ارتداد إلى الجاهلية اليونانية الرومانية ، وفى جانب آخر «تطور» فى الجاهلية استحدثته الداروينية واستغلته عبقرية التدمير من جانب اليهود ..

وإذ كان موضوعنا الرئيسى فى هذا الكتاب هو الجاهلية الحديثة .. فإننا سنمر مجرد مرور على جاهلية العصور القديمة وجاهلية العصور الوسطى ، بمقدار ما يلقى ذلك من الأضواء على الجاهلية الحديثة ، التى لم تنبت فجأة ، وإنما كانت لها جذورها العميقة فى التربة الأوروبية وفى أعماق التاريخ !

* * *

الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية هما الأساس الحقيقى «للحضارة» الأوروبية المعاصرة ! ذلك ما تعترف به المصادر الأوروبية ذاتها ، وإن كانت بطبيعة الحال لا تسميها جاهلية ، وإنما تسميها حضارة .

ولقد أفادت «النهضة» الأوروبية الحديثة كثيرًا - بل كثيرًا جدا - من الحضارة الإسلامية ، كما تقول المصادر الأوروبية ذاتها ، ولكنها - كما سنبين ذلك فى موضعه من هذا الفصل - لم تسر على الخط الإسلامى ولا الخط الربانى عامة بما أفادته من الحضارة الإسلامية ، بل صبغت ذلك بالصبغة اليونانية الرومانية ، وعادت إلى وثنيتها الأولى ، يغشيها غشاء رقيق من المسيحية - كما صورتها الكنيسة الأوروبية - غشاء ظل يرق رويدًا رويدًا حتى تمزق نهائيا فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ..

ومن ثم يحسن أن نلم ببعض ملامح الجاهلية اليونانية والرومانية قبل التعرض لجاهلية القرن العشرين .

* * *

كانت الجاهلية اليونانية تحتوى فنونًا وفلسفات ونظريات سياسية وتجريدات علمية نظرية .

وتراثها فى هذه الجوانب تراث كبير ..

وقد عنيت أوروبا فى «نهضتها» الحديثة بتتبع التراث اليونانى فى كل جوانبه ، ودراسته دراسة مستفيضة ، وتفصيصه إلى أدق جزئياته .. لأنه المعين الذى تقتات منه أوروبا فى عصرها الحديث .

وما من شك فى أنه كان «جهدًا» بشريا رائعًا ، فى تعدد جوانبه واتساع آفاقه ..

وما بنا أن نبخس الناس أشياءهم ! وما بنا أن نحاسب الإغريق على جوانب نقص فى تفكيرهم أو جوانب انحراف .. فقد اجتهدوا جهدهم . ولم يكن لهم من معلّم يقوّم انحرافهم ويردهم إلى الصواب فيه . ولا كان فى وسعهم ـ بمفردهم ـ أن يقوّموا هذا الانحراف ..

وإنما نريد فقط ـ بغير لوم موجه إلى أحد ـ أن نبين جوانب الانحراف فى التراث اليونانى ـ والانحراف سمة دائمة من سمات الجاهلية ـ لأنها تفيدنا فى تبين ملامح الجاهلية الحديثة ، التى تستمد غذاءها من ذلك التراث .

نقول : بغير لوم موجه إلى أحد .. أحد من أولئك الأقدمين ، الذين اجتهدوا جهدهم ولم يجدوا من يهديهم . ولكنّا لا نخلى من اللوم أولئك الذين يأخذون عنهم انحرافهم ـ فى الجاهلية الحديثة ـ بغير مبرر للانحراف .. إلا شهوة الانحراف !

وفى التراث اليونانى أشياء كثيرة نافعة دون شك .. كما فى التراث المصرى القديم والتراث العربى القديم والتراث الفارسى القديم والتراث الهندى والصينى ... الخ . ولكن هناك أمرين يستحقان التنبيه فى هذا الشأن :

الأول : أن أوروبا ـ فى جاهليتها الحديثة ـ قد بالغت مبالغة شديدة فى تضخيم التراث اليونانى ـ تعصبًا منها لأوروبا ! ـ حتى خيّلت للناس أنه ـ فى جميع أحواله ـ القمة التى ليس بعدها قمة .. بل القمة التى يقاس إليها الوحى الإلهى ذاته فيصدَّق أو يكذَّب ـ وهو غالبًا يكذَّب ! ـ لأنه المحك الصادق الذى لا يوجد أصدق منه فى الوجود ! !

الثانى : أن إعجابنا ببعض جوانب هذا التراث ـ كإعجابنا ببعض التراث المصرى

القديم أو الفارسى أو الهندى أو الصينى ـ لا ينبغى أن يكون معناه إعطاء هذا التراث قيمة «مطلقة» ! فإنما يقاس دائمًا إلى وقته . ولا ينبغى أن يكون معناه كذلك استيحاء هذا التراث فى انحرافاته الجاهلية التى ربما كان له عذر فيها ، ولكن لا عذر لنا نحن فى استيحائها واتباعها ، بعد إذ خرجنا ـ أو ينبغى أن نكون قد خرجنا ـ من الجاهلية إلى النور !

وعلى هذا الأساس نعرض انحرافات التراث اليونانى .. أو الجاهلية اليونانية .

هذه الجاهلية هى التى أوحت ـ ورسخت ـ فكرة الصراع بين البشر وبين الله ! أو «الآلهة» !

وبصرف النظر عن الاعتقاد بتعدد الآلهة ـ وهو سمة كل جاهلية ، قديمة أو حديثة ، سواء كانت الآلهة مادية محسوسة أو معنوية ، وسواء أكان هذا الاعتقاد مباشرًا وواضحًا أم ضمنيًّا وخافيًا ـ بصرف النظر عن التعدد فى ذاته ، فقد أضافت الجاهلية اليونانية إليه فكرة العداوة الضارية بين البشر وأولئك الآلهة المزعومين ..

وخير مثال لذلك أسطورة برُوميثيوس ، سارق النار المقدسة .

«فبروميثيوس» كائن أسطورى كان الإله «زيوس» يستخدمه فى خلق الناس من الماء والطين . وقد أحس بالعطف نحو البشر ، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم . فعاقبه «زيوس» على ذلك بأن قيده بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث وكل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد فى أثناء الليل ، ليتجدد عذابه فى النهار . ولكى ينتقم «زيوس» من وجود النار المقدسة بين أيدى البشر أرسل إليهم «باندورا» ـ أول كائن أنثى على وجه الأرض ـ ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشرى ! ! فلما تزوجها «إبيميثيوس» ـ أخو «بروميثيوس» ـ وتقبل منها هدية «الإله !» فتح الصندوق فانتثرت الشرور وملأت وجه الأرض ! !

«تلك طبيعة العلاقة بين البشر والله ! النار المقدسة ، نار «المعرفة» قد استولى عليها البشر سرقة واغتصابًا من الآلهة ، ليعرفوا أسرار الكون والحياة ، ويصبحوا آلهة ! والآلهة تنتقم منهم فى وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وتتفرد دونهم بالسلطان !»[1] .

---

(١) عن كتاب «منهج الفن الإسلامى» .

وقد قالت أوروبا ـ فى جاهليتها الحديثة ـ كلامًا كثيرًا جدًا عن الأساطير اليونانية المختلفة ، وعن هذه الأسطورة بالذات .. قالت إنه صراع الإنسان لإثبات ذاته ! إثبات وجوده ! إثبات فاعليته فى الحياة ! إثبات إيجابيته ! وإن العصيان ـ عصيان الله ـ هو برهان الإيجابية والفاعلية وإثبات الذات !

ولسنا هنا نناقش الجاهلية الحديثة .. ! وإنما نحن هنا نعرض فقط ألوانًا من الجاهلية اليونانية ليتضح لنا كيف أثرت فى الفكر الأوروبى فيما بعد !

إنه انحراف بشع تكاد تنفرد به ـ فيما أعلم ـ تلك الجاهلية اليونانية ! فالجاهليات الأخرى ـ فيما أعلم كذلك ـ قد توهمت وجود آلهة متعددة . وجعلت من بعض هؤلاء الآلهة آلهة شريرين صناعتهم الشر والانتقام والإيقاع بالإنسان بلا غاية سوى التدمير والإهلاك .. ولكن الجاهلية اليونانية وحدها هى التى اختصت بتصوير هذا الصراع المنفر بين البشر والآلهة ، من أجل إثبات فاعلية الإنسان وإيجابيته ! فكتبت اللعنة على الإنسان : أنه لا يثبت ذاته إلا على حساب عقيدته . وأن ضميره لا يصطلح مع الله . فلا يقوم الوئام فى داخل نفسه بين رغبته الفطرية فى إثبات ذاته ، ورغبته الفطرية فى الإيمان بالله !

* * *

والجاهلية اليونانية هى التى قدست «العقل» على حساب الروح .

إنها ، وهى تحاول ـ فيما تزعم لها الجاهلية الأوروبية الحديثة ـ أن تبرز كيان الإنسان ، وقداسته ، وإيجابيته ، وعلو قدره ، ورفعة جوهره ، وارتفاع قيمته فى الحياة ، قد أهدرت أرفع جوانبه وأعظمها ـ جانب الروح ـ فلم تلتفت إليه كثيرًا كما التفتت إلى العقل ، وجعلته سيد الإنسان !

والعقل طاقة بشرية ضخمة تؤدى دورها الكامل فى إثبات وجود الإنسان وفاعليته وإيجابيته فى هذا الكون ما فى ذلك شك . ولكن الإيمان به وحده .. أو الإيمان به على حساب الروح .. هو انحراف جاهلى يصغر من قيمة هذا الإنسان فى النهاية ، حين يجعله حيوانًا عاقلاً فحسب ، كما عرفته الفلسفة اليونانية ! وهو فى حقيقته «إنسان» .. كائن آخر غير الحيوان ! إنسان رفيع بكيانه كله ، لا بعقله وحده .. ورفيع بشموله وتكامله

وترابطه - بصورة فريدة لا تتحقق إلا فى الإنسان[١] .

ومن جراء هذا التقديس للعقل على حساب الروح - أو على حساب الجانب الملهم من الإنسان - حدثت جملة انحرافات فى الجاهلية اليونانية .. فما لا يستطيع العقل إدراكه يصبح شيئًا ساقطًا من الحساب . وكل الوجود يُتناول من جانبه العقلى وحده .. بما فى ذلك الوجود الإلهى ذاته .. فالله ـ سبحانه ـ موجود بمقدار ما يستطيع العقل أن يدركه .. ولا وجود له إلا فى داخل ذلك الإطار[٢] ! أما الإدراك «الروحى» لله فضعيف الأثر جدا فى الإنتاج اليونانى كله [وفى الجاهلية الحديثة من بعد !] .

كذلك حدثت التجريدات الذهنية التى ملأت الفلسفة اليونانية ـ وهى نتيجة طبيعية للمبالغة فى الاهتمام بالعقل ـ والتى ظلت تستنفد طاقة أوروبا فى جاهليتها الوسطى حتى نبذتها فى عصرها الأخير بتأثير المذهب التجريبى الذى أخذته عن المسلمين - كما سنبين فيما بعد .

وكذلك صارت «الأخلاق» قضايا ذهنية أكثر مما هى واقع عملى حى . وحقيقة إن «الديمقراطية» اليونانية كانت تربى أفرادها على فضائل اجتماعية معينة ، ولكنها ـ بعقلها ـ لم تهتد مثلاً إلى الحاسة الخلقية فى أمر الفوضى الجنسية .. فتركتها بلا ضابط ، وأدى بها ذلك إلى الدمار ..

* * *

تلك «بعض» انحرافات الجاهلية اليونانية ، نمر بها سريعًا لأنها ـ كما قلنا ـ ليست نقطة ارتكازنا فى هذا البحث . ولكنا نود أن نخرج منها بمجموعة من الحقائق تنفعنا فى متابعة النظر فى أمر الجاهلية الحديثة وكل جاهلية فى التاريخ .

أولاً : أن وجود بعض الفضائل أو المزايا أو الإنتاج الرفيع فى أية جاهلية ـ ولا تخلو

---

(١) انظر كتاب «دراسات فى النفس الإنسانية» .

(٢) يقول تعالى : «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» ويقول تعالى : «ليس كمثله شىء» . وقد تخبطت الفلسفة اليونانية تخبطًا ذريعًا فى حديثها عن الحقيقة الإلهية ، فى حدود إدراك العقل البشرى القاصر - وكل إنتاجها فى هذا السبيل لا يزيد على لغو باطل . فضلاً عن كونه لم يؤثر تأثيرًا حقيقيًا فى واقع البشرية ولا فى قضية العقيدة . فإن أحدًا لم يؤمن بالله عن طريق التجريدات الذهنية الفلسفية .. ولا كانت هذه التجريدات الفارغة عنصرًا قائمًا فى وجود أمة مؤمنة أو مجتمع فاضل فى التاريخ !

أية جاهلية من مثل ذلك ـ لا يعنى أنها كانت تحيا حياة سليمة ، ولا أنها صالحة للاتباع والاقتباس !

ثانيًا : أن وجود هذه الفضائل والمزايا والإنتاج الرفيع فى أية جاهلية لا يرفع عنها وصمة الجاهلية ! فإنها مصابة حتمًا بانحرافات تشوه هذه المزايا كلها وتفسد حصيلتها فى النهاية !

ثالثًا : أن السبب الرئيسى فى هذه الانحرافات أن الجاهلية تحكم بأهوائها ـ أو بمعرفتها البشرية القاصرة .. سيان ! ـ لأنها لا تعرف هدى الله ، أو تعرفه وتنحرف عنه لتتبع سواه !

فإذا عرفنا هذه الحقائق المفيدة ، نمضى فى استعراض الجاهلية الرومانية على نحو ما فعلنا فى جاهلية اليونان .

* * *

الجاهلية الرومانية هى جاهلية المادة ، وجاهلية الحواس !

ولقد أبدعت هذه الجاهلية أشياء كثيرة نافعة للبشرية ، كما أبدعت ـ من قبل ـ جاهلية اليونان ..

أبدعت «التنظيم» .. التنظيم السياسى والإدارى والحربى والمدنى ..

وأبدعت «المدنية» بمعنى استخدام الوسائل المادية والإنتاج المادى لرفاهية الناس وتيسير الحياة عليهم .. فأنشأت الطرق والجسور وخزانات الماء وقنواته ، والحمامات ، والمسارح والملاعب ..

وقد مر بنا ـ منذ سطور ـ أن الجاهلية ـ أية جاهلية ـ لا يمكن أن تخلو من بعض الخير وبعض النفع . كما مر بنا فى تلك السطور أن وجود هذا الخير النسبى لا يمنع الجاهلية من الانحراف ! ولا يمنعها فى النهاية من الدمار !

أعظم انحرافات الجاهلية الرومانية إيمانها العنيف بالمادة .. على حساب الروح . فالوجود هو الوجود المادى . الوجود الذى تدركه الحواس . أما الذى لا تدركه الحواس فهو شىء لا وجود له ، أو فى القليل شىء ساقط من الحساب . ومن ثم كان أشد الجوانب ضحالة فى حياة الرومان جانب العقيدة !

ومن أعظم انحرافاتها كذلك التضخيم الشديد لعالم الحس .. واللذائذ الحسية .. ومن ثم غرق الرومان فى متاع فاجر لا يقف عند حد .. متاع تجاوز لذائذ الجنس ـ البالغة حد الابتذال ـ إلى لذة الاستمتاع الوحشى بإراقة الدم والقتل والتعذيب والتمثيل ، فى لعبتهم الوحشية المفضلة التى كانوا يجتمعون لمشاهدتها وينفقون فى سبيلها بسخاء ، والتى كان يتصارع فيها الأرقاء ـ المدربون للقتل والموت ! ـ يتصارعون بالسيوف والخناجر ، يشقون بطون بعضهم البعض ، ويقطّعون أوصال بعضهم البعض ، ويريقون دماء بعضهم البعض .. والوحوش من «سادة» الرومان يتابعون المنظر بلذة وشغف ، ويصل المرح منهم أقصاه حين تنتهى المبارزة الوحشية بقتل أحد المتلاعبين أو كليهما فى حلبة الصراع !

ومن أعظم انحرافاتها كذلك «العدل» الرومانى الشهير .. للرومان فقط ! هم وحدهم يستمتعون بالعدالة ! أما بقية العبيد .. وهم كل الشعوب المستعمَرة المستغَلة التى تكوّن الإمبراطورية الرومانية الواسعة ، فهم عبيد ! لا عدالة لهم ولا حقوق . وعليهم فقط واجبات !

تلك «بعض» انحرافات الجاهلية الرومانية .. الشهيرة فى التاريخ !

* * *

فإذا انتقلنا إلى العصور الوسطى فثمت جاهلية من نوع آخر .. جاهلية العقيدة المحرفة .

يقول دريبر الأمريكى فى كتابه «النزاع بين الدين والعلم» :

«دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يومًا من الأيام .. وكذلك كان قسطنطين . فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً فى آخر عمره (سنة ٣٣٧ م.) .

«إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من قطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء

بسواء .. هنا يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى على منافسه (الوثنية) قضاء باتا ، ونشر عقائده خالصة بغير غبش ..

«وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبدًا للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئًا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ أن يوحدهما ويؤلف بينهما : حتى إن النصارى الراسخين أيضًا لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وأن الدين النصرانى سيخلص فى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها ! »[1] .

وتكفينا هذه الشهادة من كاتب مسيحى غربى ، لإثبات الانحراف الذى وقع فى أوروبا عن العقيدة الصحيحة ، ولا نحتاج معها أن نخوض فى التفصيلات .. وإنما يهمنا أن نشير إلى جملة انحرافات فى الحياة الواقعية للجاهلية الأوروبية فى العصور الوسطى .. التى كانت ـ فى ظاهر الأمر ـ تعيش فى ظلال الدين !

كانت المسيحية ـ ككل دين منزل من عند الله ـ عقيدة وشريعة . وإن كانت لم تأت بتفصيلات تشريعية فذلك لأن شريعتها الأساسية كانت التوراة ، مع التعديلات غير الكثيرة التى نزلت على عيسى عليه السلام فى الإنجيل : «ومصدقًا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم »[2] فكان المفهوم الطبيعى للمسيحية أن تحكم بشريعة الله المنزلة فى التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة فى الإنجيل .

ولكن الذى حدث بالفعل لم يكن كذلك . فعلى الرغم من النفوذ الضخم الذى زاولته الكنيسة فى أوربا فى العصور الوسطى ، فلم تكن الشريعة الإلهية مطبقة فى غير قانون «الأحوال الشخصية» .. أما واقع الحياة الأكبر فلا تحكمه شريعة الله ، وإنما يحكمه القانون الرومانى .. أو ـ إن شئت ـ تحكمه الجاهلية الرومانية القديمة !

وهذا الفصل بين الدين والحياة الواقعة ـ على الرغم من نفوذ الدين الغالب على مشاعر الناس وتصوراتهم ـ كان سمة خطرة فى جاهلية العصور الوسطى فى أوروبا .. وإن لم يكن أخطر السمات !

---

(١) عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد أبى الحسن الندوى .

(٢) سورة آل عمران [٥٠] .

لقد مضت الكنيسة تزاول سلطانها على القلوب والمشاعر ـ وإن كانت مع ذلك لا تجد بأسًا فى أن يأخذ القانون الرومانى مكانها فى واقع الحياة ـ وذهبت فى فرض هذا السلطان إلى المدى الذى جاوز كل حد معقول . فقد احتجز الكهنة لأنفسهم ملكوت السماء واحتكروه ! فلا يُدخلون فيه إلا من رضى عنهم ورضوا عنه . أما الآخرون فهم « محرومون » من الرضوان .

وراحت الكنيسة تفرض على الناس ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة ! فالعشور والإتاوات والعمل المجانى فى أراضى الكنيسة الإقطاعية ، والتجنيد فى جيوشها التى تحارب بها الملوك العصاة وتؤدبهم .. ذلك لون من السلطان المفروض على العباد . والخضوع المذل لرجال الدين ، الذى يبلغ حد السجود فى الأرض الموحلة بالطين عند مرور أحد من رجال الكهنوت . لون آخر من السلطان . والأفكار « العلمية » الزائفة التى تفرضها على العقول وتعاقب من يخالفها بالحرمان ، أو التعذيب حتى الموت ، لون ثالث من السلطان الجائر الغشوم . فلما أثبت العلم النظرى والتجريبى بطلان هذه النظريات على يد جردانو برونو وكوبرنيكوس وجاليليو راحت الكنيسة تعذبهم حتى يموتوا أو يرتدوا عما هم فيه !

ولم تكتف الجاهلية القائمة باسم الدين بهذا كله ، وإنما ذهبت شوطًا أبعد ، حين انقلبت الأديرة الرهبانية المقامة للتبتل والعبادة ـ تطوعًا دون فرض ـ « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .. انقلبت إلى مباءات ترتكب فيها كل الجرائم الخلقية من سوية وشاذة .. بين الرهبان أنفسهم والراهبات ! : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ـ إلا ابتغاء رضوان الله ـ فما رعوها حق رعايتها »[1] .

وأخيرًا كانت مهزلة صكوك الغفران الشهيرة فى التاريخ .. التى حولت أمر الدين إلى مهزلة ضخمة لا جدية فيها ولا « حقيقة » وإنما لهو وعبث وتدليس ومجون ...

وتلك « بعض » انحرافات الجاهلية التى قامت فى العصور الوسطى فى أوروبا .. باسم الدين .

* * *

---

(١) سورة الحديد [٢٧] .

الجاهلية الحديثة هى خلاصة هذه الجاهليات مجتمعة .. وعليها مزيد !

وسنتتبع بالتفصيل فى الفصول القادمة من الكتاب كل ملامح الجاهلية الحديثة فى التصور وفى التطبيق ، إنما نحن هنا معنيون بتتبع خطوات التاريخ ..

لقد ولدت «النهضة» الأوروبية الحديثة على مبعدة من الدين .. إن لم نقل على عداء مع الدين .

وكان هذا أمرًا «طبيعيا» بالنسبة للظروف فى أوروبا .. وإن لم يكن بطبيعة الحال هو الصواب !

فى العصور الوسطى قامت الحروب الصليبية بين أوروبا «المسيحية» وبين الإسلام .

وعلى الرغم من أن أوروبا لم تكن فى حقيقتها مسيحية ، كما رأينا فى الفقرة السابقة ، إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تتعصب وتتجمع لمحاربة الإسلام ، حربًا وصلت إلى حد الوحشية فى كثير من الأحيان . والتعصب ذاته دليل على التدين الزائف . فالمتدين الحق لا «يتعصب» وإنما «يهتدى» بكل هدى يأتيه من عند الله .

وأيًّا كان الأمر فقد رفضت أوروبا الفرصة المتاحة لها لتهتدى إلى دين الله ومهجه ، وأصرت على جاهليتها التى كانت غارقة فيها إلى الأذقان ...

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ...

لقد كانت هناك عوامل متعددة تدفع العجلة إلى الأمام دفعًا .. ولكن فى أى طريق ؟!

كان احتكاك الصليبية بالعالم الإسلامى إيذانًا بتحول جذرى فى الحياة الأوروبية ، كما كان اتصال أوروبا بالإسلام فى المغرب والأندلس من أهم العوامل فى تاريخ أوروبا الحديث .

يقول : «بريفولث» فى كتاب «بناء الإنسانية "Making of Humanity"» .

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية [يقصد الإسلامية كما قال

فيمابعد][1] على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة . بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية . **فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوروبى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة** ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى » .

هذا الاحتكاك وذلك ، هما اللذان أحدثا « النهضة » الأوروبية الحديثة . وبدلاً من أن تهتدى هذه النهضة بالمنهج الربانى ، الذى أنشأ الحضارة الأصلية التى اقتبستها أوروبا ، وأقامت عليها نهضتها ، فإنها راحت تخاصم الإسلام فى ضراوة ، وفى الوقت ذاته تخاصم « الدين » و « العقيدة » !

فأما خصامها للإسلام فكان حصيلة التعصب الأحمق ، الذى بلغ ذروته فى الحرب الصليبية الضارية ..

وأما خصامها للدين فقد أنشأته فى نفوس الأوروبيين حماقة الكنيسة وتصرفاتها المثيرة للنفوس .

كانت الكنيسة تحارب « العلم » ، لأن الجهالة هى سندها الأكبر فى الاحتفاظ بسلطانها على الجماهير . ويوم تتعلم الجماهير .. يوم تعلم أن ما تلقنه إياها الكنيسة يشتمل على مجموعة من الأساطير التى لا تثبت للمناقشة .. يومئذ لن تسلم الجماهير قيادها للكنيسة بالسهولة التى يتم بها الأمر فى ظل الجهالة والظلام !

---

(١) لم يعرف التاريخ « للعرب » حضارة متميزة إلا بالإسلام . ولم تكن الحضارة الإسلامية حضار « للعرب » كجنس . إنما كانت نتاج الإسلام ذاته ، من جميع العناصر المسلمة التى دخلت فى الإسلام . وهى تحمل طابع الإسلام لا طابع العرب ، الذين يكوّنون عنصرًا واحدًا من العناصر الكثير التى صنعت هذه الحضارة .

وكانت الكنيسة تحارب «الحرية» ، لان الحرية عنصر خطر على السلطان الغاشم . ويوم يحس الناس طعم الحرية ويتذوقونه ، فلن يصبروا على العبودية ، ولو كانت العبودية تفرض عليهم باسم الدين وسلطانه !

وكانت الكنيسة تفجر وتعبث داخل أديرتها وهياكلها ، وهى تفرض على الناس الزهادة والتقوى ، وتطالبهم بمكارم الأخلاق !

وذلك فوق الإتاوات والعشور .. وفوق مساندة الإقطاع ضد الفلاحين الذين يسحق كيانهم الفقر والحرمان ..

فإذا قامت «النهضة» فى أية لحظة ، فستقوم ولا شك على مبعدة من «هذا» الدين .. إن لم تقم على عداء معه وبغضاء ..

وذلك هو الذى حدث بالفعل ..

ولدت تلك النهضة على أساس غير دينى «"Secular"» . وارتكزت على محور يبتعد فى دورانه رويدًا رويدًا عن الدين والعقيدة وما حولها من مشاعر وأحاسيس .

لقد عادت إلى منابعها الأولى ، فيما قبل المسيحية ، إلى التراث اليونانى والرومانى القديم ! أى أنها عادت ـ وهى جاهلية ـ إلى الجاهليتين الكبيرتين اللتين كانتا سائدتين قبل جاهلية العقيدة المحرفة فى العصور الوسطى .. فى «عصور الظلام» .

واعتبرت ذلك رجوعًا إلى «النور» .. !

وحقا لقد كان هناك نور ولا شك .. النور الذى سطع من العالم الإسلامى على أوروبا المظلمة ، فحرر عقولها من الخرافة ، وحرر نفوسها من الخضوع المذل لسلطان الكنيسة الجائر ، فاستنكفت العبودية للبشر ، وسعت إلى الحرية من كل سبيل .

ولكنها لم تأخذ النور على أصوله ، ولم تهتد بهديه الصحيح ..

لم تتجه إلى الله على منهج الإسلام الذى اقتبست منه هذا النور .

بل لقد تنكرت حتى لأساتذتها الذين علموها العلم ، فقامت ـ فى وحشية محاكم التفتيش الشهيرة ـ تطرد المسلمين من الأندلس ، لتردها إلى السلطان الغشوم !

لقد تعلمت من المسلمين «العلم» . وتعلمت «الحضارة» . وتعلمت «الحرية» .

تعلمت المنهج التجريبي الذى قامت عليه نهضتها العلمية الحديثة .

وتعلمت التجمع فى «أمم» بعد أن كانت إقطاعيات منفصلة يحكم كلا منها طاغية إقطاعى ، تتمثل فى شخصه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ، ويتأله فى إقطاعيته على العبيد .

وتعلمت حقوق الإنسان .. فقامت تطالب بتحرير كيان الإنسان وضميره من العبوديات التى تخنقه وتكتم أنفاسه ..

ولكنها كانت رغم ذلك جاهلية . فقد رفضت أن تهتدى بمنهج الله فى ذلك كله . وارتدت بذلك النور الذى قبسته من العالم الإسلامى ، إلى تراثها الجاهلى القديم .. تراث الإغريق وتراث الرومان ..

وضاعت الفرصة أمامها للنجاة ..

لقد تعلمت ، وتحضرت ، وتحررت .. وشيدت حضارة ضخمة متطاولة .. ولكنها أقامتها على جرف منهار !

* * *

وقد مر بنا من قبل أن «الجاهلية» ليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة والمدنية وتقدم الإنتاج المادى .. فكل ذلك يمكن أن يوجد ، ويكون الناس رغم ذلك فى جاهلية عمياء .

ومر بنا أن كل جاهلية لا تخلو من عناصر نافعة للبشرية .. ولكن ما فيها من النفع النسبى لا يرفع عنها وصمة الجاهلية ، ولا ينقذها كذلك من النهاية الحتمية للجاهلية .

ولا نريد أن نتعجل الحديث .. إنما نسير خطوة خطوة مع التاريخ .

* * *

لم يكن الابتعاد عن الدين ضربة واحدة مفاجئة وحاسمة .. فليس هكذا طبائع النفوس !

إنما تحدث الأشياء فى نفوس البشر فى تدرج بطىء ، جد بطىء . وإذا كان البطء يحدث فى نفس كل فرد بمفرده ، فإن الأمور أشد بطءا فى نفوس الجماعة ، لأن تكتلها

يحمى الأفكار والمشاعر من الانهيار السريع ، ويكوّن لونًا من المقاومة لكل وافد جديد .. يستوى فى ذلك أن يكون البناء القائم مشتملاً على الخير أو الشر ، وكذلك بالنسبة للوافد الجديد ..

من أجل ذلك عاشت أوروبا قرونًا كاملة بشخصية مزدوجة ، وثنية ومسيحية فى ذات الوقت .

«النهضة» تسير فى طريقها ، مستمدة من الوثنية اليونانية والرومانية ، ومحوِّلة كل تقدم يأتيها من الحضارة الإسلامية والعلم الإسلامى إلى طريق هاتين الجاهليتين العريقتين فى التاريخ ..

و «العقيدة» قابعة فى ضمائر الناس ، مؤثرة ـ إلى حد ما ـ فى سلوكهم الشخصى وفى مفاهيم حياتهم ، وإن كانت هذه الحياة تحكمها ـ رويدًا رويدًا ـ مفاهيم غير مستمدة من الدين ، أو متعارضة مع الدين .

وفى ظل هذا الازدواج قام ما عرف فى التاريخ الأوروبى باسم حركات «الإصلاح» الدينى ، تلك الحركات التى تحاول رد الدين إلى نقائه ، وتحاول فى الوقت ذاته بسط سلطانه على أوسع رقعة من الحياة .. ولكن ذلك لم يكن فى الإمكان . أو هو على الأقل لم يحدث بالفعل . والسبب فى ذلك أن الدين ـ حتى فى مفهوم المصلحين أنفسهم ـ كان ما يزال يحمل ذلك الطابع الجاهلى ، وهو فصل العقيدة عن الشريعة ، والسماح لشريعة أخرى ـ غير شريعة الله ـ أن تحكم واقع الحياة . ومن ثم فكل «إصلاح» دينى ، فهو إصلاح فى الجانب القابع فى الضمير ، وليس فى واقع الحياة !

وذلك فضلاً على أن بواعث هذه الحركات الكامنة كانت بواعث «قومية» لا «دينية» فى حقيقتها ! فقد كانت «الشعوب» تريد إبراز «قوميتها» بانفصال كنيستها عن كنيسة روما البابوية .. وذلك أمر مناف لطبيعة العقيدة التى تجمع الناس على أساس توحدهم فى الاتجاه إلى الله ، لا على أساس قوميتهم أو الرقعة التى يسكنونها من الأرض !

إن الكيان البشرى وحدة .. لا يمكن تفتيته إلى وجدان وواقع .

والحياة البشرية وحدة .. لا يمكن تفتيتها إلى مشاعر وسلوك .

وكذلك الدين المنزل من عند الله .. وحدة لا تنفصل فيها العقيدة عن الشريعة ، ولا الوجدان عن واقع الحياة .

وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه حركات «الإصلاح» الدينى ، كانت «الرأسمالية» النابتة تغير وجه الأرض .. على أسس غير دينية ، من ربا وغش ونصب واحتيال ، وظلم فادح للكادحين وامتصاص لدمائهم .. والمصلحون مشغولون بإصلاح الوجدان ..

وأيًّا كان الأمر فقد ظل الازدواج فى شخصية أوروبا عدة قرون ..

ولكن الناظر إلى خط التاريخ لم يكن ليخطىء اتجاه الأحداث .. فقد كان الاتجاه يسير ولا شك نحو «اللادينية» (Secularism) فى كل مرافق الحياة ، ويبتعد فى سيره رويدًا رويدًا عن طريق الدين .

ولكن العملية سارت بطيئة ومتدرجة ، حتى كان القرن التاسع عشر .. قرن الأحداث الكبرى فى التاريخ الأوروبى ..

حدثان اثنان من بين الأحداث حددا خطوط التاريخ ..

الداروينية .. والانقلاب الصناعى ..

وكأنما كانا على ميعاد ! على ميعاد لتحطيم ما بقى من بناء العصور الوسطى ، أو ـ بالأحرى ـ ما بقى من جاهلية العصور الوسطى ، لإقامة بناء جاهلى جديد ، شامخ مرتفع .. جاهلية العصر الحديث .

الداروينية رجت العقيدة رجًّا عنيفًا فى عالم النظريات والأفكار ، والانقلاب الصناعى .. فى عالم التطبيق !

* * *

ولد دارون سنة ١٨٠٩ ، وفى سنة ١٨٥٩ أصدر كتابه فى «أصل الأنواع» ونشر كتابه فى «أصل الإنسان» سنة ١٨٧١ .

وبعد ذلك توالت الأحداث فى عالم العقيدة وعالم الأفكار .

لقد انطلق المارد من القمقم ، ولم يعد إلى رده سبيل .. مارد اسمه «التطور» !

مارد غاشم يكتسح كل شيء فى سبيله ، ويصر على تحطيم كل شيء «ثابت» فى الطريق !

وقد تحدثت فى كتاب «التطور والثبات» وفى كتب أخرى عن الرجة التى أحدثتها الداروينية فى عالم العقيدة ، وفى الفكر الأوروبى كله . ولا أملك هنا إعادة الحديث كله . فأكتفى بسرده فى عبارة موجزة حتى نعود إليه مرة أخرى فيما يلى من الفصول .

إن فكرة التطور لم تنحصر فى الدراسة المعملية التى قام عليها دارون ، ولا كان فى الإمكان أن تنحصر فى هذا النطاق . وإنما انطلقت تصيب العلماء والجماهير ، فتدير رءوسهم حتى لم يعودوا يرون شيئًا «ثابتًا» فى الوجود كله ، حتى فكرة العقيدة .. حتى فكرة الله !

وقامت الحرب العنيفة بين الكنيسة وبين دارون . هى تتهمه بالإلحاد وهو يتهمها بالجهالة والتخريف .. ووقفت الجماهير فى مبدأ الأمر مع الكنيسة ، فقد عزت عليها عقيدتها ، وعز عليها أن يصورها دارون فى صورة حيوانية هابطة . ولكنها عادت فوقفت فى صف دارون ، لأنها وجدتها فرصة سانحة لتحطيم ما بقى من سلطان الكنيسة الجائر الذى تستذل به الرقاب ..

وانجلت المعركة عن انحسار الدين ، وانتصار المارد المنطلق من القمقم لا يقف فى طريقه شيء ..

* * *

وفى أثناء ذلك كان الانقلاب الصناعى يدك الأرض دكًا ، ويقلب صورة المجتمع كله ليقيم بناءه الجديد ..

بناء منفصل عن العقيدة ..

كل شيء فيه يحارب الدين أو يجافيه ..

الرأسمالية الطاغية لا تقف عند حد فى امتهان «وصايا» الدين كله . فهى تسرق وتنهب وتقتل وتسفك الدماء . وهى تلهّى الناس عن حياتهم الجادة البسيطة ، لتحصل على مزيد من الأرباح من بيع أدوات الترف والزينة والفساد [إلى جانب ما تقدمه لهم من نفع بطبيعة الحال] . وهى تُخرج المرأة لتعمل بحثًا عن لقمة الخبز ، ثم تستغلها

لتحطيم حركات العمال من الرجال ، الثائرين على استغلال الرأسمالية لهم واستهلاك طاقتهم لقاء الأجر الزهيد .. وفى الطريق تفسد أخلاقها مقابل الحصول على لقمة القوت .. وهى تجمّع العمال الشبان فى فترة الشباب الفاره بعيدًا عن أسرهم ، فتنتشر بينهم الفساد الخلقى ، وتيسر لهم حل «أزمتهم» عن طريق البغاء .

وهكذا .. وهكذا تدك معاقل العقيدة ومعاقل الأخلاق ..

* * *

ولكن الأمر لم يكن مقصورًا على الداروينية والانقلاب الصناعى ..

لقد كانت هنالك الشياطين !

كانت اليهودية العالمية تترقب الفرصة السانحة لتحقيق حلمها الكبير .. حلم السيطرة على البشرية .. على «الأميين»[1] .

إن التلمود يقول لهم : إن الأميين هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار !

وتعاليمهم السرية تقول لهم : تربصوا حتى تجدوا الغفلة التى تثبون فيها على ظهور الحمير .

ولقد فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بمولد «النهضة» الأوروبية على أساس لا دينى .. فذلك نصف الطريق نحو تحطيم العقيدة الأوروبية . والعقيدة هى العدو الدائم لليهودية العالمية . فهى العقدة الصلبة التى تقاوم مكر الشياطين ، فإذا انحلت العقدة فقد سهل على الشياطين حينئذ أن يركبوا الحمير .

لقد قال تعالى للشيطان : «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين»[2] .

---

(١) هذا تعبير القرآن : «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل» وأنا أفضله على كلمة «الأمميين» التى تترجم إليها كلمة Gentiles أى كل الأمم من غير اليهود .

(٢) سورة الحجر [٤٢] .

وقال تعالى عنه : «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»[1]

وقال : «إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون»[2] .

وقد ظل أعوان الشيطان وأولياؤه من شياطين اليهودية العالمية يتربصون حتى أمدتهم الظروف بالحدث الضخم أو الحدثين التاريخيين : الداروينية ، والانقلاب الصناعى !

ربما لم يكن دارون شيطانًا .. ربما لم يكن يريد الشر بالبشرية .

ربما كان عالمًا يروى ما يعتقد أنه الحق . وعلى الرغم من الأخطاء التى ارتكبها فى نظريته ، والتى كشفت عنها الداروينية الحديثة ذاتها Neo Darwinism ، رغم إيمانها بمبدأ الداروينية .. إذ آمن دارون بحيوانية الإنسان ، وكشف العلم بعد ذلك عن تفرد الإنسان حتى فى كيانه البيولوجى البحت ، فضلاً عن كيانه النفسى والعقلى والروحى .. على الرغم من هذه الأخطاء فى نظرية دارون ، فربما لم يكن هو سيىء النية فى تقديم نظريته ، وإن كان من العسير تبرئته من الخطأ فى فصل نظريته عن مفاهيم الدين حيث يقول : «إن تفسير الحياة بتدخل الله يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت» ! وحيث يقول : «إن **الطبيعة** تخلق كل شىء ، ولا حد لقدرتها» !

ولكن شياطين اليهود هم الذين توفرت فيهم الخبائث من سوء النية إلى التخريب المتعمد لكيان البشرية .

يقول كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) : «إن دارون ليس يهوديا ، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها فى تحطيم الدين» .

ويقول الكتاب : «لقد رتبنا نجاح دارون ،ماركس ونيتشه ، بالترويج لآرائهم . وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى ، واضح لنا بكل تأكيد» .

لقد استغلت اليهودية العالمية نظرية الداروينية ونظرية التطور أبشع استغلال لتحطيم كل فضيلة باقية فى الجاهلية الأوروبية ، على يد ثلاثة من أكبر علمائها : ماركس وفرويد

---

(١) سورة النحل [٩٩] .

(٢) سورة النحل [١٠٠] .

ودركايم[1] راحوا كلهم يتحدثون عن الدين بزراية وتحقير ، ويلوثون صورته فى نفوس الجماهير :

دركايم يقول إن الدين ليس فطرة !

وماركس يقول إن الدين أفيون الشعب . ويقول إنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة ، وتلهيتها بنعيم الآخرة عن حياة الحرمان فى الأرض ! !

وفرويد يقول إن الدين ناشىء من الكبت . من عقدة أوديب . من العشق الجنسى الذى يحسه الولد نحو أمه . من رغبة الابن فى قتل أبيه ! !

وراح ثلاثتهم يحطمون الأخلاق ..

دركايم يقول إن الجريمة ظاهرة سوية ! والزواج ليس من الفطرة ! والأخلاق شىء لا يمكن الحديث عنه ككيان ثابت . وإنما كل ذلك من صنع « العقل الجمعى » الذى لا يثبت على حال ، وينتقل من النقيض إلى النقيض .

وماركس يقول إن الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى المتطور على الدوام وليست قيمة ثابتة .

وفرويد يقول إنها تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها الطبيعية العادية . وهى كبت ضار بكيان الإنسان !

ولم تقف المؤامرة عند هذا الحد .. وإنما حرصت على إخراج المرأة من بيتها إلى الطريق .

ماركس يقول إن المرأة لابد أن تعمل ..

ودركايم يقول لها إن الزواج ليس فطرة .. !

وفرويد يتلقفها فيقول لها إنها لابد أن تحقق كيانها تحقيقًا جنسيا خالصًا من القيود .

ثم لا تكتفى اليهودية العالمية بالعمل فى عالم النظريات .. إنما تعمل فى نطاق الواقع .

---

(١) انظر فصل « اليهود الثلاثة » فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » .

فإذا كانت قد استغلت فكرة التطور الداروينية على هذه الصورة البشعة التى لم تخطر لدارون على بال ، فإنها كذلك تستغل الانقلاب الصناعى فتجعله قائمًا على الفساد ..

فالرأسمالية بدعة يهودية يستغل فيها المرابون اليهود نشاطهم الربوى الشيطانى .

والرأسمالية لا تكتفى بإنتاج النافع من المواد ولا تقتصر على النافع من المشروعات .

فهناك «السينما» وهى مؤسسة يهودية قبل كل شىء ، تسعى سعيًا حثيثًا جاهدًا لإفساد الأولاد والبنات بما تعرض عليهم من فتنة الجنس .

وبيوت الأزياء وبيوت الزينة كل همها أن تجعل المرأة ـ التى أخرجها ماركس تعمل ـ فتنة للرجل ، تشغل باله بالفتنة والإغراء ، وتحل فى قلبه عقدة العقيدة ..

وينقلب العالم إلى ماخور يعج بالشهوات الدنسة يغرق فيها الرجال والنساء إلى الآذان .

وعندئذ يثب اليهود على ظهور الحمير ، ويحققون الحلم الشيطانى الأكبر الذى ترسمه كتبهم «المقدسة» المشحونة بذلك الإيحاء الخبيث ..

* * *

وفى النهاية تكون الجاهلية قد سيطرت على كل الأرض ..

فأوروبا التى نبتت فيها الجاهلية من جذور ضاربة فى التاريخ ، هى المسيطرة اليوم على البشرية .. ومفاهيمها الجاهلية هى المسيطرة على مفاهيم الناس ..

فالجاهلية اليونانية ، والجاهلية الرومانية ، وجاهلية العقيدة المحرفة فى العصور الوسطى ، وجاهلية الانفصال الكامل عن الدين فى ظل الداروينية والانقلاب الصناعى .. كلها مجتمعةً هى الجاهلية الحديثة .. جاهلية القرن العشرين .

وهى ليست مقصورة على أوروبا ، لأن أوروبا قد جاست خلال الأرض كلها بالنفوذ الاستعمارى ، فنشرت مفاهيمها الجاهلية فى كل مكان جاست فيه ، وصارت الجاهلية فى كل الأرض هى صاحبة السلطان .

والآن قد ألممنا بهذه الصفحة من التاريخ ..

فلنتحدث عن «ملامح» الجاهلية الحديثة .

مَلامح الجاهلية الحديثة

لكل جاهلية فى التاريخ ملامح خاصة تميزها ، هى ملامح البيئة التى تعيش فيها ، وملامح « الطور » الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى يحيط بها ، وإن كانت كلها مع ذلك تشترك فى خصائص أصيلة هى التى تمنحها سمة الجاهلية على مدار التاريخ .

وسنتحدث بتفصيل واف فى الفصلين القادمين عن انحرافات الجاهلية الحديثة : فى التصور والسلوك . فى عالم النظريات وعالم الواقع . ولكن يحسن بنا قبل هذا التفصيل أن نلم إلمامة سريعة بالملامح التى تكوّن صورة الجاهلية الحديثة ، كما ألممنا فى الفصل السابق بلمحة سريعة من التاريخ ، تتبعنا فيها مولد هذه الجاهلية وتطوراتها خلال القرون .

* * *

كل الجاهليات لا تؤمن بالله الإيمان الحق .

تلك هى الخصيصة الكبرى المشتركة بين كل جاهليات التاريخ . بل هى الأساس الذى تنشأ منه الجاهلية ، وتنبنى عليه كل الانحرافات الأخرى فى التصور وفى السلوك .

إن العقيدة الصحيحة هى التى تحدد للإنسان مكانه الصحيح فى الكون ، وتسدد خطاه فى الزمان والمكان ، حيث تعين له وجهته الصائبة ، وترسم له طريقه المستقيم ، فيستقيم وجدانه وسلوكه ، ومشاعره وأعماله ، ومبادئه وواقعه . ويصبح كله ـ كما ينبغى أن يكون ـ وحدة متماسكة متكاملة ، متجهة الاتجاه الصحيح .

وحين تنحرف هذه العقيدة فلا بد أن يشمل الاضطراب كيان الإنسان كله .. كما تضطرب الإبرة المغنطيسية حين يحال بينها وبين اتجاهها المرسوم . فيتفرق الكيان الموحد ، وتضطرب خطواته فى الزمان والمكان . وتتوزع مشاعره وأعماله ، ووجدانه وسلوكه ، ومبادئه وواقعه ؛ فلا يعود تلك الوحدة التى ينبغى أن يكونها ، ولا يشمل كيانه الأمن والسكون اللذان يستمتع بهما فى ظلال العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح .

وعندئذ توجد الجاهلية ..

فالجاهلية هى الانحراف عن عبادة الله الحق ، هذه العبادة التى تتمثل فى التحاكم إليه وحده فى أمر الحياة كله . ثم ما يترتب على هذا الانحراف من اضطراب وتوزع ، وتمزق وتشتيت . اضطراب فى النظم واضطراب فى الأفكار . اضطراب فى علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بالكون والحياة من حوله ، وعلاقته بأخيه الإنسان .

ولم يحدث قط فى التاريخ انحراف عن عبادة الله الحق ، دون أن يتبعها انحراف فى علاقات الإنسان وارتباطاته وتصوراته وأفكاره . فالعقيدة هى المنظم لذلك كله ، سواء تنبه الإنسان إلى ذلك أم لم يتنبه ، وأراد أم لم يرد ! فإذا صحت العقيدة استقام الكيان كله ، واستقامت خطواته ، وإذا اضطربت العقيدة سرى إلى الكيان كله ذلك الاضطراب .

ومن الوجه الآخر لم يحدث اضطراب فى الأرض مع استقامة فى عبادة الله !

قد توجد العقيدة . نعم . ولكن مجرد وجودها ليس هو الفيصل فى هذا الأمر . وإنما هو الوجود الحى المتحرك ، الشامل المتكامل . الوجود الذى يشمل الإنسان كله ، لا جزءاً منه دون جزء . يشمل مشاعره وسلوكه فى ذات الوقت . يشمل مبادئه وواقعه ، وتصوراته وأعماله .

وكل وضع خلاف ذلك ــ سواء وجدت فيه عقيدة متجهة إلى الله أم لم توجد ــ هو لون من الجاهلية ، ينطبق عليه اسم الجاهلية ، وتصيبه عواقبها الحتمية التى لا تتخلف .. لأنها سنة الله .

* * *

وقد كان العرب فى الجاهلية يعرفون الله ، ويؤمنون بوجوده . ويتوجهون إليه .. ولكنه توجه سقيم !

يقول القرآن الكريم عن العرب فى الجاهلية :

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله ! »[1] .

« ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولُنَّ الله ! »[2] .

---

(١) سورة لقمان [٢٥] .

(٢) سورة الزخرف [٨٧] .

«قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمَّن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ! »[1]

«قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تذكرون ؟
قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تتقون ؟
قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله !
قل : فأنّى تسحرون ؟ »[2] .

وإذن فقد كانوا يعرفون الله ، وكانوا يؤمنون بأنه الخالق المدبر الذى بيده ملكوت كل شيء !

ولكن جاهليتهم أنهم لم يكونوا يعرفونه على حقيقته ـ سبحانه ـ ولا يؤمنون به الإيمان الحق ، ولا يحكمونه وحده فى أمرهم كله .

«وما قدروا الله حق قدره »[3] .

كانوا يعرفونه ثم لا يتبعون هذه المعرفة نتائجها الطبيعية المنطقية التى لا بد أن تترتب عليها .

يعرفونه ثم يعبدون معه آلهة أخرى .. ذلك من حيث الاعتقاد الوجدانى .

ويعرفونه ثم لا ينفذون شريعته ولا يتحاكمون إليه وحده فى أمرهم كله .. ذلك من حيث السلوك الواقعى .

وبهذه وتلك كانوا كفارًا .. وكانوا جاهليين ..

وكانت الجاهلية التى يندد بها القرآن شاملة لهذه وتلك .

فأما فى قضية الاعتقاد فلم يشفع لهم ـ وما كان يمكن أن يشفع ـ أنهم لا يعبدون هذه الأصنام ـ أو الآلهة ـ لذاتها ، وإنما لتقربهم إلى الله : «ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ! إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار »[4] .

---

(١) سورة يونس [٣١] .
(٢) سورة المؤمنين [٨٤ ـ ٨٩] .
(٣) سورة الأنعام [٩١] .
(٤) سورة الزمر [٣] .

وأما قضية الشريعة فقد شدد القرآن فيها تشديدًا لأنه لا انفصال بينها وبين قضية الاعتقاد ، وما يمكن أن يوجد إيمان مع الانحراف عن شريعة الله ، وتحكيم غير الله فى شأن من شئون الحياة :

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشونِ ، ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له . **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** . وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ، **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** . فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون . **أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ؟** »[1] .

«ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق . وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون»[2] .

قضية الشريعة إذن كقضية العقيدة ، لا فرق بين هذه وتلك : إما الحكم بما أنزل الله وإما الجاهلية والشرك . فالمعرفة بالله الحق ، والإيمان الصحيح به ، يستتبعان إفراده – سبحانه – بالحاكمية كإفراده بالألوهية . لأنه هو الخالق والمالك ، ومن ثم فهو – وحده – الذى ينبغى أن يطاع ، وشرعه – وحده – هو الواجب الاتباع . والعقيدة

---

(١) سورة المائدة [٤٤ – ٥٠] .

(٢) سورة الأنعام [١٢١] .

والشريعة قضية واحدة ذات شقين ، تنبعان من أصل واحد وتلتقيان فى غاية واحدة والأصل والغاية هما الإيمان بالله والإسلام له .

والسمة الأولى لكل جاهلية ـ السمة التى تجعل منها جاهلية ـ هى عدم الإيمان الحق بالله أو عدم الإسلام له فى أى شأن . يستوى فى ذلك العقيدة والشريعة ، بلا انفصال ولا افتراق .

الإيمان يقتضى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ، والإسلام يقتضى إفراده ـ سبحانه ـ بالحاكمية .

والجاهلية تنشأ من عدم إفراد الله بالألوهية وعدم إفراده بالحاكمية . فتشرك مع الله آلهة أخرى ، ولا تحكم بما أنزل الله .

* * *

وإذ كانت الجاهلية لا تحكم بما أنزل الله ، فهى تتبع «الأهواء» .

وتلك هى السمة الثانية لكل جاهلية ، النابعة فى الأصل من عدم الإيمان الحق بالله وعدم الإسلام له .

«وأن احكم بينهم بما أنزل الله **ولا تتبع أهواءهم** . واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك[1] » . فالقضية مترابطة : إما الإيمان بالله ، الذى ينشأ عنه الإسلام له واتباع ما أنزله ، وإما الجاهلية واتباع «الأهواء» . وكل شرع غير شرع الله هوى .. ذلك ما قرره الله . ومصداقه هو تاريخ الحياة !

لقد اختلفت «الأهواء» من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة ، ومن أمة إلى أمة . ولكنها كانت دائمًا «هوى» فريق من الناس ، يحكمون به سائر الناس ! ومصلحة معينة لفرد أو جماعة ، يسخر من أجلها بقية الخلق على حسب «هواه» .

وشرع الله وحده هو البرىء من الأهواء . لأن الله سبحانه ليست له «مصلحة» مع هذا الفريق أو ذاك : «ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون[2] » .

وكل الناس خلقه بالتساوى .. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

---

(١) سورة المائدة [٤٩] .

(٢) سورة الذاريات [٥٧] .

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير»(١) .

فإما اتباع لشرع الله .. فهو الإسلام . وإما اتباع للأهواء .. فهى الجاهلية فى كل زمان ومكان .

* * *

والسمة الثالثة المشتركة فى كل جاهلية هى وجود طواغيت فى الأرض يهمهم أن ينصرف الناس عن عبادة الله الواحد والحكم بشريعته . ليتحولوا إلى عبادة أولئك الطواغيت والحكم بشريعتهم ـ أى بأهوائهم :

«الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»(٢) .

«الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت»(٣)

ووجود الطواغيت سمة ملازمة للبعد عن منهج الله .. فحين ينحرف الناس عن العبادة الحقة ، يتوجهون إلى عبادة كائنات أخرى ـ بمفردها ، أو بالإشراك مع الله ـ وعندئذ تصبح هذه المعبودات طواغيت !

ويستوى أن يكون الطاغوت فردًا ، أو طائفة ، أو جماعة ، أو عرفًا ، أو تقليدًا ، أو أى قوة تستعبد الناس لها فلا يملكون الخروج عن أوامرها .

والطاغوت ـ سواء كان فردًا أو طائفة أو جماعة .. الخ ـ لا يحب للناس أن يؤمنوا بالله ويعبدوه حق عبادته . فإنه لا يستطيع أن يعيش ويتمكن حيث يكون الولاء لله ! ولا يعيش ويتمكن إلا بصرف الناس عن عبادة الله ، ليتمكن هو من أن يفرض هواه !

ومن ثم يقف الطاغوت دائمًا موقف العداء من العقيدة الحقة ، لأنه يريد الولاء لشخصه ومصالحه ؛ والعقيدة الحقة تجعل الولاء لله !

---

(١) سورة الحجرات [١٣] .

(٢) سورة البقرة [٢٥٧] .

(٣) سورة النساء [٧٦] .

ومن ثم كذلك فإن الجاهلية ــ أى الانحراف عن عبادة الله ــ تتلازم دائمًا مع وجود الطاغوت .

* * *

والسمة الرابعة المشتركة ، وهى مترتبة كذلك على البعد عن منهج الله ــ وإن كانت أسبابها كامنة فى الفطرة البشرية ذاتها ــ هى الانجراف فى تيار الشهوات .

الشهوات أمر محبب للإنسان : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ..»[1] .

وقدر من هذه الأمور كلها ضرورى للحياة البشرية .. ضرورى لمهمة الخلافة التى يتولاها الإنسان فى الأرض . ومن ثم كانت «الدوافع» فى كيان الإنسان ، دوافع الطعام والشراب والمسكن والملبس. والجنس . والبروز . والتملك[2] . لتربطه بالحياة ، وتدفعه إلى الحياة .

ولكنها حين تزيد عن قدرها المعقول ، وتصبح «شهوة» مسيطرة على كيان الإنسان ، فعندئذ لا تؤدى مهمتها الفطرية التى أوجدها الله من أجلها ، وإنما تصبح مدمرة لكيان الإنسان ، مبددة لطاقاته ، صارفة له عن مهمة الخلافة ، وهابطة به عن مستوى الإنسان الكريم الذى كرّمه الله وعلاه ، إلى مستوى البهائم ومستوى الشياطين ..

والذى يحد من اندفاعها وسيطرتها على كيان الإنسان .. هو العقيدة فى الله ، والحياة فى ظل نظام يقوم على شريعة الله !

والتجربة البشرية الطويلة خلال القرون تؤكد هذه الحقيقة ! إما الاهتداء بهدى الله وإما الانجراف فى تيار الشهوات ، كل الشهوات .. وشهوة الجنس فى مقدمة الشهوات !

إن الإنسان لا يمكن أن يمتنع عن الشهوات أبدًا .. إلا لله !

لقد يخشى عقوبة القانون .. فيسعى إلى التستر على ما يعتبره القانون جريمة !

---

(١) سورة آل عمران [١٤] .

(٢) انظر فصل «الدوافع والضوابط» من كتاب «دراسات فى النفس الإنسانية» .

ولقد يخشى الناس .. فيرتكب جريمته فى خفية من الناس !

ولكنه لا يمتنع امتناعًا حقيقيا عن الجريمة إلا حين يخشى الله .. لأنه لا ستر من دون الله !

على أن المشاهد فى التاريخ كله أن الجاهليات لا تحرّم الفاحشة الخلقية على وجه التحديد ! يستوى فى ذلك الجاهلية العربية ، والجاهلية الفارسية ، والجاهلية الهندية .. واليونانية والرومانية والفرعونية .. وجاهلية القرن العشرين !

وتختلف الأسباب ..

فقد يكون السبب هو انشغال الطاغوت الذى يحكم ـ وكل حكم بغير ما أنزل الله فهو الطاغوت ـ بحماية مصالحه القريبة عن كل أمر عداه . ومن ثم لا يلتفت إلى انحراف الناس فى شئون الجنس ، ولا يعنيه أن يقوّم هذا الانحراف .

وقد يكون السبب هو قيام الطاغوت بنشر الفاحشة عمدًا ، ليستمتع هو بالمتعة المحرمة ، أو لتلهية الناس عن الظلم الواقع عليهم ـ وكل حكم بغير ما أنزل الله ظلم ـ بالانغماس فى متع الجنس الفاحشة ، فينسون ، وينصرفون عن محاكمة الطاغوت !

وعلى أية حال فهناك تلازم دائم بين كل جاهلية وبين الانحراف فى تيار الشهوات .

* * *

تلك سمات تبرز فى كل جاهلية على وجه الأرض خلال التاريخ .. وهى جميعًا ناشئة من السمة الرئيسية الكبرى فى كل جاهلية ، وهى الانحراف عن عبادة الله .

سمات مشتركة لا يمكن أن تخلو منها الجاهلية ..

كانت موجودة فى الجاهلية العربية ، وكانت موجودة فى الجاهليات الفارسية واليونانية والرومانية والفرعونية .. وهى كذلك قائمة فى الجاهلية الحديثة ، بلا اختلاف فى غير الصورة الظاهرة ، وبلا اختلاف حتى فى الصورة فى بعض الأحيان !

فى الجاهلية العربية كان الانحراف عن عبادة الله وحده ـ عقيدةً وشريعةً ـ حيث كانت الأصنام والأوثان تُعبد إلى جوار الله ، وحيث كانت قوانين الجاهلية وعرفها تحكم بدلاً من شريعة الله . وكانت «الأهواء» تسيطر على تصرفات النّاس .. القوىّ يغلب

الضعيف بغير حق ، والانتصاف لا بالحق ولكن بقوة الذراع ! وكانت الطواغيت .. طواغيت قريش وغيرها من كهنة وسدنة ووضاع للأعراف المنحرفة والتقاليد .. يحرّمون ما يشاءون تحريمه ويحلون ما يشاءون تحليله ، وليس ذلك فقط بل «يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا»[1] إذا شاءت لهم الأهواء ، ويمارسون سلطانًا باطلاً يستذلون به الناس ويتحكمون فى رقابهم .. وكانت الشهوات .. الخمر والنساء والميسر ، والقتل والسلب والنهب ، والغارات والثأر والمفاخرة بالعدوان .. !

واليوم على بعد أربعة عشر قرنًا من ذلك التاريخ تقوم الجاهلية الحديثة .. على نفس الأركان ! !

فأما الانحراف عن عبادة الله ــ عقيدةً وشريعةً ــ فأمر أشهر من أن يشار إليه ! أمر لا يقف عند حد الانحراف عن العقيدة فى كثير من حقائقها ، والانحراف عن الشريعة فى كل مظاهرها .. وإنما يتعداه إلى الإلحاد الكامل ، يتلهى به أفراد ، أو تفرضه الطواغيت على الناس ، وتباركه الشياطين فى جميع الأحوال .

وأما اتباع الأهواء .. فليس فى التاريخ قرن ركب رأسه واتبع هواه كما صنع هذا القرن .. فى كل شىء .. فى الشرق وفى الغرب سواء .. من تحطيم للعقائد . ولهو بالمقدسات .. وعبث بكل الضوابط التى تضبط تصرفات الإنسان .. و «تقاليع» و «مودات» وأفانين من العبث تفوق الحسبان .

وأما الطواغيت .. فما أكثرهم ! طاغوت الرأسمالية تارة ، وطاغوت البروليتاريا تارة ، وطاغوت الفرد المقدس تارة ، وطاغوت العرف الفاسد والقيم المنحلة تارة .. وهى فى كل مرة طواغيت !

وأما الشهوات ... !

* * *

تلك سمات لا تنجو منها جاهلية فى الأرض .. فى كل التاريخ .

فإذا عرفنا هذا القدر المشترك فى كل جاهلية [وسنعود إلى تفصيله فى الفصلين القادمين] فقد بقى أن نلم فى هذه اللمحة السريعة بالخصائص المميزة للجاهلية الحديثة ــ

---

(١) سورة التوبة [٣٧] .

لتكتمل فى أذهاننا صورتها العامة ـ وهى خصائص تنبع فى الأصل من السمة الرئيسية الكبرى ـ الانحراف عن عبادة الله ـ ولكن الجاهلية الحديثة تنفرد بها من حيث صورتها وتفصيلاتها ، لأنها نتيجة البيئة والظروف ، و «التطور» العلمى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى الذى حدث على مبعدة من منهج الله ، وعلى عداء مع منهج الله[1] .

لقد كان لكل جاهلية فى التاريخ سماتها الخاصة المميزة إلى جانب سماتها المشتركة ..

كانت الجاهلية العربية مثلاً تتميز بوأد البنات ، وبأشياء أخرى سخيفة ومضحكة ، كخروج بعض الناس لحج بيت الله الحرام عرايا ـ فى الحج !! ـ رجالاً ونساء !! وتحريم بعض الحرث والأنعام بلا سبب على هذا النحو المضحك :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ، فقالوا هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ! وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكر اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ سيجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء .. »[2] .

وكانت الجاهلية اليونانية تتميز بعبادة العقل .. وعبادة الجسم .. والجاهلية الرومانية بحلبات المبارزة الوحشية .. والجاهلية الهندية بنظام المنبوذين ، وبتخصيص بغايا «لخدمة» المعابد !! يخدمنها ببذل أعراضهن المدنسة ! ويكون ذلك جزءًا من «الدين» !! والجاهلية المصرية القديمة بعبادة الفرعون واستذلال كيان الشعب كله فى خدمة ذلك الفرعون المقدس ! وجاهلية القرون الوسطى بطغيان الكنيسة والفساد الخلقى فى الأديرة ، وصكوك الغفران ..

وكذلك تتميز الجاهلية الحديثة بسماتها الخاصة التى تفردها بين الجاهليات بعد أن تشترك معها فى بقية السمات ..

---

(١) انظر الفصل السابق «صفحة من التاريخ» .

(٢) سورة الأنعام [١٣٦ ـ ١٣٩ .

تلك الخصائص يمكن حصرها ـ على وجه التقريب ـ فى هذه الأمور :

- التقدم العلمى الفائق الذى يستخدم [من بين ما يستخدم] فى تضليل البشرية عن هدى الله ، وفى إيقاع الشر والأذى بمخلوقات الله .
- تبجح «الإنسان» فى مواجهة الخالق ، مفتونًا بنتائج العلم والتقدم المادى ، حتى ليحسب الإنسان أنه أصبح فى غنى عن الله . أو أنه أصبح هو الله .
- النظريات «العلمية» المتعددة التى توجه الناس إلى الانحراف ، فى الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس .. وكل مجال من الحياة .
- الفتنة «بالتطور» .
- «تحرير» المرأة .

وليس هنا مجال التفصيل فى ملامح الجاهلية الحديثة ، سواء منها سماتها الخاصة أو سماتها المشتركة مع بقية الجاهليات ، فمجال ذلك فى الفصلين القادمين .. ولكنا نقول كلمة فى ختام هذا الفصل عن «الفتنة» القائمة فى هذه الجاهلية ..

إن الفتنة الكبرى فى هذه الجاهلية أنها تملك كثيرًا من العلم ، وكثيرًا من القوة المادية ، وأنها حققت تيسيرات حضارية مادية كثيرة للبشر على ظهر الأرض ، ينطوى بعضها على خير ظاهرى ومنافع للناس .

ومن أجل ذلك قلنا فى مقدمة الكتاب إن الجاهلية الحديثة أوعر وأخبث وأعنف من كل جاهلية سابقة فى التاريخ .

لقد كان «الباطل» فى الجاهليات القديمة واضح البطلان .

وعلى الرغم من الجهالة التى كانت ترين على عقول الناس وضمائرهم ، فلا يرون ما فى باطلهم من بطلان ، ويتصورون أن الحق الذى يُدعَوْن إليه هو الباطل ، أو الخسران .

على الرغم من ذلك فقد كانت «كمية» الجهل والشر والباطل أقل .. وكان الهدى ـ على ثقل مهمته ـ ينتصر فى معركة حاسمة فيتبين الحق للناس ، ولا يعودون بعد ذلك يترددون .

ولكن الباطل اليوم يستند إلى «العلم» ويتخذ العلم وسيلته للتضليل !

ومن أجل ذلك يلتبس الحق بالباطل فى أذهان الناس ولا يقدرون على التمييز .

* * *

والقوة المادية كذلك من أسباب الفتنة .

وعلى الرغم من أن كل جاهلية فى التاريخ كانت تستند إلى لون من ألوان القوة المادية تسند به طاغوتها وتفرضه على ضمائر الناس ، بحيث يأخذون ما يقوله الطاغوت قضايا مسلمة لا تناقش - عن رهبة ورغبة ! - ويتقبلون سلطانه بلا معارضة أو تفكير فى المعارضة .. على الرغم من ذلك فقد كانت تلك القوى المادية فى الجاهليات القديمة أقل رهبة وفتكًا وتنظيمًا مما هى اليوم . فهى اليوم ليست أموالاً جبارة فحسب ، وليست أسلحة فتاكة فحسب .. بل إلى جانبها من وسائل الإعلام على نطاق واسع ما لم تعرفه البشرية فى تاريخها كله ، تظل تلح على أذهان الناس وضمائرهم ، فى الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون ، حتى يخيل لهم أن الباطل هو الحق ، وأن الحق خيال طائر ليس له فى الواقع وجود !

* * *

وكذلك ذلك القدر من الخير الظاهرى والنفع الذى تحققه هذه الجاهلية للناس ..

لقد كان دائمًا فى كل جاهلية قدر من الخير الظاهرى .. ولا يمكن أن توجد جاهلية فى أية لحظة على الأرض خلو من الخير كله .. فليس ذلك من طبائع الأشياء ولا طبائع النفوس .

إن الكيان البشرى - مهما فسد - لا يمكن أن يتمحض للشر فى مجموعه !

قد يفعل ذلك أفراد .. يغلب عليهم الشر حتى لا يُرى فيهم وجه الخير .

ولكن مجموع البشرية لا يمكن أن يفعل ذلك . سيظل فيهم قدر من الخير فى جميع الأحوال . ومن هذا القدر المتبقى فى النفس البشرية - فى أسوأ حالاتها - يتجمع فى كل جاهلية قدر من الخير الظاهرى - ظاهرى لأنه لا يستند إلى «الحق» ولا ينبع من المنهج الصحيح ، ومن ثم يذهب بددًا فى واقع الحياة - ولكنه يزيغ أبصار الناس فيحسبون أنهم ليسوا فى جاهلية .. «ويحسبون أنهم مهتدون»[1] .

---

(١) سورة الأعراف [٣٠] .

ولكن هذه الجاهلية الحديثة تحقق للناس من النفع - بإمكانياتها العلمية والمادية - ما لم يتحقق فى نوعه وكميته فى كل عصور التاريخ ! ومن هنا تزيغ أبصار الناس أكثر مما زاغت فى أى وقت مضى .. ويحسبون أنهم مهتدون !

* * *

هذا الطغيان العنيف للجاهلية الحديثة - المتمثل فى فتنة الناس بها إلى هذا الحد - ناشىء من عنف الانحراف عن منهج الله ! فعلى قدر انحراف الناس تكون قوة الطاغوت .. وقد انحرف الناس فى هذا العصر عن المنهج الربانى أعنف انحراف شهدته البشرية فى تاريخها كله .. ومن أجل ذلك كانت قوة الطاغوت أعلى ما وصلت إليه فى كل مراحل التاريخ ..

والعلم والقوة والتنظيم .. وهى سمات هذا العصر وعبقرياته .. أدوات تخدم الطاغوت اليوم ، لأنها بطبيعتها طاقات محايدة تخدم السيد الذى يسيطر عليها ..

وفى وسع البشرية غدًا حين تهتدى إلى الله الحق ، أن تستخدم هذه الأدوات كلها فى سبيل الخير .. الخير الحقيقى الشامل لمجموع البشرية ..

وحسب الناس - المفتونين بهذه الجاهلية الطاغية - أن يروا كم أفسدت هذه الجاهلية من أحوالهم ومشاعرهم ، وكم ضيعت من فرص الخير الشامل التى كان يمكن أن تصيبهم ، ليعرفوا أن كل النفع الذى تقدمه لهم الجاهلية اليوم - فى عمل العلم على تيسير الحياة لهم على الأرض ، وفى الخدمات الطبية والاجتماعية ، و «العدالة» الجزئية التى ينالونها فى هذا النظام أو ذاك - إنما هو فتات ضئيل ينثره الطاغوت على الناس ليبرر بقاءه فى الأرض ، ولتستنيم له عواطف «الجماهير» بينما هو يستمتع وحده بسلطان مروع يستذل به رقاب الخلق ، لم يتجمع قط فى أى طاغوت فى التاريخ ..

عند ذلك سيعرفون أنهم يعيشون فى الجاهلية حقا .. وأن هذه الجاهلية ينبغى أن تزول !

وفى الفصلين القادمين نتحدث عن مدى الفساد الذى أحدثته الجاهلية فى الأرض ..

فساد فى التصور ..

وفساد فى السلوك ..

فســـاد فى التصـــور

لم تدع الجاهلية الحديثة شيئًا فى عالم التصور بلا فساد !

فلقد أفسدت كل تصورات الإنسان وارتباطاته .. بالله والكون والحياة .. والإنسان !

هناك انحراف رئيسى فى تصور الحقيقة الإلهية ، وعلاقة الإنسان بالله .

وانحراف فى تصور الكون ، وعلاقته بالله ، وعلاقة الإنسان به وعلاقته بالإنسان

وانحراف فى تصور الحياة وارتباطاتها وأهدافها .

وانحراف فى تصور النفس البشرية ، وارتباطات الإنسان بالإنسان ، فردًا وجماعة وجنسين .

وباختصار هو انحراف يشمل كل حياة الإنسان .

* * *

والجاهلية الحديثة ـ كما قلنا من قبل ـ هى خلاصة الجاهليات الأوروبية القديمة كلها ، وعليها مزيد ! ففيها ميراث من الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية وجاهلية القرون الوسطى .. مضافًا إليه مزيد جاءت به القرون الحديثة على يد المفكرين «والعلماء» من كبار اليهود ومن تبعهم من «الأميين» !

* * *

لقد تخبطت أوروبا فى تصورها للحقيقة الإلهية تخبطات شتى ، سواء فى الفلسفة أو العلم أو واقع الحياة ..

ولن نتعرض طويلاً لانحرافات العقيدة فى تصور الذات الإلهية وتصور الوحدانية المطلقة ، إذ يكفينا فى ذلك ـ كما بينا من قبل ـ شهادة دريبر الأمريكى فى كتاب

«النزاع بين العلم والدين» ، التي قال فيها إن قسطنطين ـ الذى فرض المسيحية فرضًا على الإمبراطورية الرومانية ـ قد مزج كثيرًا من المفاهيم الوثنية بالعقيدة الجديدة ، تأليفًا لقلوب الوثنيين وأملاً فى أن يدخلوا فى الدين الجديد .. !

ولكنا نعرض لوهم ضخم عاشت فيه أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى وأوروبا الملحدة فى العصور الحديثة .. سواء .

ذلك ظنهم بأن الدين علاقة بين العبد والرب .. لا شأن له بواقع الحياة !

ظنهم بأن العقيدة تكون ما تكون .. فى داخل القلب ، فى أعماق الوجدان .. ثم يكون واقع الحياة مستقلا عن العقيدة ، يسير فى طريقه بلا تأثر بذلك الشعور المكنون !

وَهْمٌ من أوهام الجاهلية .. !

إن العقيدة هى الحياة ! سواء صحت العقيدة أم دخلها الفساد .. فهى تلقى ظلها على الحياة البشرية كلها . لا يفلت منها شعور واحد ولا عمل واحد ، يستقل بعالمه الخاص بعيدًا عن العقيدة فى الله !

ولقد كان هذا الفصل بين الدين والواقع ، بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والشريعة ، من أكبر الحماقات فى جاهلية العصور الوسطى الأوروبية . فى عصر الظلمات . ولكن هل انفصل بالفعل الدين عن واقع الحياة ؟

كلا ! إن الذى حدث بالفعل ، ولا بد أن يحدث . أن العقيدة الفاسدة ألقت ظلها على الحياة الأوروبية ، ففسدت كلها ، فى تدرج بطىء ، حتى صارت كلها تعج بالفساد !

إن الحياة لا يمكن أن تنفصل عن العقيدة .

فما العقيدة ؟

إنها ليست مجرد وجدان فى داخل الضمير .

إنها قاعدة يقوم عليها «تصور» كامل للحياة وارتباطاتها ، ومركز الإنسان من الكون ، ومركزه من الوجود .

ولقد يبدو الدين فى نفوس السذج البسطاء من الناس مجرد وجدان فى ضمائرهم . ولكن هذه ليست حقيقة . فحتى هؤلاء السذج البسطاء من الناس ، الذين لا يفلسفون

الأمور بعقولهم ، ولا يعيشون تفاصيل الحياة بوعيهم ، يقفون ــ بوجدانهم الدينى الخالص ــ موقفًا معينًا من الحياة . فهم يقبلون منها أشياء ويرفضون منها أشياء . وهم يفسرون ارتباطات الأشياء بعضها ببعض على صورة معينة ، مستمدة من هذا الوجدان .

وإذن . فالدين ــ حتى فى هذه النفوس الساذجة ــ موقف معين من الحياة ، وتصور معين للحياة .

والذين يرون الدين ــ فى فترات الجاهلية ــ ضعيف الأثر فى حياة الناس وواقعهم ، يُغْرون بالظن أن الدين هكذا .. ضعيف الصلة بالواقع ، وأن الواقع مستقل عن العقيدة ، محكوم بأسباب أخرى وروابط أخرى لا صلة لها بالدين !

وذلك الظن ذاته أثر من آثار الجاهلية . وإفسادها للتصور البشرى !

إنه حين يضعف أثر الدين فى حياة الناس الواقعية فمعنى ذلك أن العقيدة قد فسدت فى النفوس ! ومعناه كذلك بالتالى أن الحياة كلها لا تسير سيرها الطبيعى . وأنها واقعة لا محالة فى لون من ألوان الانحراف .. تبدو آثاره الحتمية بعد حين .

حين يضعف أثر الدين فى حياة الناس الواقعية فمعنى ذلك أن الناس لا يعبدون الله ! لا يعبدونه حق عبادته . لا يفردونه بالعبادة . ويشركون معه آلهة أخرى ، هى التى يحكّمونها فى حياتهم الواقعية بدلاً من أن يحكموا الله ومنهج الله .

وذلك أول الفساد فى العقيدة . أول «التعدد» الذى تتسم به الجاهليات كلها على مدار التاريخ .

وهذه السمة الجاهلية : تعدد الآلهة ، ومن ثم ضعف أثر العقيدة فى عالم الواقع ، لتوزع إشعاعاتها وانكسارها ، بدلاً من تجمعها ووحدة اتجاهها . هذه السمة تتبعها حتمًا نتائجها ، وإن كانت بطيئة فى ظهورها ، فلا يحسها الناس فى بلادة وعيهم إلا بعد حين !

أول نتائجها توزُّع خطى الكائن البشرى على الأرض ! خطوة مشدودة إلى الله ، وخطوة مشدودة إلى «الواقع» ! الواقع المنحرف الذى شرد عن منهج الله . وتضارب القيم فى نفس الإنسان . تلك قيمة عالية بالنظر إلى المنهج الربانى وهابطة بالنظر إلى الواقع المنحرف عن منهج الله ، وتلك قيمة محرمة فى المنهج الربانى ، وهى «مطلوبة» أو «ضرورية» فى واقع الحياة !

ولهذا التوزع ثقلته على مشاعر الناس وضمائرهم .. وإن لم يحسوا بها فى بلادة وعيهم إلا بعد أجيال !

وينطلق «الواقع» بعيدًا عن إشعاع العقيدة .. أى تنطلق «الآلهة» الجديدة بعيدًا عن منهج «الله» . فتفسد الأرض .

ينطلق «الواقع» خاضعًا للأهواء . خاضعًا للطاغوت . خاضعًا للشهوات .. ومن ثم يزداد فسادًا على فساد . وينتهى به الأمر إلى البوار . حين يصبح «الله» آخر معبود يُعبد . وتكون «الآلهة» هى المسيطرة على الحياة ..

وتلك قصة أوروبا !

* * *

قصة طويلة تستغرق بضعة قرون ..

بدأت أول ما بدأت بفصل «الدين» عن «الواقع» ..

ثم جاءت «النهضة» فباعدت بين الدين والحياة ..

إن أوروبا فى جاهلية القرون الوسطى لم تفهم على وجهه الصحيح قول المسيح عليه السلام : «أعطوا ما لقيصر لقيصر . وما لله لله»[1] . ولم تسمع لقوله عليه السلام : «ومصدقًا لما بين يدىّ من التوراة . ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم»[2] .

وربما كانت هناك ظروف تاريخية ساعدت على هذا الانحراف . فالمسيحية ـ كما يقول «ليوبولدفايس» . المستشرق الذى أعلن إسلامه وصار اسمه «محمد أسد» فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» ـ لم تكن تملك أن تبسط سلطانها على الإمبراطورية الكبيرة التى تحكم بمقتضى القانون الرومانى . والتى كان «الدين» فيها مظهرًا خاويًا من الحقيقة . فلما فرض قسطنطين المسيحية على الإمبراطورية فى القرن الثالث الميلادى . لم يفرضها إلا عقيدة وجدانية لا تحكم الواقع بتشريعها الربانى . فقد كان ـ حتى فى عالم العقيدة البحتة ـ يمزج الوثنية الرومانية بدين الله .. فما بالك بالتشريع ؟!

---

(١) إنجيل متى إصحاح ٢٢ آية ٢١ .

(٢) سورة آل عمران [٥٠] .

ومع ذلك فبحكم تحمس الناس للعقيدة الجديدة كان لها سيطرة ـ جزئية ـ على الواقع الذى يعيشونه .

فلما جاءت « النهضة » تغير الميزان .. لم يعد مركز الثقل هو العقيدة ، وإنما أصبحت الحركة الجديدة ـ التى تستمد من الهيلينية القديمة مفاهيمها الفكرية وتصوراتها ـ هى الوجه الجديد الذى أخذ ـ فى تدرج بطىء ـ يسيطر على الحياة .

أخذ مركز الثقل ينتقل من « الله » إلى « الآلهة » .

وكان لذلك سببان كبيران ، أحدهما واضح فى الشعور والفكر ، والآخر خفىّ فى الأعماق .

فأما السبب الظاهر فقد تمثل فى حرب الكنيسة للعلماء والعلم ، وكل مفهوم للحركة والتطور ، خوفاً على سلطانها التقليدى أن يزحزحه العلم عن مكانه ، ويستبدل به سلطاناً آخر لا تكون الكنيسة طرفا فيه . فلما ولدت الحركة « العلمية » كانت بطبيعتها معادية للكنيسة أو على الأقل مباعدة لسلطانها ، كما كانت كذلك « النهضة » الفكرية والحضارية ، لأنها حركة وتطور ، مخالفة لإرادة الكنيسة فى تثبيت الأوضاع على ما هى عليه إلى آخر الزمان .

وكان طبيعيا أن تسيطر النهضة الفكرية والحضارية على الحياة الواقعية ، لأنها بطبيعتها متصلة بالواقع الأرضى والحياة اليومية . وما دامت الكنيسة لا تبارك هذه النهضة ولا تواكبها ، فقد كان الأمر المنطقى مع الظروف هو استمرار التباعد بين الحياة الواقعية و « هذا » الدين الذى تمثله هذه الكنيسة .

ولقد كانت تلك هى الفرصة المناسبة لتصحيح الأوضاع كلها ، والخروج من الجاهلية الشاملة إلى منهج الله الحق . ولكن أوروبا ـ كما بينا من قبل ـ قد رفضت هذه الفرصة المتاحة ، بدافع من الروح الصليبية الغالبة عليها ، فأخذت من المسلمين علومهم ، ومذهبهم التجريبى ، ومظاهر حضارتهم ، وأبت أن تأخذ المنهج الربانى الذى يقوم عليه البناء كله . فكان بناؤها منذ اللحظة الأولى « للنهضة » منحرفاً عن منهج الله .

ذلك هو السبب الظاهر .

أما السبب الخفى فهو ذلك الميراث النكد من الجاهلية اليونانية القديمة ، الذى بعثته الهيلينية العائدة فى أعماق الضمير الأوروبى .

بروميثيوس ، سارق النار ..

إنه هو «الإنسان» الأوروبى الحديث . !

لقد فعلت هذه الأسطورة فعلها فى مشاعر الأوروبيين وضمائرهم ، فجعلتهم ـ هى وأمثالها ـ وهم يكتسبون المعرفة ، يحسون بالعداوة مع الله !

لقد وقر فى أخلادهم من هذه الأسطورة وأمثالها أن الله ـ أو الآلهة ! ـ لا يحبون للإنسان الخير ، وبصفة خاصة لا يحبون له «المعرفة» . وإنما تؤخذ المعرفة اغتصابًا من الله ـ أو الآلهة ـ ويتحقق الخير على كره وعداء .

ووقر فى أخلادهم ـ كما قال جوليان هكسلى صراحة فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث» ـ أن الجهل والعجز فقط هما اللذان يخضعان الإنسان لله ! فإذا زادت معرفته وقوته فلا موجب إذن لفكرة الله ، وما يرتبط بها من عبادات .. وليكن الإنسان هو الله !

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد دفعة واحدة بطبيعة الحال . فطبائع النفوس بطيئة التحول ، وخاصة فى شئون العقيدة . ومن ثم تحتاج إلى زمن طويل يمتد إلى أجيال .

فى المرحلة الوسطى قامت عبادة «الطبيعة» بدلاً من عبادة الله .

وكانت الطبيعة مهربًا وجدانيا من إله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه ، وتفرض عليهم الإتاوات والعشور ، والخدمة المجانية فى أرض الكنيسة والخدمة العسكرية فى جيوشها ، وتستذل الرقاب «لرجال الدين» . كانت إلهًا لا كنيسة له ولا فرائض .. ولا التزامات كذلك . إلهًا يستجيب لرغبة الفطرة فى التوجه إلى «الخالق» بالعبادة ، وفى الوقت نفسه يستجيب لرغبة أوروبا فى الفرار من سلطان «الدين» كما مارسته الكنيسة الأوروبية بضعة قرون .

وفى الوقت الذى كانت الطبيعة فيه تُعبد على هذا النحو ، كان «الله» لا يزال موجودًا فى ضمائر الأوروبيين ، يتوجهون له بالوجدان ، ويعبدونه داخل الكنيسة ، ويصوغون من وحى منهجه بقية من أخلاقهم وتقاليدهم .. بحكم العادة أكثر من حكم الإيمان .

وهكذا تعددت الآلهة المعبودة ، وتعقدت بينها العلاقات !

الله ، المحبوب المرهوب ، مرتبط بلحظة الصلاة فى الكنيسة ، و «بعض» لحظات الحياة العابرة .. بلا ميزان .

والطبيعة ، المحبوبة المرهوبة ، مرتبطة بالمشاعر الفنية من ناحية ، فقد راحت الحركة الرومانتيكية توليها عناية زائدة ، وتصوغ حولها أشعارها ورسومها ووجداناتها ، وبالتقدم العلمى من ناحية أخرى ، فقد أخذ العلماء يكتشفون «القوانين الطبيعية» التى تسيّر الكون ، وينسبونها إلى هذه «الطبيعة» كقضية مسلمة لا يناقشها العقل ، ولا منطق العلم ذاته الذى يكتشف هذه القوانين !

والدولة وقوانينها هى الإله الثالث الذى تعبده الجماهير راضية أو كارهة .. وتخضع لسلطانه خضوعها لله .

وهكذا تفرق الدين الواحد ثلاث شعب متنافرة ، لا شعبتين فحسب. كما كان فى جاهلية القرون الوسطى ، حين كان عقيدة وشريعة منفصلتين ، يحكم كلا منهما إله .

ثم حدث بالتدريج تحول آخر ..

صار «الله» نسيًا منسيا فى قلوب الأوروبيين .

قل سلطانه على المشاعر وسلطانه على السلوك .

وبرز بدلاً منه «الإنسان» !

لقد انهار الإقطاع وجاء على أعقابه ــ بعد مولد الآلة ــ الانقلاب الصناعى ، وجاء معه انقلاب فى المشاعر والأفكار .

جاء الإنقلاب الصناعى فى هذه الجاهلية التى لا تعبد الله ــ إلا من «الظاهر» ــ فاتسم بسمات الجاهلية الحاكمة .. ولكنه دفعها دفعة جديدة فى الطريق .

فلئن كانت عواطف الريفيين ووجداناتهم ترتبط بالله وتعبده ــ مع إشراك الآلهة الأخرى ــ لأنهم يتطلعون إليه فى إنبات الحب وإنضاج الثمر ومباركة الأرض وحفظها من الصقيع أو الآفات .. فقد كانت عواطف سكان المدينة ووجداناتها ــ التى تسيطر عليها الجاهلية ــ لا ترتبط بالله ذلك الارتباط !

إن «الإنسان» هو الذى يقوم بعملية الإنتاج فى المدينة ، وليس «الله» ! كذلك ظنت الجاهلية فى الانقلاب الصناعى ، أو كذلك أريد لها أن تكون .

إن الإنسان «بعلمه» هو الذى عرف خواص المادة . وبعلمه اخترع الآلة التى تقوم بالإنتاج ..

والإنسان هو الذى يدير الآلة ــ ويقفها إذا أراد ــ وهو الذى يضع فيها المادة الخامة لتخرج من الناحية الأخرى مادة مصنعة ..

وإذن فالأولى عبادة الإنسان الصانع ، بدلاً من عبادة الله !

وفى تلك الأثناء كانت «الطبيعة» قد فقدت سحرها وألوهيتها فى ضمائر الناس !

فمن ناحية لم يعد الفن معنيا بالطبيعة كما كان فى الفترة الرومانتيكية السابقة ، وإنما صار ــ فى الفترة «الواقعية» ــ معنيا بالإله الجديد .. بالإنسان !

ومن ناحية أخرى كشف العلم الغطاء عن كثير من «أسرار» الطبيعة ، وزاد فى الوقت ذاته من سيطرة الإنسان عليها ، فلم يعد لها سلطان !

وبذلك انتقلت الألوهية من الله ، والطبيعة ، وتركزت فى الإنسان ..

وفى تلك الفترة قال الإنسان : إنه من العار عليه أن يعبد الله ! من العار أن يعبد قوة غيبية لا تدركها الحواس ! من العار أن يأخذ من هذه القوة الغيبية التى لم يرها ــ ولن يراها ــ أخلاقه وأفكاره ومشاعره وتقاليده .. من العار أن تشرع له قوة أسطورية لا وجود لها فى الواقع ، فيطيع تشريعاتها طاعة عمياء .. لا يناقش ، ولا ينقد ، ولا يبدى «رأيه» فى هذه الشريعة المنزلة .. منزلة من عالم الأساطير !

لقد شب الإنسان عن الطوق ! لم يعد يليق به أن يصنع ما كان يصنعه فى أيام الجهالة ، أيام الضعف ، يوم لم يكن يعرف حقيقة الكون من حوله ، ولا يستطيع أن يسيطر على البيئة والطبيعة . لم يعد يليق به أن يعبد الله ، أو يسمع كلام الله ، أو يصيخ لأوامر الله ..

ينبغى أن يضع كل شىء موضع النقد والتمحيص .. والمقياس هو «العقل» الإنسانى . فما وافق عليه هذا العقل فهو الصواب الذى ينبغى أن ينفذ ، وما خالفه فباطل وأساطير ..

وينبغى أن يكون الإنسان هو المشرع .. هو الذى يشرع لحياته ، فهو أدرى بنفسه وحاجاته وظروفه المتطورة من ذلك «الإله» الذى كان فى القرون الوسطى ، ولم يكن

يرى من الأمور إلا ما كان قائمًا وقتذاك .

ينبغى أن يصنع الإنسان حياته بنفسه[1] لا شريك له فى هذا الوجود !

* * *

ثم مضى الانحراف خطوة أخرى ذهبت حتى بعبادة «الإنسان» ! !

ولكن قبل أن ندخل هذه المرحلة الأخيرة ، القائمة اليوم فى ذروة الجاهلية الحالية ، ينبغى أن نلتفت إلى آثار الجاهليات المتعددة فى هذه التصورات المنحرفة لحقيقة الألوهية ..

فمن قبل لمسنا أثر الجاهلية اليونانية فى إحداث البغضاء والنفور بين الإنسان والله ..

وهنا نلمس أثر الجاهلية الرومانية فى الإيمان بما تدركه الحواس وحده ، وإسقاط ما لا تدركه الحواس من الحساب . فما دام الله لا تدركه الحواس ، فلا ضرورة للإيمان به .. والأفضل عدم الإيمان !

ومرة أخرى تعود الجاهلية اليونانية فتبرز فى الجاهلية الحديثة وهى تضع «العقل» الإنسانى فى مركز القداسة ، حتى ليصبح هو الإله الذى يتحكم فى وحى الله ، بل فى وجود الله ذاته إذا شاء !

ثم نتتبع الجاهلية اليونانية مرة أخرى فى مشاعر «الصراع» بين الإنسان والله ..

فحين كان الله هو المعبود فى أوائل عهد النهضة ، كان الصراع قائمًا مباشرة بين الإنسان والله ، يخضع الإنسان لله عن جهل وعن ضعف ، فإذا تعلم وتقوى ارتفع فى نظر نفسه درجة ، وهبط الإله فى حسه بنفس القدر ! وكلما تعلم زاد ارتفاعًا وزاد هبوط الإله حتى يجىء اليوم الذى «يخلق» فيه الإنسان الحياة ، فيصبح هو الله !

وحين كانت الطبيعة معبودًا مع الله ، كان الصراع قائمًا بين الإنسان والطبيعة ! فالإنسان يحاول «قهر» الطبيعة ! والإنسان «ينتزع» أسرار الطبيعة .. كما كان يصنع بروميثيوس القديم !

---

(١) "Man Makes Himself" ، عنوان كتاب لكاتب أمريكى معاصر يسمى جوردون تشايلد .

فلما صار الإنسان هو المعبود - ظل الصراع النكد قائمًا بين الإنسان والإنسان ! بين الإنسان العابد والإنسان المعبود ! صراع يتمثل فى صراع الفرد مع الجماعة . وصراع الفرد مع الدولة . وصراع الفرد مع «القيم» السائدة فى مجتمعه . وصراع الفرد مع طاقاته الفردية ذاتها .. فى داخل إطار الإنسان ! !

* * *

هذه الصراعات الأخيرة بين الإنسان والإنسان .. هى التى ذهبت بعبادة «الإنسان» ! !

لقد اكتشف هذا الإنسان ـ رغم استمراره فى التبجح إزاء خالقه ، وإصراره على عدم إطاعته ـ أنه ليس الإله الحقيق فى هذه الأرض !

إن هناك آلهة أخرى كشف عنها «البحث العلمى» فى تاريخ الإنسان ! البحث الذى نجم عن صراعات الإنسان مع الإنسان !

هناك «الحتميات» ..

الحتمية الاقتصادية . والحتمية الاجتماعية .. والحتمية التاريخية .. تتحكم كلها فى مصير الإنسان .

إنها «القدر» الحتمى الذى لا يرد .. القدر الذى يسيطر على حياة الإنسان ، وهو مستقل عن إرادة الإنسان .

يقول ماركس : «فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس ، تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، **وهى مستقلة عن إرادتهم** . فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم . بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم» .

ويقول إنجلز : «تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى . فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» .

وهكذا تقوم هذه الآلهة - الحتمية - بصياغة حياة الناس وتسيير خطواتهم على الأرض ، دونما اعتبار لمشاعر الناس وأفكارهم . وسعيهم وراء الحق والعدل الأزليين أو انصرافهم .. إنها آلهة لا تستجيب «لمشاعر» الناس . ولا تتعامل مع «نفوسهم» كما يستجيب الله للمشاعر ويتعامل مع النفوس . ولا حتى كآلهة الجاهليات الأولى - رغم انحرافها ، وصراعها الوحشى مع الإنسان - وإنما تسير فى حتميتها المرسومة فى صرامة آلية مذلة لكرامة الإنسان !

وهكذا ظل «الإنسان» ينحدر فى عبادته ويتدهور ! من عبادة الله مع إشراك آلهة أخرى - إلى عبادة الطبيعة - إلى عبادة ذاته . وما تلا ذلك من صراعات مدمرة - إلى عبادة تلك الآلهة الجاسية الصارمة الصلبة المستذلة لكيانه ، التى لا يجد فى رحابها سوى قسوة الحتمية وذلة الهوان !

بئس الجاهلية .. جاهلية القرن العشرين ! !

* * *

لقد كان كله انحدارًا بلا منطق . ولا بصيرة . ولا مبررات !

فحين بدأ الانحراف بإشراك آلهة أخرى مع الله .. لم يكن له سند ولا مبرر !

إن من يعرف الله حق المعرفة لا يمكن أن يقدم على الشرك فى أية صورة من صوره . ولكن أوروبا التى أخذت عقيدتها ممتزجة بالوثنية الرومانية - على يد الإمبراطور قسطنطين - لم تعرف الله فى حقيقته العلوية . وإنما استمرت فى جاهليتها .. كل يوم تزداد !

وبعض المؤرخين يميل إلى تفسير انحراف المسيحية عن تطبيق شريعة الله - المنزلة على موسى وعيسى عليهما السلام - بأنها نشأت فى ركن صغير من الإمبراطورية الرومانية ، فلم يكن لها قِبل بفرض سلطانها الحقيقى على تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف . وذلك يفسر جانبًا واحدًا من جوانب الأمر . ويغفل الحقيقة الأخرى . وهى أن العقيدة فى ذاتها لم تكن سليمة فى تصور هؤلاء المسيحيين .. وإلا فلو كانت سليمة لما وقفت قوة الإمبراطورية الرومانية فى طريقها .. كما لم تقف أمام قوة الإسلام كل قوى الجاهلية فى داخل الجزيرة العربية وخارجها ، بما فى ذلك الإمبراطورية الرومانية كلها ،

والإمبراطورية الفارسية إلى جانبها . وعلى أى حال فهذه الأسباب تفسر ولا تبرر ! فلا شىء فى الأرض كلها يبرر الانحراف عن منهج الله !

وقد كان هذا الانحراف المبدئى هو المرشح لما تلا ذلك من انحرافات .. فما دام فى النفس قابلية للشرك ، فكل شىء بعد ذلك هين .. وما دام « هذا » الانحراف قد بدأ فهو السبيل المؤكد لمزيد من التدهور ومزيد من الفساد .

وقد بدأت أوروبا بداية غير موفقة منذ أول لحظة .. ثم استمرت تبتعد عن هدى الله كلما بعد العهد واستطال المسير ..

فلما زادت الكنيسة الأمر سوءًا بحماقاتها المختلفة التى سردنا طرفًا منها من قبل ، كان ذلك مرشحًا جديدًا لمزيد من الانحراف فى العقيدة الأوروبية ، أدت فى تدرجها الطويل البطىء إلى جاهلية القرن العشرين .

وذلك ـ كما قلنا ـ يفسر ولا يبرر ! فقد أحس الأوروبيون ذات يوم أن ما تقدمه لهم الكنيسة الأوروبية ليس « دينًا » حقيقيا ! وإنما هو بضاعة « أرضية » مصنوعة على يد الكهنة ورجال الدين . بضاعة تشتمل على أشياء لا يفهمونها ، وأشياء لا تحترمها عقولهم التى استنارت بنور العلم الجديد .

ولكنهم بدلاً من أن يطرحوا « هذا » الدين ، الذى تقدمه لهم الكنيسة الأوروبية ممسوخًا على هذا النحو ، ويعودوا إلى العقيدة الصافية كما أنزلها الله على رسله كلهم بالحق .. بدلاً من ذلك أخذوا ينفضون أيديهم من « الدين » كله .. على أنه كله خرافة وأساطير .

وهذا .. لا شىء يبرره ! على الرغم من كل ما تقدمه أوروبا من المعاذير !

* * *

وحين أضافت أوروبا إلى شركها الذى كانت عليه فى القرون الوسطى المظلمة عبادة الطبيعة .. فما الذى يبرر .. بل ما الذى يفسر هذا اللون الجديد من الشرك الذى وقع فيه « المتنورون » من الأوروبيين ؟

قلنا من قبل إن ذلك كان مهربًا « وجدانيًا » تهرب به أوروبا من إله الكنيسة الذى تستعبدهم باسمه ، وتفرض عليهم ألوانًا من السلطان الغشوم .

ولكن .. ما هذه «الطبيعة» ؟

كيف يتأتى «لعاقل» ــ وقد كان هذا عهد إحياء «العقل» على هدى الهيلينية المعادة ــ كيف يتأتى لعاقل أن يقول ــ مثلاً ــ ما قاله دارون عن الطبيعة : «إنها تخلق كل شيء . ولا حد لقدرتها» ؟!!

كيف يتأتى لعاقل أن يجعل من هذه الطبيعة كائنًا ــ مفكرًا أو غير مفكر[1] ــ يسيطر على الكون ويحدد مقاديره ؟!!

كيف بدا لهؤلاء العقلاء ألا يسألوا أنفسهم : ما هذه الطبيعة التي يتعبدونها على وجه التحديد ؟! مخلوقة هي أم خالقة ؟ عاقلة أم غير عاقلة ؟ وكيف أنشأت نفسها وأنشأت قوانينها التي تحكم الكون ؟ وأي سلطة لهذه القوانين يسير الكون بمقتضاها ؟ ومن أين لها هذه «الحتمية» التي تفرضها على الكون ؟

ثم .. ما الفرق ــ في حقيقة الواقع ــ بين هذا المعبود الجديد الذي تنسب له القوة والسيطرة والخلق والهيمنة المطلقة على الكون ، وبين الله الذي نبذوه وانسلخوا من عبادته لأنه «غير معقول» و «غير مفهوم» ؟!

وحين أبوا أن يخضعوا لقوة «غيبية» لا يرونها .. فكيف تأتى لهم ألا يسألوا أنفسهم عن هذه الطبيعة : غيب هي أم شهود ؟!! فإن كانت «مظاهرها» مشهودة في السموات والأرض ، والمادة والشعاع ، فما «هي» .. «هي» في كنهها وحقيقتها ؟ «هي» التي تجعل السماء سماء والأرض أرضًا ، والمادة مادة ؟ أليست «هي» غيبًا مكنونًا لا تدركه الحواس ؟!

وهل كان «الله» غير ذلك ؟

غيبًا لا تدركه الحواس ، ولكن مظاهر قدرته هي السموات والأرض والمادة والإشعاع ؟!!

لقد كانت حماقة جاهلية كبيرة ، تلك التي وقع فيها «المتنورون» من الأوروبيين !

* * *

---

(1) يقول دارون ــ رغم قولته السابقة ــ إن الطبيعة تخبط خبط عشواء في تطورها !

ثم لما بطلت عبادة الطبيعة ، وعبد الإنسان نفسه ! !

فيم والله كانت هذه العبادة ؟ ! !

لأن الإنسان قد تعلم .. وزادت قوته !

ودعك لحظة من الجاهلية المنكرة ، التى تتنكر لخالقها ، الذى وهب لها هذه القدرة على العلم ، لغير سبب سوى أنه وهب لها هذه القدرة ! فبدلاً من أن يشكر الإنسان الله المنعم الوهاب ، على ما أولاه من نعمائه ، تنقلب النعمة ذاتها سببًا للنفور والكفران !

دعك من هذه الجاهلية المسممة بروح الجاهلية اليونانية القديمة ، فى صراعها النكد بين البشر والآلهة ، كلما « اغتصبت » من الآلهة قدرًا من المعرفة زادت تمردًا عليها بما صار فى يدها من سلطان !

دعك من ذلك كله لحظة .. ولننظر ماذا « عَلِم » الإنسان حتى يتنكر للخالق المنعم الوهاب !

يقول ماريت ستانلى كونجدن ـ وهو عالم أمريكى معاصر ـ فى مقال له بعنوان « درس من شجيرة الورد » : « إن العلوم حقائق مختبرة ، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة فى ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته ، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود ، فهى بذلك مقصورة على الميادين الكمية فى الوصف والتنبؤ . وهى تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهى بالاحتمالات كذلك .. وليس باليقين .. ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، وعرضة للأخطاء المحتملة فى القياس والمقارنات ، ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف ، وليست نهائية »[1] .

هذه قولة « عالم » .. وليست قولة رجل من « رجال الدين » !

العلم البشرى كله احتمالات . لا يقين فيه . مهما أوتى من دقة التجربة ودقة الآلات !

وما ميدان العلم ؟

لقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث فى « كنه » الأشياء . لأنه « عَلِم » ألا سبيل له إلى معرفة هذا الكنه المغيب عن الحواس ! واكتفى بدراسة « ظواهرها » .. وهذه

---

(١) عن كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

الدراسة فى الظواهر هى التى يقول عنها ذلك «العالم» إنها ليست يقينية . وإنها تبدأ بالاحتمالات وتنتهى بالاحتمالات !

فما هذا العلم من «مجموع» العلم الحقيق ؟! وأين مكانه فى النفخة الكاذبة التى أصابت الإنسان ؟!

ثم .. ما هذا العلم بالنسبة لما «يشتهى» الإنسان ذاته أن يعلم ؟!

أين منه علم الغيب ؟ الذى تطلعت البشرية منذ مولدها إلى استشفافه . ولا يزال موقفها منه اللحظة كموقفها منه منذ ألوف وألوف من السنين ؟

كم يعلم الإنسان من الغيب ؟ لا الغيب البعيد فى المكان والزمان .. بل غيب اللحظة القريبة القادمة .. بل غيب هذه اللحظة الداخلة عليه من كل باب ، وبينه وبينها ألف ستر وألف حجاب ؟!

ذلك مبلغهم من العلم ... !

أما القوة .. فقد زادت قوة الإنسان حقا حتى سيطر على «البيئة» وعلى «قوى الطبيعة» . وفجر الذرة وأطلق الصاروخ .. واندفع يحاول الوصول إلى الكواكب فى يوم قريب أو بعيد ..

ولكن ..

أين ذلك مما «يشتهى» الإنسان من القوة ؟

أين هو من الرغبة فى دفع الموت ، والقدرة على الحياة الأبدية ؟ تلك الرغبة التى استزل بها الشيطان آدم .. ولا يزال بنوه يتشهونها إلى يوم الدين !

«وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين» .. «فدلاهما بغرور ...»(1)

بل أين هو من دفع المرض .. وجرثومة لا ترى حتى بالمجهر تسبب له أفتك الأمراض التى لا يجد علاجها حتى اليوم ؟!

لقد كان الجهل والعجز هما السبب فى عبادة الله .. كذلك يقول جوليان هكسلى فى

---

(1) سورة الأعراف [٢٠] ، [٢٢] .

الجاهلية التى ترين على قلبه فى القرن العشرين .

فليكن كذلك .. فما الذى حدث ـ فى باب العلم والقوة ، أو فى باب الجهل والعجز ـ يبرر خروج الإنسان عن عبادة الله !!

ثم نعود إلى تلك الجاهلية المقلوبة الأوضاع .. أفإن وهب اللهُ البشر القدرة على التعلم والقدرة على تسخير بعض قوى الكون ، يكون رد البشر على ذلك هو التبجح والغرور والخروج عن طاعة الله ؟

إنها اللعنة التى صبتها فى الفكر الأوروبى أسطورة بروميثيوس سارق النار .

ونعود إلى ذلك «الإنسان» حين تبجح وقال : أنا أستغنى عن الله !

ماذا صنع فى حياته من آثام ؟!

قال : أنا أشرع لنفسى . لقد شب الإنسان عن الطوق !

وقال : أنا أصنع بنفسى عقائدى وتقاليدى .

وقال : أنا أصوغ بنفسى الحاضر والمستقبل بعيدًا عن وصاية الله .

وكان .. !

وتلقفه الشيطان !

وإلا .. فماذا يكون هذا الصنيع إن لم يكن صنيع الشيطان ؟ ماذا يكون هذا الشر الضارب أطنابه فى كل الأرض ؟ ماذا يكون الظلم المستشرى فى كل مكان ؟ ماذا تكون العبودية المستذلة فى الشرق وفى الغرب ؟ عبودية لرأس المال مرة . وللدولة مرة . وللفرد المقدس مرة . وللشهوات المدمرة مرة .. وفى كل مرة هى عبودية ومذلة وهوان ؟

وماذا يكون الفجور المستشرى فى كل مكان ؟ الذىَ حوّل وجه الأرض إلى ماخور يفغر فاه لكل فتى وفتاة ؟

وماذا يكون الجنون الحقيقى الذى يملأ المستشفيات بمرضاه فى الأمم «المتمدينة» فتضيق بنزلائها ، والجنون الآخر الذى لا يحسب «رسميا» فى عداد الجنون ، ولكنه مرض وشذوذ واختلال لا يقل فى حقيقته عن الجنون : جنون «المودات» ، وجنون السينما ، وجنون التليفزيون ، وجنون «التقاليع» .. وما أشبه ذلك من انحرافات لا تنبغى لهذا «الإله» الذى يستكبر عن عبادة الله !

كلا ! ما أبأس هذا الإنسان حين زعم لنفسه أنه إله ، وأنه شب عن الطوق واستغنى عن وصاية الله !

* * *

وأخيرًا تلك الآلهة المزعومة التى ولدها «الفكر اليهودى» فى أواخر القرن التاسع عشر وتسممت بها أفكار «الأميين» منذ ذلك الحين .. آلهة «الحتميات» الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية ، التى يحويها جميعها التفسير المادى للتاريخ .

ما هذه الحتميات المدعاة ؟

يقول التفسير المادى للتاريخ أولاً : إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! وتلك هى الحتمية الاقتصادية الأولى فى التاريخ ..

وفى أثناء البحث عن الطعام احتاج إلى اختراع الأدوات .. وهذه الأدوات هى التى نقلت حياته من طور إلى طور عبر التاريخ ..

ففى المبدأ كانت الشيوعية الأولى ، حيث لا ملكية فردية لأحد .. ثم اكتشفت الزراعة ، فنشأت الملكية : ملكية الأرض وملكية أدوات الإنتاج . ونشأ الرق من إغارة قوة على قوم آخرين ليأخذوا منهم أرضهم ، ثم استرقاقهم وتشغيلهم فى الأرض . ونشأ الإقطاع . كنتيجة حتمية . ثم اخترعت الآلة . فنشأت الرأسمالية . كنتيجة حتمية . وانهار الإقطاع . كنتيجة حتمية . ثم قام الصراع بين رأس المال والعمال . كنتيجة حتمية . واشتد الصراع على ملكية الآلة وملكية الإنتاج . كنتيجة حتمية . ثم كانت ـ وفى طريقها أن تكون ـ الشيوعية الثانية ـ والأخيرة ـ حيث لا ملكية فردية لأحد ..

ذلك ملخص التاريخ البشرى الذى ترسمه الحتميات ..

ولا يمكن أن تتصور الأمر على هذا النحو إلا الجاهليات !

هذا التفسير الذى أغفل «الله» وتدبيره للكون والحياة والإنسان .. ما الذى وصل إليه ؟

وصل إلى تفسير مبتسر لا يمكن أن يتقبله فى ضميره إنسان «متنور» «عاقل» يهتدى حتى بالعلم «الجاهلى» الذى يتعبده الجاهليون ..

فعلى فرض أن ذلك التفسير كله صحيح فى رسم أطوار البشرية [وهو ـ كما سنرى بعد لحظة ـ غير صحيح] فكيف يكون ـ كما قال ماركس ـ مستقلا عن إرادة الإنسان وعن كيان الإنسان ؟

أليس «الإنسان» هو الذى امتلك الأرض وأدوات الإنتاج بعد إذ لم يكن يملك من قبل ؟ هل الأرض هى التى فرضت عليه ملك نفسها ؟! هى التى أمسكته من خناقه وهزته وقالت له : لا بد أن تملكنى ؟! أم «هو» الذى امتلكها ؟ برغبته فى الامتلاك ؟

ومن الذى اخترع الآلة ؟ أليس هو «الإنسان» ؟

ولماذا اخترعها ؟ بإرادته ؟ أم فرضت هى نفسها عليه فرضًا وأمسكته من خناقه وهزته ، وقالت له : اخترعنى ؟!

أو ليست رغبته «هو» فى تحسين إنتاجه ـ الرغبة الفطرية الكامنة فيه ـ هى التى جعلته يتعلم ويبحث وينقب حتى اخترع الآلة ؟!

فعلى فرض أن هذه الآلة هى التى تكتب تاريخ البشرية .. أليس فيها «إرادة الإنسان» ؟ فكيف تكون الأطوار إذن خارجة عن إرادة الإنسان ومستقلة عنها ؟

ثم .. حين توجد الرأسمالية .. أليست تستند إلى رغبة «الإنسان» فى أن يملك ، ويستزيد مما يملك ، واستعداده الفطرى لأن يطغى حين ينحرف عن السبيل ؟

ثم .. حين تقوم الشيوعية ـ إن قامت ـ أليس لظن «الإنسان» أن هذا هو الحق والعدل .. الذى سخر منه فردريك إنجلز ، وقال إنه لا يصرّف أمرًا من أمور الأرض ؟!

هذه واحدة .. الواحدة القريبة إلى النظر فى الحكم على هذه الحتميات ..

والأخرى .. وهى أقرب منها فى الحقيقة لمن يتدبر الأمر : هذه «الحتميات» على فرض صحتها .. حتميات من ؟!

من الذى فرض هذه الحتميات على خط سير البشرية ؟

أهى الصورة الوحيدة الممكنة للحياة ؟

أو لم يكن من الممكن أن يظل الإنسان فى طور الشيوعية الأولى أبدًا ؟

أو لم يكن من الممكن أن يظل فى الرق أبدًا ؟ وفى الإقطاع أبدًا ؟ وفى الرأسمالية أبدًا ؟

اختراع الآلة ينقّل خطو الإنسان خلال التاريخ ..

نعم ! مؤقتًا !.. فهل اختراع الآلة «حتم» على البشرية ؟ ومن الذى حتّمه ؟

وما هذه العماية عن ذكر «الله» ؟!

أو ليس الله طرفًا فى هذا الأمر على الأقل ! سبحانه وتعالى عما يصفون ؟!!

أو ليس هو الذى خلق الإنسان ووهب له القدرة على اختراع الآلات ؟!

وهل كان حتمًا أن توهب للإنسان هذه القدرة ؟ حتم من ؟ من الذى حتّمه ؟

بل هل كان حتمًا وجود الإنسان ذاته على الأرض ؟

بل هل كان حتمًا وجود الأرض فى الكون ؟

بل هل كان حتمًا وجود الكون ذاته ؟ حتم من ؟ من الذى حتّمه ؟

ما هذه العماية عن ذكر الله ؟!

أو ليس الأولى أن يفتح الإنسان بصيرته على الحق ؟!

أو ليس الله هو الذى خلق الكون ؟ ولم يكن مضطرًا أن يخلقه .. سبحانه .

أو ليس هو الذى خلق الأرض .. وخلق الإنسان .. وكان من الممكن ألا يخلقها ، أو يخلق الظروف الملائمة للحياة وظهور الإنسان ؟

ثم .. إذا كان هذا قَدَر الله . الذى خلق .. فكيف نقف فى مرحلة معينة ونقول لهذا القدر : لا ! لست أنت ! وإنما هى الحتمية التاريخية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية الاجتماعية أو غيرها من الآلهة المدعاة ؟!

* * *

وفوق ذلك فإن هذه الآلهة المدعاة ، التى ولدها الفكر الأوروبى فى «ذروة» جاهليته ، آلهة جاسية صارمة قاسية ، لا تدع مجالاً لإرادة الإنسان ، ولا تستجيب له فى ليل أو نهار ..

إنها ــ فى «حتميتها» الحمقاء ــ لا تبالى هذا الإنسان .. مشاعره أو أفكاره أو أعماله .. لا تقيم له وزنًا إن فسد أو استقام .. إن هبط أو ارتفع .. إن جاهد

أو استخذى .. إن آمن أو لم يؤمن .. إنها تعامله على أنه كم مهمل ، كل مهمته أن يسير صاغرًا فى «حتميتها» القاهرة .. أو تعامله على أنه بهيمة سادرة فى الأرض .. تساق . ولا تعرف الطريق . ولا يساوى شيئًا أن تعرف الطريق !

إنه إهدار شنيع لكرامة الإنسان وكيانه .. وأى إهدار أكبر من إضاعة «القيمة» المترتبة على شعوره وفكره وأعماله ؟ «القيمة» التى هى حقيقة «الإنسان» ؟!

وتلك هى «العزة» التى أرادها الإنسان لنفسه بعيدًا عن وصاية الله ! أن أصبح عبدًا لمن لا يرحم ولا يصيخ لصراخ الإنسان !

ألا ما أبأسه هذا الإنسان .. فى جاهلية القرن العشرين !

* * *

ولم يقف «الإنسان» فى جاهليته عند هذا الحد ، وما كان من الممكن أن يقف . فهذا الانحراف فى تصور الحقيقة الإلهية لابد أن يتبعه حتمًا ضلال فى كل تصورات الإنسان وسلوكه .. مادام المتَّجه منذ أول لحظة لا يقوم على أساس سليم ..

لقد انحرف الناس فى الجاهلية الأوروبية الحديثة فى تصورهم للكون ، وعلاقته بخالقه ، وعلاقته بالإنسان ..

ضلوا ضلالات شتى ..

فمرة يؤمنون «بحتمية» قوانين الطبيعة لينكروا قدرة الله على المعجزات !

ومرة يقولون : إن الوجود كله نشأ نشوءًا ذاتيًا ! بما فى ذلك الحياة ! لينكروا وجود إله هو الذى خلق الكون والحياة !

ومرة يقولون : إن الظروف كلها كانت معاكسة لنشأة الحياة ، وإنها نشأت فى هذا الكون «مصادفة» ! ثم أدت هذه المصادفة فى النهاية إلى ظهور الإنسان !

ومرة يقولون : إن هذا الكون موجود بلا غاية ! وكذلك الإنسان !

ضلالات من كل نوع .. تلقى ظلالها على مشاعر الإنسان وسلوكه ، وهى فى الأصل ناشئة عن الانحراف فى تصور حقيقة الله .

* * *

لقد تحدثنا عن الحتميات من قبل..

ولا تختلف هذه الحتمية «العلمية» التي تسمى قوانين الطبيعة عن غيرها من الحتميات. كلها تضل عن الحتمية الحقيقية الوحيدة في هذا الكون، وهي مشيئة الله.

وهذه المشيئة الطليقة لا يمكن أن تكون مقيدة.. حتى بمشيئتها! فكل قيد مفروض على إرادة الله فهو باطل.. فمن الذي يملك أن يفرض إرادته على الله؟ سبحانه الخالق المنشىء المريد..

وإنما جاءت الفتنة من «ثبات» السنة الإلهية التي جعلها الله لهذا الكون، ودوامها مدى الزمان..

ولكن هذا الثبات ـ الذي أوجدته المشيئة الإلهية مختارة غير مقيدة ـ وكان رحمة بالكون ورحمة بالإنسان.. أنه لا يقيد إرادة الله ـ بداهة ـ ولا يعجزه ـ سبحانه ـ عن التصرف في أمر الكون!

كيف يعجز.. وهو الخالق المنشىء المريد؟!

لقد قضت مشيئته ـ الطليقة ـ سبحانه ـ أن يجرى الكون على سنة ثابتة، هي التي سمتها الجاهلية الحديثة «قوانين الطبيعة» نفورًا من أن تسميها باسمها الحقيق.. «سنة الله».

ولكنه حين يريد ـ سبحانه ـ أن يخالف هذه السنة ـ الثابتة بأمره ـ فمن ذا الذي يملك أن يقول له: لا! إن قوانين الطبيعة لا تسمح بالتغيير؟!

ومن ثم تقع المعجزة، مخالفة للسنة الظاهرة الثابتة، وتكون جزءًا من سنة الله كذلك، التي هي الحتمية الوحيدة في هذا الكون..

والإيمان بالمعجزة لن يمنع ـ كما فهم الجاهليون ـ من قيام العلم، بقوانينه الثابتة، ولا من قيام العلم في ظل العقيدة، وتقدمه في كل ميدان. فلا تعارض على الإطلاق بين هذا وذاك.

لقد قام العلم الإسلامي كله ـ وهو تراث ضخم يشهد للمسلمين بالبروز والتمكن ـ ذلك العلم الذي تولدت عنه كل النهضة العلمية الحديثة في أوروبا، وخاصة المنهج التجريبي الذي تقوم عليه كل العلوم الحديثة.. قام هذا العلم في ظلال العقيدة، في ظلال الإيمان بالمعجزة، بلا تعارض في قلوب المسلمين وتفكيرهم بين الإيمان بحدوث

المعجزة والإيمان بثبوت سنة الله فى الكون ـ التى يترتب عليها إمكان قيام البحث العلمى وتتبع نتائج المشاهدات ـ لأن هذه حقيقة وهذه حقيقة . والحق لا يتعارض بعضه مع بعض إلا فى العقول الضيقة التى تعجز عن الشمول .

إن «المشكلة» الكبرى فى الذهن الأوروبى الضيق ، هى أنه لو حدثت المعجزة حقا فى أى وقت لاضطرب نظام الكون كله ، لأنه كله مترابط بقانون ثابت .. إذا حدث كذا ترتب عليه حتمًا نتيجة معينة !

من الذى رتبها ؟ أليس هو خالقها ؟ فكيف يعجز الخالق ـ حين يريد ـ أن يرتب عليها نتيجة غيرها فى لحظة معينة ، لغاية عليا يريد تحقيقها .. ثم تسير فى سنتها «المعتادة» بعد انقضاء هذه الغاية المرادة ؟

ومع ذلك «فالعلم» كله ـ بما فى ذلك قوانين الطبيعة «الحتمية» ـ كله فروض ، وكله احتمالات ! [1] .

يقول سير «جيمس جينز» العالم الإنجليزى فى الطبيعة والرياضيات ، الذى بدأ حياته ملحدًا شاكًّا ، ثم انتهى بأنه لابد لحل مشكلات العلم من التسليم بوجود الله :

«لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقًا واحدًا : وهو الطريق الذى رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفى تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأنه لا مناص من أن الحالة «أ» تتبعها الحالة «ب» . أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن : هو أن الحالة «أ» يحتمل أن تتبعها الحالة «ب» أو «جـ» أو «د» أو غيرها من الحالات الأخرى التى يخطئها الحصر . نعم إن فى استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة «ب» أكثر احتمالاً من حدوث الحالة «جـ» وإن الحالة «جـ» أكثر احتمالاً من الحالة «د» .. وهكذا بل إن فى مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات «ب» و «جـ» و «د» بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أى الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائمًا عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار .. مهما تكن حقيقة هذه الأقدار ! » .

* * *

(١) راجع شهادة العالم الأمريكى «ماريت ستانلى كونجدن» فى هذا الفصل ص ٧٨ .

أما قصة النشوء الذاتى ، فقد كانت ضلالة عجيبة من ضلالات الجاهلية الحديثة فى القرن التاسع عشر وبداية العشرين !

حين أُحرج دارون ، وهو يتتبع مراحل الخلق ـ إلى الوراء ـ مرحلة مرحلة إلى نشأة الحياة الأولى على ظهر الأرض من الموت ، أُحصر .. ولم يشأ التسليم بالمنطق البديهى الذى لا سبيل غيره .. لأنه كان فى حرب مع الكنيسة لا يريد أن يعترف بإلهها ! لأنها تحاربه باسم هذا الإله !

لم يشأ أن يلجأ إلى البديهية التى لا يوجد سواها : أن الله هو الخالق !

وظهرت من ثم هذه الأسطورة الجاهلية ، أسطورة النشوء الذاتى ! التى لا تستأهل النقاش !

إن علماء القرن العشرين أنفسهم قد بدأوا يشعرون بسماجة هذه الأسطورة السخيفة فأقلعوا عنها !

يقول «رسل تشارلز إرنست» أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا :

«لقد وُضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات . فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء ، وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ! فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك إنما يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذى خلق الأشياء ودبرها .

«إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته

شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإننى أومن بوجود الله إيمانًا راسخًا »[1]

* * *

أما قصة « المصادفة » ! فلعل الفقرة السابقة المقتطفة من كلام ذلك « العالم » تكفى لدحضها وبيان سخافتها ! ومع ذلك فنظرة واحدة ـ بعين مبصرة وقلب متفتح ـ دون حاجة إلى علم العلماء وتجاربهم ، تكفى لإدراك أن هذا النظام الدقيق المتمثل فى دورة الأفلاك ـ كمثل من أمثلة التنظيم الدقيق الذى يشمل كل شىء فى الكون ـ لا يمكن أن يحدث مصادفة بلا تدبير !

وفضلاً عن أن « المصادفة » تعبير ـ فى ذاته ـ غير علمى ، فإنه لا يمكن أن تُحْدِث المصادفة كل هذه الدقة التى لا تختل فى دورتها ثانية ولا ثالثة فى قياس الزمن ، ولا قيد شبر فى حساب المكان ! فى بلايين البلايين من السنين التى لا يدركها حصر الإنسان !

* * *

ومن ضلالة « المصادفة » نشأت الضلالة الأخرى التى تقول إن الكون قد وجد بلا غاية ، وكذلك الإنسان !

إنها ضلالة متصلة بالضلالة الكبرى .. ضلالة الانقطاع عن الله !

فما يمكن لقلب موصول بالقدرة الإلهية الخالقة المنشئة المريدة ، أن يلوك فى حسه هذه الضلالة العمياء !

إن هذه الدقة المعجزة ذاتها فى بناء الكون ، لا يمكن أن تكون عبثًا ! إنها وحدها تشهد بالقصد والتدبير . وتشهد بوجود غاية للوجود .

وقد لا يدرك الإنسان ـ من تلقاء ذاته ـ هذه الغاية ، لأنه ، وهو جزء واحد من بنية الكون ، قد يعجز عن الإحاطة بالكل الشامل ، ويعجز عن إدراك دلالاته . ولكن حسبه ـ حتى فى هذا العجز ـ أن يفتح بصيرته ، فيحس أن هناك بالضرورة غاية وقصدًا من وراء هذه الدقة المعجزة التى لا يحيط بكل دقائقها عقل الإنسان .

---

(١) مقال « الخلايا الحية تؤدى رسالتها » فى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » .

وقد كانت هذه الضلالة التى تظن أن الوجود بلا غاية ، هى التى أدت إلى الإنحراف فى تصور الحياة وأهدافها وارتباطاتها .

إن الحياة التى نشأت مصادفة (!) بلا تدبير من خالق مدبر ولا حكمة ، والتى أدت مصادفة إلى خلق الإنسان .. لا يمكن أن يكون لها ارتباطات ولا أهداف ..

يقول دارون : إن الحياة تخبط خبط عشواء فى تطورها !.. بما فى ذلك نشأة الإنسان ، وتطور الإنسان !

ومن ثم تلقى هذه الضلالة ظلها على تصور الإنسان لغاية وجوده وأهداف حياته .

إنها الضياع !

إنها الشقاء الأليم الذى لا يقف عند حد !

إنها المرارة والحسرة .. أو التكالب الذى لا حد له على المتاع !

إنها الصراع اليائس ، الذى لا ينتظر تأييدًا من قوة عليا ، ولا سندًا من رب عطوف .. ومن ثم ينقلب إلى صراع وحشى .. صراع مجنون ..

وسنتكلم فى الفصل القادم عن الآثار التى تركها هذا التصور المدمر فى كيان الإنسان وسلوكه الواقعى ، فردًا وجماعة وجنسين ، وشعوبًا وقبائل . ولكننا هنا نتحدث عنه من حيث هو فساد فى التصور فحسب .

فحين انقطع الإنسان عن الله ، وانبتت العلائق بينه وبين خالقه ، شرد فى الأرض بغير هاد .

شرد .. فلم يستطع أن يدرك غاية وجوده ، ولا مكانه الكريم عند الله ، ولا دوره البارز فى هذا الكون .. حتى وهو يتبجح إزاء خالقه فيقول : إنه هو ـ الإنسان ـ سيد هذا الكون ومدبر أمره ! إنه يقول هذه الكلمة الفارغة منتفشًا فى تبجح إزاء خالقه فحسب . ولكنه ما إن يخرج ـ فى وهم نفسه ـ من دائرة نفوذ الله ووصايته ، حتى تتلقفه الشياطين ! تتلقفه الآلهة المزعومة ـ تلك الحتميات ! ـ تمرغه فى الوحل ، وتستذل كبرياءه وتمحق وجوده ، وهو صاغر مستسلم ذليل !

لم يستطع أن يدرك حقيقة نفسه ولا غاية وجوده :

«فالإنسان (فى رأى دارون) حيوان كغيره . ولذلك فإن آراءه فى معنى الحياة الإنسانية ، والمثل العليا الإنسانية ، لا تستحق بالنسبة لباقى الكائنات تقديرًا أكثر من الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى . ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية (!) ومن المسلم به أن الإنسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات . ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر» ! ![1] .

ومن ثم راح يتخبط فى تصوره الحيوانى لذات نفسه ، وغاية وجوده .. فهبط بالفعل إلى مستوى النملة والفأر ! !

ثم لم يدرك أن الحياة لا يمكن أن تنتهى بانتهاء هذه الفترة المحدودة على ظهر الأرض !

إن الصورة لا يمكن أن تكتمل حين تنتهى عند هذا الحد .. فالحياة ــ بصراعاتها ونقائضها ، ومظالمها التى لا تعد ــ عبث باطل إذا كانت هى الأولى والأخيرة ، والبدء والانتهاء ! عبث لا يتبين فيه الحق من الباطل . عبث يتنزه عنه الإنسان المفكر ذاته ، فضلاً عن أن يصدر عن إله !

وحين انقطعت قلوبهم عن الله .. حين اقتطعوا الصورة قبل اكتمالها .. حين نظروا فى هذا الحيز الصغير المحدود الذى يعيشونه فى هذه الدنيا ، بدت لهم الصورة ــ ولا شك ــ مشوهة قاتمة . لا معنى لها ولا دلالة .. فانطلقوا يعوون صارخين : إن الحياة كلها باطل وعبث وفوضى واضطراب ! وانطلقوا يتكالبون فى صراع وحشى على المتاع .. فهى فرصة واحدة زائلة .. من لم يهتبلها اللحظة .. فلا رجوع !

وشردوا كالسائمة .. يصطرعون ويتخبطون .. بلا هدف ولا غاية ولا دليل .. ولا طمأنينة ولا سعادة ولا راحة فى هذا الخضم المجنون ...

* * *

والضلالة «الواسعة» الناشئة فى أصلها من ضلالة الانقطاع عن الله ، هى تصور

---

(١) جوليان هكسلى فى كتاب «الإنسان فى العالم الحديث» ص ٢ من الترجمة العربية .

الجاهلية الحديثة للنفس البشرية ، وعلاقة الإنسان بالإنسان . فردًا ، وجماعة ، وجنسين .. وشعوبًا وقبائل .

لقد ظل الإنسان ـ على ضلالته كلها وجهالاته كلها ـ يظن فى نفسه أنه إنسان !.. حتى جاءه دارون يقول له فى توكيد «علمى» إنه حيوان !

لقد بعث الله رسله للبشرية منذ مولد الإنسان حتى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم .. يؤكدون «إنسانية» الإنسان ، ويجاهدون ليرفعوا الإنسان إلى أقصى ما ترتفع إليه طاقاته ، بموجب هذه «الإنسانية» التى جاءوا يؤكدونها ، وينيرون لها السبيل لتهتدى بهدى الله ، فترتفع وتشف .. وتأتى بما يشبه المعجزات .

ولكن رسول «العلم» فى القرن التاسع عشر ، جاء يؤكد حيوانية الإنسان !

بريئًا .. أو غير برىء .. هل كان إلا رسول الشيطان ؟!

إن هذا العلم المزيف الذى «اهتدى» إليه دارون [سنبين زيفه بعد لحظة] قد فعل بالبشرية فى جاهليتها الحديثة ما لم تصنعه شياطين الإنس والجن فى ألوف من السنين !

حيوان .. ماذا تنتظر من الحيوان ؟!

لقد سرت إيحاءات الداروينية المسمومة فى كل مجالات الفكر الغربى .. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس والأخلاق والفن .. لم تترك مجالاً واحدًا لم تلحقه بالتشويه !

فمادام الإنسان قد صار فى نظر نفسه حيوانًا ، فلابد أن تتبع ذلك نتائج «حتمية» !

والنتائج الحتمية لهذا التصور الجاهل المنحرف ، هى أن تهبط مفاهيم الإنسان وأخلاقه ، ومشاعره وارتباطاته ، حتى تصير فى مستوى «الحيوان» الذى صار إليه بفكره ، على هدى التفسير الحيوانى للإنسان !

لقد ضلل دارون التركيب التشريحى للإنسان ، القريب الشبه بتركيب الحيوان . ومن ثم سارع ـ بلا روية ـ يؤكد حيوانية الإنسان ..

وبريئًا .. أو غير برىء .. لم يكن دارون يتحدث عن حقيقة علمية !

لقد كان ينقصه العلم الحق ، الذى تبين طرف منه بعد دارون ، على يد الداروينية الحديثة ذاتها Neo Darwinism التى تؤمن مثله بالتطور ، ويتولى عرضها عالم ملحد

صريح الإلحاد مثل جوليان هكسلى ، ومع ذلك فهو يؤكد «تفرد الإنسان» .. لا حيوانية الإنسان !

«وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعًا تجنب اعتبار نفسه حيوانًا . ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانًا غريبًا جدا . **وفى حالات كثيرة لا مثيل له** . ولا يزال تحليل **تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية** غير تام»[1] .

وإذن فالإنسان متفرد فى كيانه البيولوجى ذاته .. الذى ظن فيه دارون المشابهة الكاملة للحيوان ، وبنى عليه تفسيره الحيوانى للإنسان !

ويسرد هكسلى ألوانًا من هذا التفرد البيولوجى ، من بينها أنه فى الحيوانات كلها ترتبط العضلات بالمخ بنوعين من الأعصاب ، أحدها يتصل بالعضلات القابضة والثانى يتصل بالعضلات الباسطة . ولا يصدر مخ الحيوان إلا نوعًا واحدًا من الإشارات فى اللحظة الواحدة ، فإما إشارة للعضلات القابضة وإما إشارة للعضلات الباسطة ، فالكلب إما أن يهرش وإما أن يجرى فى اللحظة الواحدة ، ولا يستطيع أن يهرش ويجرى معًا فى ذات الوقت . أما الإنسان ، فهو ــ وحده فى هذه الخلائق كلها ــ الذى يستطيع أن يقوم بأعمال متعارضة فى آن واحد ، لأن مخه يستطيع أن ينسق بين الأعمال المتعارضة ![2] .

ويتحدث هكسلى عن «خواص» الإنسان البيولوجية فيقول :

«وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحًا ، قدرته على التفكير التصويرى ، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية ، فقل : استخدامه الكلام الواضح ..

«ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ..

«ومن أهم نتائج تزايد التقاليد ــ أو إذا شئت ــ من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ..

«وإن التقاليد والعدد لهى الخواص التى هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات

(١) جوليان هكسلى ــ الإنسان فى العالم الحديث ــ ص ٣ من الترجمة العربية .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ ــ ٢٩ .

الحية . وهذه **السيادة البيولوجية** فى الوقت الحاضر خاصية أخرى من **خواص الإنسان الفذة** . ولم يتكاثر الإنسان فحسب ، بل تطور ، ومد نفوذه ، وزاد من تنوع سبله فى الحياة .

«وهكذا يضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات ، كما تقول الأديان» .

«ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى ، **التى لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى** ، ومعظمها واضح معروف . ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهى من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيرًا ، **لأن الجنس البشرى ـ كنوع ـ فريد فى صفاته البيولوجية الخالصة** . ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق ، سواء من وجهة نظر علم الحيوان ، أو من وجهة نظر علم الاجتماع .

«... وأخيرًا فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية فى طريقة تطوره»[1] .

وهكذا تعلن الداروينية الحديثة تفرد الإنسان ـ لا عن إيمان بالله ، فهكسلى ملحد متبجح بإلحاده ـ وإنما عن مشاهدة «علمية» «تجريبية» «معملية» «حسية» ! .

ولكن دارون تعجل ـ بلا سند علمى ـ فأعلن حيوانية الإنسان ! لأن العلم الناقص الذى كان بين يديه أوحى له بالتفسير الحيوانى للإنسان . وكان أحرى به أن يصبر ، حتى يتكشف له الأمر **كما تكشف للداروينية الحديثة** ، ليعلن إنسانية الإنسان .

وحين انطلق هذا التفسير الحيوانى للإنسان ، كالشيطان المارد يجوس خلال الأفكار والتصورات .. فسدت كلها فسادًا لم تصل إليه أية جاهلية من جاهليات التاريخ .

لقد مسخت حياة الإنسان مسخًا ، فردته أدنأ من الحيوان ، وأضل من الحيوان .

التفسير المادى للتاريخ ..

التفسير الجنسى للسلوك ..

التفسير الجثمانى للمشاعر ..

وكل تفسير إلا التفسير «الإنسانى» للإنسان !

---

(١) المصدر السابق مقتطفات من ص ٣ ـ ص ٦ .

التفسير المادى للتاريخ ، وبطله ماركس ـ وقد مر بنا طرف منه ـ يفسر الحياة الإنسانية كلها من خلال حيوانية الإنسان . تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ! أى أن الضرورة القاهرة هى المسيطرة على حياة الإنسان .

الإنتاج المادى هو الذى يعين للناس وجودهم ومشاعرهم ! أى أن القيم المعنوية عرض زائل ـ لا جوهر ـ والجوهر الأوحد هو الكيان المادى للحياة والإنسان .

وفضلاً عن ذلك فقد أخذ هذا التفسير عن الداروينية فكرة التطور ، فحولها إلى لوثة تصيب كل القيم وكل الاعتبارات ..

فالقيم المعنوية لأنها عَرَض للقيم المادية ، فهى «متطورة» لا تثبت على حال . ليس هناك حق أزلى ولا عدل أزلى . إنما هناك قيم متغيرة على الدوام . ما يبدو اليوم فضيلة ـ لأنه انعكاس طور اقتصادى ومادى وإنتاجى معين ـ قد يبدو رذيلة غدًا حين يتغير الطور الاقتصادى والمادى والإنتاجى . وليس هذا مجرد فرض . وإنما هو «حقيقة» ! !

فالتدين فضيلة فى الطور الإقطاعى . وفى الطور الصناعى يصبح التدين تأخرًا وجمودًا ورجعية ! والإلحاد هو الفضيلة ! والعفة الجنسية فضيلة فى المجتمع الإقطاعى . وفى المجتمع الصناعى «المتطور» تصبح العفة الجنسية أضحوكة وسخرية ، لأن المرأة استقلت اقتصاديا ! ! ولم يعد الرجل هو الذى ينفق عليها فيستذلها بطلب النظافة فى الشعور والسلوك ! ! والرجل بدوره «تحرر» من القيود ولم يعد ملزمًا أن يتطهر فى شعوره وسلوكه .. لأن الإله الجديد ـ سواء كان رأس المال فى الغرب أو «الدولة» فى الشرق ـ لا يطالب أحدًا ، ولا يعنيه ، أن يتطهر الناس أو يفسقوا بل يعنيه الأمر الأخير !

إنه تفسير يأخذ الإنسان من جانبه المادى الحيوانى ، ويتحاشى أن يذكر «روحه» . بل يصر إصرارًا على السخرية من هذه الروح .. لأن الجاهلية الحديثة لا تؤمن بالله . ولا تؤمن بالنفخة العلوية فى كيان الإنسان من روح الله .

* * *

والتفسير الجنسى ، وبطله فرويد .. ضلالة أبشع .

إنه لا يكتفى بتصوير الإنسان حيوانًا ، وإنما يصوره حيوانًا ممسوخًا مشوهًا ، ينبع كله من طاقة واحدة من طاقاته .. هى الطاقة الجنسية .

الحيوان يأكل بلذة الأكل . ويشرب بلذة الشرب . ويجرى بلذة الجرى . ويمارس النشاط الجنسى بلذة الجنس .

ولكن إنسان فرويد ـ أو حيوانه المشوه الممسوخ ـ يرضع بلذة الجنس . ويمص إبهامه بلذة الجنس . ويتبول ويبرز بلذة الجنس . ويحرك عضلاته بلذة الجنس . ويعشق أمه بلذة الجنس .. ثم لا يكتفى بهذا الحد ، وإنما يكون كيانه «المعنوى» كله من دين وأخلاق وتقاليد ، نابعًا كذلك من حمأة الجنس المسعور !

* * *

والتفسير الجثمانى للمشاعر ، وبطله «التجريبيون»[1] .. يفسر الحياة كلها من خلال الجسم .. كالحيوان !

فالمشاعر والأفكار نشاط كهربى وغُدِّى وكيماوى ..

غدة الجنس تصنع مشاعر الجنس .

وغدة الأمومة تصنع مشاعر الأمومة .

وغدة الكظر [فوق الكلى] تصنع الشجاعة [أو الجبن] .

والغدة الدرقية تصنع المزاج العصبى أو المزاج المعتدل .. أو المزاج البارد ..

الجسد هو الذى يتحرك دائمًا فى مبدأ الأمر .. ثم ينتج عن ذلك مشاعر وأفكار .

يقول وليم جيمس فى كتابه «نظرية العاطفة **theorie de L'emotion** ص ٦٠ .

«إن الفكرة التى نتخذها عن العواطف عادة ، هى أن الإدراك العقلى لشىء ما ، يستثير الحالة الوجدانية التى نسميها العاطفة ، وأن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هى التى يتولد عنها التعبير الجسدى . ولكن نظريتى ، على العكس من ذلك هى أن التغيرات الجسمية تأتى لاحقة مباشرة لإدراك المؤثر ، وأن الإحساس الذى نشعر به نتيجة لهذه التغيرات [الجسمية] هو العاطفة» !

---

(١) كان «وليم جيمس» رائد المدرسة التجريبية فى علم النفس .

من الجسد إذن تنبع النفس .. وليست «النفس» أصلاً جوهريا فى كيان الإنسان !

* * *

ولقد ناقشت هذه التفسيرات ـ وأمثالها ـ كثيرًا من قبل ، فى أكثر من كتاب .[1] ولا ضرورة بنا للنقاش المفصّل لبيان زيفها ، وضآلة الجانب الذى تفسره من حياة الإنسان . ولكنا نكتفى بإشارات عابرة تنوّر الطريق :

إن هذه التفسيرات جميعها ترتكب ضلالة مشتركة .. إنها تفسر الإنسان من جانب واحد من كيانه : هو أضأل الجوانب فى ذلك الكيان ! تفسره من جانب الجسد وضروراته ، متأثرة فى ذلك بالتفسير الحيوانى للإنسان .

وفضلاً عن أن أية نظرة جزئية للإنسان ، هى نظرة خاطئة لأنها تهمل بقية كيانه ، ومن ثم تعطى عنه صورة مزيفة لا وجود لها فى الواقع .. ويزيد الأمر سوءًا حين تفسر الحياة البشرية كلها من خلال هذا الجزء وحده ، ومن خلال تلك الصورة المزيفة ..

فضلاً عن ذلك ، فإن الجانب الذى أهملته هذه التفسيرات كلها هو بالذات الجانب الذى أعطى الإنسان إنسانيته ، وفرّقه عن الحيوان !

إنها جميعًا تهمل جانب الروح أو تلغيه !

فالتفسير المادى للتاريخ ، الذى يجعل البحث عن الطعام هو رائد تفكير الإنسان ..

والتفسير الجنسى للسلوك ، الذى يجعل الجنس هو رائد حياة البشرية ..

والتفسير الجثمانى للمشاعر ، الذى يجعل الجسد هو منبع النفس ..

كلها ـ وأمثالها ـ لا تدع مكانًا للروح فى كيان الإنسان أو فى واقعه الحى على ظهر الأرض . وتصوره جميعًا فى نطاق الحيوان .. ثم لا تفسر : لماذا إذن اختلف واقعه فى الأرض عن واقع الحيوان ؟!

إن الحيوان يبحث عن الطعام .

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام . معركة التقاليد . دراسات فى النفس الإنسانية . التطور والثبات فى حياة البشرية .

والحيوان يمارس كذلك نشاطه الجنسى .

وتصرفات الحيوان وسلوكه نابعة كلها من كيانه الجسمى .

فلماذا اختلفت صورة الإنسان عن الحيوان ، ولماذا اختلف طريقهما فى الحياة ؟

* * *

لقد عميت هذه التفسيرات كلها عن «الواقع» البشرى المشهود .

أم لعلها قصدت قصداً ـ تدفعها دوافع شيطانية خبيثة ـ إلى تصوير الإنسان فى صورة الحيوان ؟! [1] .

أيًّا كان الأمر . فقد كانت هذه التصورات الزائفة عاجزة عن تفسير «الإنسان» .

إنها لا تستطيع أن تفسر : لماذا يبدأ الإنسان من أى لون من ألوان نشاطه : من البحث عن الطعام ، أو البحث عن الجنس ، أو البحث عن السكن ، أو البحث عن الملبس .. فإذا هو ـ من أى طريق بدأ ـ يصل إلى «تنظيمات» اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وإلى «قيم» و «عقائد» و «أفكار» ؟

لماذا لا يستطيع أن يقوم بعمل من أعماله منفصلاً عن «القيمة» المرتبطة بهذه الأعمال ؟

لماذا لا يأكل «بمعدته» وحدها . وإنما عن طريق تنظيم اقتصادى واجتماعى وسياسى ـ فاسد أو غير فاسد ، هذه قضية أخرى ـ يعطيه قسطه من الطعام ، ويرتب على هذا القسط ، وعلى طريقة تناوله نتائجه «الحتمية» فى نظام الحكم ونظام المجتمع وعلاقات الناس بعضهم ببعض ؟

لماذا لا يمارس الجنس بكيانه الجنسى وحده . وإنما عن طريق تنظيم اقتصادى واجتماعى وسياسى ـ فاسد أو غير فاسد ـ يعطيه قسطه من الجنس ، ويبين له طريقة تناوله ، ويرتب على ذلك نتائجه الحتمية ؟

وهكذا .. كل نشاط يصدر عن الإنسان ، فإنه ـ رغب الإنسان أم لم يرغب ـ ينتهى بتنظيمات وقيم وأفكار وعقائد ـ فاسدة أو غير فاسدة ـ ولكنها موجودة على أى

---

(١) انظر فصل «اليهود الثلاثة» فى كتاب «التطور والثبات» .

حال .. وهى النتيجة «الحتمية» لامتزاج الروح بالجسم فى كيان الإنسان .. امتزاجًا لا «يتفكك» أو ينفصل كما تصوره تلك التفسيرات[1] ..

* * *

إنها ـ كلها ـ تفسيرات زائفة زائغة مهزولة ..

وكلها جاهليات .. تنشأ من الجاهلية الكبرى المنقطعة عن هدى الله ، والتى تتعمد تعمدًا أن تفسر الحياة بعيدًا عن الله ، فتقع فى هذه التفاهات وهذه الجهالات ..

ومع ذلك فلم يكن هذا هو الانحراف الوحيد الذى انحرفته الجاهلية الحديثة فى فهمها للنفس البشرية ..

لقد كان الانحراف ـ حتى الآن ـ ماثلاً فى تفكيك الإنسان المكون من جسم وروح ، وخنق روحه ـ لأنها تتعلق مباشرة «بالله» الذى تفر منه الجاهلية وتنسلخ من آياته ـ وإبراز جانبه الجسدى وحده ، وتفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال هذا الجانب المفرد ، الذى لا وجود له فى حقيقة الواقع فى صورته المجزأة المفكوكة !

ولكن الانحراف لم يقف عند هذا الحد ..

فحين انقطعت الجاهلية عن منهج الله ، فقدت حاسة «التوازن» فى كل تصوراتها . تلك الحاسة التى يكتسبها الحس الإنسانى حين يتصل بمنهج الله ، ويفسر الكون والحياة والإنسان على هداه .

ومن فقدانها التوازن اختلت موازينها وهى ترى ظاهرة الفردية والجماعية فى كيان الإنسان !

فبعض الجاهليين ركز على حقيقة الفرد .. وبعضهم ركز على حقيقة المجموع . كل منهما ينفى الجانب الآخر ، أو يصغر من قيمته إلى أقصى حد !

إما أن تكون حقيقة الإنسان هى الفردية .. فالمجتمع إذن قوة طاغية ظالمة تحاول أن تضغط كيان الفرد وتحطم وجوده !

---

(١) «دراسات فى النفس الإنسانية» فصل «طبيعة مزدوجة» .

وإما أن تكون حقيقته هى الجماعية .. فالفرد إذن ظالم متبجح دنس يحاول أن يخرج على المجموع ليحقق بأنانيته الظالمة كسبًا حرامًا على حساب المجموع !

ولا يجتمع الجانبان قط على توازن واعتدال فى تصور الجاهلية الحديثة .

ثم تنشأ على كل من هذين التصورين المنحرفين نظم فى السياسة والاقتصاد والاجتماع[1] .

لماذا ؟!

لماذا لا ترى الجاهلية حقيقة الواقع ؟ أن الإنسان مركب من الجانبين معًا على توازن واعتدال ؟ فهو فرد مستقل ، وعضو فى المجتمع فى ذات الوقت . فرد يحب أن يشعر بذاتيته ويحققها . وعضو فى المجتمع ، يحب الاجتماع بالآخرين ، ويهفو إلى صحبتهم ، ويأنس إلى الوجود بينهم ؟

حقيقةً إنه كثيرًا ما يقوم الصراع بين الجانبين .. ولكن هذا لا ينفى (أولاً) أنهما موجودان معًا فى الواقع الخارجى وفى داخل النفس . ولا ينفى (ثانيًا) أن الصراع بينهما يمكن أن تخفف حدته إلى أقصى حد ، حين يستقيم منهج الحياة .

* * *

ولكن الجاهليات قد أبت أن تصيخ للمنهج الحق .. منهج الله ..

ونشأ عن ذلك ألوان لا حصر لها من الفساد فى التصور والسلوك .. ولكننا هنا ــ فى هذا الفصل ــ مشغولون فقط بفساد التصور ، نتتبعه فى كل مجال ..

لقد نشأ من انحراف الجاهلية فى تصور النفس البشرية .. الناشىء فى الأصل من انحرافها عن عبادة الله .. أن فسدت تصوراتها للعلاقة القائمة بين الإنسان والإنسان ، فردًا وجماعة وجنسين ، وشعوبًا وقبائل ..

فأما الفرد ــ فيما بينه وبين نفسه ــ فقد صُوِّر على أنه مجموعة من الصراعات التى لا تهدأ ، ولا يمكن أن تهدأ ! بل زادت الجاهلية فباركت هذا الصراع أحيانًا على أنه

---

(١) سنناقشها كلها فى الفصل القادم .

الوسيلة المثلى للتقدم والرقى والنشاط الإيجابى فى الأرض ، وأن الطمأنينة النفسية والسكينة سلبية مريضة ينبغى أن يترفع عنها الإنسان ! وورد فى تعبيراتهم أن « القلق المقدس » هو الذى يدفع بالحياة إلى الأمام .. ! ولقد ظل هذا القلق المقدس (!) يدفعهم حقا .. ولكن إلى الحيرة والاضطراب والجنون وضغط الدم والاختلالات العصبية والنفسية .. حتى ضاقت بهم مستشفيات الأمراض العقلية والعيادات النفسية . واعتبر الجنون من « أمراض المدنية ! » والاختلال من سمات « الحضارة » !

كلا ! إنها الجاهلية .. فالنشاط الحيوى الدافق شىء ، والقلق شىء آخر !

ولقد كان المسلمون الأوائل فى صدر الإسلام أنشط جماعة بشرية عرفها التاريخ ! الفتح الذى شمل الأرض من المحيط إلى المحيط فى أقل من نصف قرن .. الحركة العلمية الفائقة .. التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. المذاهب الفكرية فى تفسير كتاب الله وتطبيقه فى واقع الجماعة ، التى نشأت عنها مدارس الفقه المختلفة الغنية بالأصالة والحركة والنشاط .. كل ذلك وغيره تم فى فترة لا مثيل لها فى القصر . وكان الناس أحياء متحركين ، ولكن فى طمأنينة نفسية وسكينة . لأنهم كانوا يتوجهون بعملهم كله ونشاطهم كله إلى الله ، فتطمئن قلوبهم بذكر الله .

وأما الفرد ـ فيما بينه وبين المجتمع ـ فقد صُوِّرت علاقته على أنها الصراع الدائم والتطاحن الذى لا يهدأ ولا يمكن أن يهدأ ! وأنشئت على ذلك « تفسيرات ! » للحياة وللإنسان ، أبرزها وأشدها جاهلية التفسير المادى للتاريخ ، الذى يجعل الصراع « حتمية » لا سبيل إلى الفكاك منها أو تلطيف آثارها ..

وهو ليس صراعًا بين « الحق » و « الباطل » .. كما ينبغى أن يكون الحال فى عالم « الإنسان » الذى كرمه ربه وعلاه ..

كلا ! إن الجاهلية لا تعرف « الحق والباطل » . فهى تسخر أيما سخرية من الحق والعدل الأزليين ! وإنما ترى الأمر صراعًا دائمًا بين مصلحة طبقة ومصلحة طبقة أخرى ، لا تقوّم بالميزان الأخلاقى ، ولا يقال لها حق وباطل . ولا يقال فيها إن هذه الطبقة أو الطائفة أو الفرد قد طغت لأنها تجاوزت « الحق » أو اعتدت على حدود الله التى بينها للناس .. وإنما كل طبقة على حق بالنسبة لذات نفسها ! وينشأ الصراع « الحتمى » من تناقض المصالح الذى لابد أن ينشأ « حتمًا » فيهدم النظام الذى بطلت منفعته (لمن ؟)

لا للبشرية ولا للحق والعدل الأزليين ، ولكن للطبقة التي أبرزها التحول الاقتصادى الجديد !

وحقا إن هذا هو الذى يحدث بالفعل .. فى الجاهلية ! تتصارع المصالح ، والغلبة لصاحب السلطان ! ثم تتم الغلبة ـ فى تصور الجاهلية الماركسية ـ لطبقة « البروليتاريا » فى آخر الأمر ، فتمحق جميع الطبقات ! وتكون هذه هى نهاية العالم !

وأما علاقات الجنسين فإن الفساد الذى أصابها كان أشنع فساد !

الجنس عملية « بيولوجية » لا علاقة لها بالأخلاق !

الجنس لا علاقة له بالأسرة !

الجنس هو التحقيق ـ الأكبر ـ لكيان الإنسان !

الجنس هو الموضوع ـ الأكبر ـ للفن !

الجنس هو « التحرر » !

الجنس مزاج شخصى لا يوصف بالشذوذ والاستواء . فمن أعجبه الوضع السوى فهو وشأنه ، ومن أعجبه الشذوذ فهو وذاك !

إلى عشرات من أمثال هذه الجاهليات ، التى تعمى كلها عن حقيقة الجنس ، ودوره الطبيعى « المتوازن » فى حياة الإنسان . ثم تؤدى إلى الفوضى الجنسية على أوسع نطاق شهده تاريخ الإنسان !

* * *

وأما الشعوب والقبائل ، المنحرفة عن منهج الله ، فقد تصورت علاقاتها فى إطار الغلبة والسيطرة على طريقة الحيوان . لا التقاء بينها إلا على الصراع .. وحين تلتقى فنى حدود الأرض « القومية » كما تلتقى البهائم على حظائرها ، أو فى حدود الجنس أو العنصر .. أو « المصلحة » المشتركة . ولا تلتقى قط ـ كما خلقها الله ـ على حقيقة « الإنسان » والمبادىء التى تليق بالإنسان !

* * *

تلك ألوان من التصور الجاهلى لعلاقات الإنسان ..

ولعل من الخير أن نختم الحديث عن الجهالة بالنفس البشرية ـ حقيقتها وعلاقتها ـ بفقرات من كتاب ألكسيس كاريل «الإنسان .. ذلك المجهول» ، وهو العالم المعاصر ، الذى يكتب من وحى «العلم» لا من وحى «الدين» :

«وفى الحق لقد بذل الجنس البشرى مجهودًا جبارًا لكى يعرف نفسه .. ولكن بالرغم من أننا نملك كثيرًا من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء ، وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمنة ، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا . **إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة مجهولة ..**

«وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة .

«فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب» .

ثم يعود فيشرح أثر هذا الجهل المطبق بحقيقة الإنسان على الحياة البشرية ، الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والفكرية .. الخ ، فيقول :

«وإن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا . لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ..

«وهؤلاء النظريون يبنون حضارات ـ بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان ـ إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهوشة للإنسان .

«يجب أن يكون الإنسان مقياسًا لكل شيء . ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه . إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية .. إننا قوم تعساء ، لأننا ننحط أخلاقيا

وعقليًا .. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ..! »[1] .

* * *

هذه خلاصة الفساد الذى أحدثته الجاهلية الحديثة فى تصورات الإنسان .

إنها لم تترك مجالاً من مجالات التصور بلا فساد .. وقد نشأت كلها من الانحراف الأعظم .. الانحراف عن عبادة الله .

وقد ظنت الجاهلية الحديثة ـ أكثر من أى جاهلية مضت ـ أن الدين مزاج شخصى لا علاقة له بواقع الحياة ، لأنه علاقة بين العبد والرب . وكان هذا ـ فى ذاته ـ انحرافًا جاهليا فى التصور . ولكن الواقع الذى شهدته أوروبا ، وشهده العالم الذى غلبت أوروبا عليه ، أن فساد العقيدة ، والانحراف عن عبادة الله ، لم يقبع فى داخل الضمير الفردى كما ظنت الجاهلية ، وإنما ألقى ظله على كل مناحى الحياة البشرية ، فلم يبق منها شىء لم يصبه الانحراف الفاسد بالفساد .

إن انحراف العقيدة لابد أن يفسد الحياة . لأن العقيدة ليست صلة بين العبد والرب منقطعة عن حقيقة الواقع . وإنما هى المشير الذى يوجه الحياة .. فحين يوجهها منذ البدء فى طريق فاسد ، فلابد أن يصيبها الفساد كلها ، وتذهب كلها شاردة فى التيه ..

ولقد رأينا كيف أفسد انحراف العقيدة تصورات البشرية .. ولكنه لم يكن فسادًا فى التصور وحده ! إنما هو ـ بصورة حتمية ـ فساد فى التصور . وفساد فى السلوك .

---

(١) تعريب شفيق أسعد . منشورات مكتبة المعارف ببيروت . ص ٤٣ ـ ٤٤ .

وفساد فى السلوك

حين انحرفت الجاهلية الحديثة فى عبادتها لله ، فلعلها لم تكن تتصور أن انحراف العقيدة سيؤثر حتمًا فى تصوراتها للكون والحياة والإنسان ! بل إنها ـ منذ البدء ـ لم تكن ترى فى عملها ذلك انحرافًا عن الصواب !

« إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون »(١) .

ولكنا رأينا فى الفصل السابق كيف تسرب هذا الانحراف فى العقيدة إلى كل تصورات الجاهلية ، فصارت كلها تصورات فاسدة لا تستقيم على منطق ، ولا تهتدى إلى حق ، وإنما تسيرها الأهواء ، حتى فى ذات « العلم » التجريبى ، الذى يظن كثير من الناس ـ بوحى الجاهلية ـ أنه بعيد كل البعد عن الأهواء ، وأنه المحك الصادق الذى يرجع إليه فى الأمور كلها ، فيبين الحق من الباطل .. بلا تحيز ، ولا ارتياب !

ولقد رأينا شهادات من « العلماء » أنفسهم تبين ما فى هذا الاعتقاد من زيف ، وتبين أن العلم لا يقطع ـ ولم يقطع قط ـ بحقيقة يقينية ! وأنه مجرد احتمالات ! وأنه يخضع لأهواء البشر وتصوراتهم ! وذلك كله فوق أنه لا يدرس إلا « ظواهر » الأشياء !

ولكن قومًا حسبوا ـ بتأثير الجاهلية كذلك ـ أن « التصورات » قد تنحرف ثم يستقيم « السلوك » .. فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والفن .. لأن « النظريات » شىء و « التطبيق » شىء آخر .

النظريات تحكمها أفكار الناس أو أهواؤهم . ولكن التطبيق العملى يحكمه « الواقع » و « التجربة » وتقوم عليه التنظيمات التى تصحح منه ما يفسد أولاً بأول . فيصلح ويستقيم !

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا »(٢) .

---

(١) سورة الأعراف [٣٠] .
(٢) سورة الكهف [١٠٣ ـ ١٠٤] .

وقديمًا قال القائل : «وهل يستقيم الظل والعود أعوج ؟ !» .

* * *

إنه وهم آخر من أوهام الجاهلية !

وهمٌ يغرى به ما يقع فى هذه الجاهلية من خير ظاهرى ، وعدالة جزئية تصيب بعض الناس فى بعض الأمور ! فيظنون أن الأمور كلها على ما يرام !

ولقد أبرزنا من قبل كيف أن الجاهلية ـ أى جاهلية ـ لا يمكن أن تخلو من نفع يخدع الناس فيحسبون أنه خير ! وهو خير زائف لأنه لا يستمد من معين الخير الحقيقى . ولا يسير على الطريق الواصل ! وأبرزنا كذلك أن فتنة هذه الجاهلية الحديثة هى الضخامة فى الحصيلة العلمية . والضخامة فى تيسيرات الحياة التى تخدع الناس بصورة الخير الظاهرى . حتى ليخيل إليهم أن الخير هو الغالب . وأن الأمور على ما يرام !

ذلك أنهم ـ بوسائل شيطانية ضخمة كذلك ـ قد ضُللوا عن حقيقة الشر الذى يعيشون فيه !

ولو أدركوا ضخامة هذا الشر . ومقدار الفساد الذى يحدثه فى واقع حياتهم ، لأدركوا أن كل «الخير» الذى تطنطن به الجاهلية الحديثة لتوارى سوآتها .. لا يزيد على فتات ! وأنه خير ضائع فى خضم الشر الذى تمور به الأرض .. بل لأدركوا أن الحياة البشرية ذاتها ـ حياتهم ـ مهددة بالدمار من ضخامة هذا الشر وعنفوانه ، وضخامة تمكنه من الحياة الواقعية للناس !

إن هذا الشر ليس فى شىء دون شىء !

إنه ليس فى «الفساد الخلقى» وحده . كما يظن الذين يدافعون عن الجاهلية الحديثة ، ويحاولون أن يهوّنوا من شرورها ، بأنها محصورة فى «شىء» من التحلل الخلقى ، ولكن الحياة فى بقية الميادين سليمة ، بل رفيعة ، بل رائعة !.. بل هى القمة التى لا مطمع لطامع بعدها فى مزيد !

كلا ! إنه شر شامل .. يشمل كل مناحى الحياة !

وسنبين بالتفصيل فى هذا الفصل كيف امتد الفساد وكيف فعل : فى السياسة . والاقتصاد . والاجتماع . والأخلاق . وعلاقات الجنسين . والفن . فى كل شىء على الإطلاق .

ولكنا قبل هذا التفصيل نذكر حقيقة بديهية ـ أو ينبغى أن تكون كذلك : أنه لم يكن فى الإمكان أن تفسد التصورات كلها على هذا النحو .. ثم يستقيم السلوك .

كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

إن الجاهلية الحديثة ـ بوسائل إعلامها الضخمة التى تتزايد ـ عن عمد ـ كل يوم ـ حاولت أن تصرف الناس عن انحرافات التصور ، بأن تصور لهم السلوك الواقعى الذى يعيشونه على أنه قمة الصواب !

فإذا ساور الناس شك فى بعض الأمر .. أن هذا يخالف ما قال به «الله» . أو ما يقضى به «الحق والعدل» . أو ما تقتضيه «الأخلاق» . سارعت الجاهلية بالجواب الجاهز ، تذيعه بكل ما تملك من وسائل الإعلام ..

إنه التطور ... !

ألا تعلم ذلك ؟! هل أنت غافل عن التطور ؟ هل أنت لا تعيش فى القرن العشرين ، بعقلية القرن العشرين ؟! أم ماذا ؟! أم أنت رجعى ؟! يا للداهية السوداء ! كل شىء إلا الرجعية ! ! اوع ! ! إن كل شىء فى الوجود محتمل ، إلا أن تكون رجعيا فى القرن العشرين ! !

* * *

بهذه الوسائل ـ الضخمة ـ التى تملكها الجاهلية الحديثة .. بوسائل الإعلام ، من صحافة ، وإذاعة وسينما وتليفزيون .. تحطم الجاهلية كل محاولة لبيان ما فى هذه الجاهلية من شر ضخم متكتل يخنق أرواح الناس !

يكفى أن تطلق هذه القذيفة فى وجه كل إنسان يريد أن يرد الناس إلى الحق ، ويوقظهم إلى انحراف واقعهم :

الرجعية ... !

ويكفى أن تضع هذا السلاح فى يد كل مقاتل يعمل لقتل الحق والخير والعدالة :

التطور ... !

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد «البسيط» رغم خطورته .. إنما تقوم الجاهلية

بتعقيد الأمر حتى يختلط الحق بالباطل . ويختلط الأمر على المظلومين أنفسهم فيحسبون أنهم يعيشون فى عدالة ! والمضللين أنفسهم فيحسبون أنهم مهتدون ! والواقع بهم الشر . فيحسبون أنهم فى خير عميم !

إن هذه الجاهلية أوعر وأخبث وأعنف جاهلية مرت بالبشرية فى التاريخ !

* * *

ولكن الأمر ـ مع ذلك ـ لا يستعصى على البيان !

إن الواقع له ثقله . والحق له ثقله ..

إنه لا يمكن لأية جاهلية ـ مهما أوتيت من سلطان ـ أن تحجب الحق إلى الأبد عن الناس .

ولقد بدأت البشرية فعلاً تفيق من هذه الجاهلية كما سنتبين فى أثناء الحديث .

بدأ قوم ـ متفرقون ـ يحسون بعظم الشر الذى تحدثه الجاهلية فى حياة الناس .

ولن تكون المهمة سهلة .. ولن تكون سريعة المفعول . فعلى قدر ضخامة الجاهلية وضراوتها ستكون معركة الحق مع الباطل . ويكون الجهد المطلوب .

ولكن شيئًا معينًا ينبغى أن نعرفه ونؤمن به : إن ضخامة الباطل لا تقلبه حقا ! وضخامة الشر لن تحوله إلى خير !

وفى اطمئنان لهذه الحقيقة نمضى فى بيان الفساد الذى أحدثته الجاهلية الحديثة فى السلوك . كما بينا من قبل الفساد الذى أحدثته فى التصورات .

ولئن كان فساد التصور قد شمل تصور الإنسان للحقيقة الإلهية ، وتصوره للكون والحياة والإنسان . وارتباطاتها كلها بعضها ببعض . فالفساد فى السلوك قد شمل مناحى الحياة كلها . فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن .. ولكل من هذه بيان .

فى السيــاسـة ..

هذا العصر هو عصر «التحرر» .. ومع ذلك فقد شهد أبشع دكتاتوريات التاريخ !

فى وقت من الأوقات كان الإقطاع هو السائد فى أوروبا .. وكان يستعبد الناس للأرض عبودية حقيقية . بمعنى أن الإنسان لا يحق له أن يغادر الأرض إلى أرض أخرى ، وإلا اعتبر آبقًا . ورده «القانون» بالقوة إلى الأرض التى أبق منها ، موسومًا مكويا بالنار ، لأنه تجرأ فخرج على «الإله» الصغير صاحب الإقطاعية الذى يستعبده لنفسه ويربطه كذلك بالعبودية للأرض . وكان صاحب الإقطاع هذا هو الذى يحدد للعبد الذى يزرع الأرض المقدار الذى «يحوزه» من الأرض ليعيش عليه . ولكنها حيازة غير كاملة . فهى أشبه بالأرض المحددة للبهيمة ترعى فيها الحشائش لتعيش ، وتدر اللبن والسمن ، وليس لها أن تتجاوزها ، لأنها مربوطة فيها بالقيد .

«ونظام الإقطاع عبارة عن أسلوب من الإنتاج الصفة المميزة له هى التبعية الدائمة Serfdom . ويعرفونه بأنه نظام فى ظله يلتزم المنتج المباشر نحو سيده أو مولاه بأداء مطالب اقتصادية معينة ، سواء أكانت تلك المطالب تؤدى على هيئة خدمات يقوم بها ، أم على شكل مدفوعات (أو استحقاقات) يؤديها نقدًا أو عينًا .

«ولتوضيح ذلك نقول إن المجتمع الإقطاعى كان ينقسم إلى طبقتين :

«الأولى وتشمل ملاك الأبعاديات الإقطاعية» .

والثانية وتتكون من المزارعين على اختلاف مراتبهم . فنهم الفلاحون والعمال الزراعيون والعبيد ، وإن كان عدد الآخرين ظل يتناقص باطراد وسرعة . فهؤلاء الفلاحون ، أى المنتجون المباشرون ، لهم الحق فى حيازة مساحة من الأرض يعتمدون عليها بوسائلهم فى كسب معاشهم وإنتاج ما يلزمهم من أسباب العيش ، كما يمارسون فى بيوتهم الصناعات البسيطة التى تتصل بالزراعة . ولكنهم مقابل ذلك يلزمون بأمور عدة مثل الخدمة الأسبوعية فى أرض الشريف مع آلاتهم وماشيتهم ، والخدمة الإضافية فى المواسم الزراعية ، وتقديم الهدايا فى الأعياد والمناسبات الخاصة ، وعليهم كذلك أن يطحنوا

غلالهم فى المطاحن التى يقيمها الشريف وأن يعصروا كرومهم فى معصرته .

«وكان الشريف يمارس أمور الحكم والقضاء . **أى أنه يشرف على تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية بالنسبة لأهل منطقته .**

«... غير أن هذا المنتج المباشر فى ظل النظام الإقطاعى لم يكن حرا بالمعنى الذى نعرفه فيما بعد ، فهو لا يملك الأرض ملكية كاملة ، ولا يستطيع التصرف فيها بالبيع والتوريث والهبة . وكان يؤدى أعمال السخرة فى أرض الشريف الخاصة رغمًا عنه وضد مصلحته . وعليه أن يؤدى ضريبة ـ غير محدودة المقدار ـ اعترافًا بعلاقة التبعية ، وهو ينتقل مع الأرض إذا ما انتقلت هذه من يد إلى أخرى . وليست له الحرية المطلقة فى مغادرة مكان العمل أو الالتحاق بخدمة سيد آخر . فهو إذن يمثل حلقة متوسطة بين العبد فى العصور القديمة والمزارع الحر فى العصر الحديث»[1] .

تلك هى الصورة البشعة التى كانت تعيشها أوروبا فى جاهلية العصور الوسطى ، بحراسة الكنيسة الأوروبية لهذه الأوضاع ! وهى الصورة التى لم يعرفها العالم الإسلامى ـ قط ـ وهو مسلم ! رغم كل ما أصابه من انحراف جزئى فى سياسة الحكم والمال ! فقد كانت شريعة الله النافذة ـ ولو جزئيا ! ـ فى واقع الأرض ، تحول دون هذا الظلم الكافر الذى لا يحكم بما أنزل الله ، وإنما يحكم «بعدالة» القانون الرومانى الشهير.. !

وجاء الوقت الذى آذن فيه الإقطاع بالإنهيار . لا لأن ضمير أوروبا أوجعها ! فضمير الجاهلية لا يوجعها قط ! ولكن ـ حسب التفسير المادى للتاريخ ـ وهو صادق أشد الصدق فى تفسير جاهلية البشر عبر التاريخ ـ انهار الإقطاع لأن «طورًا» اقتصاديا جديدًا نشأ على مولد الآلة .

الطبقة الصاعدة ـ بحكم التحول المادى ـ تهدم الطبقة التى أدت دورها ـ بحكم الظروف المادية ـ وأصبحت «واجبة» التحطيم ، ومن ثم «حتمية» الانهيار !

وهذا التحول **المادى ـ الطبقى** ، لا مكان فيه للحق والباطل فى رأى زبانية التفسير المادى للتاريخ !

---

(١) عن كتاب «النظام الاشتراكى» تأليف راشد البراوى .

إن الإقطاع لا ينهار ـ أو لا ينبغى أن ينهار ـ لأنه ظالم . وإنما لأنه أدى دوره المادى ـ الطبقى . والنظام الجديد ـ أى نظام جديد ـ لا يقوم ـ أو ينبغى أن يقوم ـ لأنه يمحو الظلم الماثل . ولكن لأن دوره المادى ـ الطبقى قد حل . أى أنه حلت «حتميته التاريخية» !

ولا تفرق المادية التاريخية بين «الطور» الاقتصادى الناشىء من تعديل أساليب الإنتاج . وبين «الطبقة» التى تحكمه . وتستغله . وتكون هى سيدته . لأنه فى الجاهلية ـ الواقعية والتفسيرية معًا ـ لا يحكم الناس بما أنزل الله . وإنما يحكمون بأهوائهم . ومن ثم تكون «الطبقة» المالكة هى الحاكمة المسيطرة المستغلة . ويتبادل الناس الظلم على مدار «الأطوار» !

ولا تستطيع الجاهلية ـ الواقعية أو التفسيرية ـ أن تتصور حالة ينتقل فيها الاقتصاد من طور إلى طور ـ انتقالاً طبيعيا بحكم ما يطرأ على أساليب الإنتاج من تغير علمى ـ دون أن يكون فيه استغلال من طبقة لطبقة . لأنهم ـ فى جاهليتهم الطويلة المستمرة ـ لم يذوقوا قط كيف يكون الحكم بما أنزل الله . وكيف يصرّف هذا الحكم الأمور بالحق والعدل . بصرف النظر عن الطور الاقتصادى . لأنه ليس مقصورًا على طور دون طور . وليس مفصلاً على قد حالة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية معينة . وإنما هو مفصل على قد «الإنسان» . أيًّا كان طور «النمو» الذى يصل إليه الإنسان .

* * *

أيًّا كان الأمر . فقد انهار الإقطاع الأوروبى على مولد الآلة . وبدأ تحول جديد فى المجتمع .

احتاجت المصانع إلى عمال . ولا مورد لهم إلا من الريف . فلزم إذن تحطيم الإقطاع الذى يربط الفلاحين بالأرض . ليتمكنوا من «التحرر» من ربقة الأرض . والانتقال من الريف إلى المدينة حيث العمل الجديد[1]

---

(١) هكذا يقول التفسير المادى للتاريخ . ويغفل أن الفلاحين قد بدأوا يثورون فى أوروبا فى القرن الثالث عشر على هذه العبودية الظالمة بحكم «الفطرة» التى قد تصبر طويلاً على الظلم ولكنها تلفظه ذات يوم بالضرورة . ولو لم يكن هناك أى تحول فى أساليب الإنتاج . فعندما بدأت حركة «فرار الفلاحين» فى القرن الثالث عشر لم يكن «الطور» المادى الجديد قد ولد بعد .

وتحرر الناس فعلاً من عبودية الأرض ، وانتقلوا من عبودية الريف إلى «حرية» المدينة .

هكذا خيل إليهم فى بادىء الأمر !

خيل إليهم أنهم قد حطموا القيود كلها التى كانت تكتفهم ، وأنهم اليوم طلقاء ، يصنعون ما يشاءون ! ذلك انهم ـ وهم ينتقلون من طور جاهلى إلى طور جاهلى آخر ـ لم يكونوا بعد قد رأوا قيود العبودية الجديدة التى تتربص بهم ، وتنتظرهم حتى يصلوا ـ بأرجلهم ـ إليها !

يقول التفسير المادى للتاريخ إن «الطبقة» الجديدة التى خلقتها الآلة ، وانتقال عملية الإنتاج من صورته الإقطاعية إلى صورته الرأسمالية ، هما اللذان أحدثا العبودية الجديدة التى أخذت تضيق حلقاتها رويدًا رويدًا حتى أطبقت على أنفاس الناس .

ولكن الأمر أعمق من هذا الوجه الظاهر الذى يقرؤه التفسير المادى للتاريخ ، ويزعم أنه قد وصل به إلى اللباب . وأنه وصل به إلى الإعجاز فى التفسير !

إن حقيقة الأمر أن الجاهلية الجديدة ـ التى لا تحكم بما أنزل الله فى ظل الرأسمالية ـ هى مجرد امتداد للجاهلية القديمة التى لم تكن تحكم بما أنزل الله فى ظل الإقطاع .

إنها شهوة واحدة «متطورة» وهوى واحد يتتبع المنفعة على حساب «الكادحين» .

إنه الطاغوت الذى يوجد فى كل جاهلية . ويتحكم فى الناس بهواه . مادام الناس لا يحكمون بما أنزل الله !

ولقد وجد هذا الطاغوت فى العالم الإسلامى ولا شك .. بمقدار ما انحرف الناس عن منهج الله . ولكنه لم يستطع ، والناس يحكمون بشرع الله ـ ولو على فساد ! ـ أن يستشرى كما استشرى فى أوروبا حتى يقلب حياة الناس إلى جحيم .

لم يحدث فى الإسلام الإقطاع الذى حدث بصورته البشعة فى أوروبا . وكان الإسلام حريًا كذلك أن يحد من طاغوت الرأسمالية كما حد من طاغوت الإقطاع من قبل ، مادام الناس يحكمون بشرع الله . ولو على فساد جزئى ! (١)

---

(١) راجع فى كتاب «الشبهات» فصل «الإسلام والرأسمالية» .

ولكن .. فلنعد إلى أوروبا . إلى الجاهلية المتصلة الحلقات .

لم يكن الذى حدث «تطورًا اقتصاديا حتميا» ـ كما تتصوره الجاهلية الماركسية . وإنما كان الطاغوت ينقّل خطاه عبر التاريخ ، فيستغل التطور الجديد فى أساليب الإنتاج ليواصل طغيانه ، واستعباده للناس .

ولم يكن ذلك حتمًا .. إنما كان فقط نتيجة طبيعية للظروف القائمة .. أو أنه كان حتمًا من وجهة واحدة : فمادام الناس لا يحكمون بما أنزل الله ، فالبديل الوحيد هو أن يحكمهم الطاغوت ، ويذيقهم العبودية والهوان .

وليس يمنع أن الطبقة الرأسمالية الصاعدة قد تصارعت مع الطبقة الإقطاعية المنحدرة لتأخذ منها السلطان .. ليس يمنع ذلك أن يكون الطاغوت هو الحاكم فى الحالين ! فالطاغوت ليس شخصًا معينًا بذاته ، أو طبقة معينة . إنما الطاغوت سلطان غاشم ، يتلقفه من يتلقفه من الناس فيستعبدون به سائر الناس .. وقد يصطرعون فيما بينهم عليه حتى يخلص فى يد الفئة التى تخدمها الظروف الاقتصادية . كما اصطدمت قريش مع غيرها من القبائل ـ الضالة مثلها ـ فى الجزيرة حتى خلص لها وحدها سلطان الطاغوت ، وصارت ـ بظروفها الاقتصادية ـ هى التى تملك وتحكم ، وتستعبد الناس بشتى فنون الاستعباد !

والتفسير المادى للتاريخ لا يفسر إلا ظروف انتقال السلطة من الطاغوت إلى الطاغوت ! ولكنه لا يتعمق فى التفسير ليعلم أسباب وجود الطاغوت ذاته ، ويعلم أنه ليس حتمى الوجود فى الأرض .. إذ أراد الناس !

إنه تفسير جاهلى .. يفسر الجاهليات !

* * *

لم تكن العبودية الجديدة واضحة السمات فى مبدإ الأمر .. إنما كان الوجه الظاهر هو التحرر .

تحرر العمال من ربقة الأرض ..

وتحرر الشعب من ربقة الإقطاع ..

وحدثت تحولات سياسية واجتماعية تتسم بطابع التحرر .. تحولات اسمها : الديمقراطية !

والواقع أن الجاهلية الجديدة قد أتاحت قدرًا من التحرر النسبي ، وقدرًا من الخير النسبي ، ضلّل الناس كثيرًا عن العبودية الحائقة بهم بالفعل ، التي كانت تستعبدهم ـ رويدًا رويدًا ـ للطاغوت الجديد .

حين تأخذ شخصًا لم يكن يملك أن يغادر أرضه بصورة قانونية ، وتشده القيود المادية والمعنوية إلى الأرض .. وحين تأخذ شخصًا يفرض عليه المجتمع الذى يعيش فيه قيودًا أخلاقية معينة (سواء كانت صالحة أو فاسدة) لا يملك أن يخرج عليها وإلا قوبل بالاستنكار من الجميع (ولو كانوا لا يؤمنون فى دخيلة أنفسهم بقيمة هذه القيود !) .. وحين تأخذ شخصًا يركبه سلطان الكنيسة المطبق فلا يملك الخروج عليه وإلا عد مارقًا من الدين ، وحقت عليه لعنة اللاعنين ..

حين تأخذ هذا الشخص وتقذف به إلى المدينة ، يتجول حرا فى طرقاتها بلا رقيب .. ويعيث فيها فسادًا خلقيا ـ أو تحررًا ـ دون رقيب .. وينخلع من سلطان الكنيسة دون أن يحفل الاتهام بالمروق ..

حينئذ لابد أن يشعر أنه تحرر !

على أن الأمر كان يشتمل على حريات حقيقية لم يكن لها وجود من قبل .

حرية التنقل . حرية العمل . حرية الاجتماع . حرية الكلام . حرية الصحافة .. وضمانات لم يكن لها وجود من قبل ..

ضمانات الاتهام . وضمانات التحقيق . وضمانات القضاء .

حريات وضمانات حقيقية .. لابد أن يشعر معها المرء أنه تحرر !

ثم .. البرلمان ..

انتخابات «حرة» .. تمثيل شعبي .. حكومة تمثل «الشعب» .. وتحكم بإرادة الشعب !

لابد أن «الإنسان» كله قد تحرر !

* * *

كانت تلك هى «الأوهام» المعسولة التى عاشت فيها الجاهلية الجديدة فى عصر الرأسمالية !

ظاهرها كله جميل .. جميل إلى حد لا يوصف !

ويجىء العلم والتقدم المادى فيكمل الصورة .. إن «الإنسان» لم يتحرر من عبودية الأرض فحسب . ولا من قيود الأخلاق فحسب . ولا من سلطة الكنيسة فحسب . ولا أصبح له سلطان نيابى وتشريعى فحسب .. وإنما هو يتحرر كذلك من «الجهد» .. فالعلم والتقدم المادى يطلقان الطاقة البشرية المكبلة بالعمل ، ويحمّلان الآلة كثيرًا من الجهد الذى كان يقوم به الإنسان .. لينطلق هذا الأخير خفيفًا - ناشطًا - متطلعًا بطاقته المذخورة إلى الحياة !

ولسنا هنا نتكلم عن أىٍّ من الانحرافات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الفكرية التى صاحبت هذه الجاهلية الجديدة ، إنما نحن الآن نتحدث عن «السياسة» وحدها (وإن كانت الحياة فى واقع الأمر متشابكة مترابطة ، لاتوجد فيها السياسة منفصلة عن الاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتفكير.. الخ - لأن النفس البشرية والحياة البشرية لاتتجزأ ولاتنفصل .. ولكننا نقوم بهذا الفصل لضرورة البحث فقط .. من أجل التوضيح) .

فى السياسة لم تصخ الجاهلية الجديدة- المنفلتة من سلطان الكنيسة (وسلطان الله) - إلى أنها وهى تحكم «بإرادة الشعب !» إنما تحكم بوهم لا وجود له فى الواقع ! وأنها - وهى لا تحكم «بما أنزل الله» - فليس أمامها إلا طريق واحد .. هو أن تحكم بإرادة الطاغوت !

«إرادة الشعب» كانت الوجه الظاهر المزيف للجاهلية الجديدة ..

و «إرادة الطاغوت» كانت الوجه الحقيقى لهذه الجاهلية النكراء !

وصدق التفسير الجاهلى للتاريخ ، وهو يفسر تاريخ الجاهليات : الطبقة التى تملك هى التى تحكم . وهى تحكم لصالحها على حساب بقية «الطبقات» !

فمن وراء هذه التشكيلات كلها .. الانتخاب والبرلمان والحكومة البرلمانية والدستور .. إلخ ، كان يحكم الطاغوت !

ولم تكن الأمور واضحة فى مبدأ الأمر كل الوضوح ..

كان «الطيبون» المخدوعون فى الجاهلية الجديدة يحسبون أنهم يبنون الحياة على نسق فاضل ، صاعد ، رفيع .. جدير بكرامة «الإنسان» !

وكانت «المظاهر» تملى لهم فى هذا الظن ..

أو ليسوا هم ــ الشعب ــ هم الذين ينتخبون ممثليهم ؛ وممثلوهم هؤلاء لابد أن يشرعوا بإرادتهم . ولصالحهم ؟

ولكن الحقيقة أن الذى كان يحكم هو طاغوت رأس المال ..

ولقد أصبحت القضية اليوم معروفة بصورة لا تحتاج إلى كثير بيان .. فقد قيل عن الرأسمالية فى السنوات الأخيرة فى كل بقاع الأرض ــ وبجميع وسائل الإعلام ــ ما يكفى لبيان شرورها وطغيانها وفسادها . وبيان مدى استغلالها لسلطان الحكم فى تنفيذ مآربها الخاصة ، وامتصاص دماء «الكادحين» .. وتحولها فى نهاية الأمر إلى الإرهاب السافر .. ضد المطالبين بالحرية الحقيقية ، والعدالة الحقيقية ، وانتزاع السلطان من الطاغوت ..

وتلك أمثلة «خفيفة» .. تكفى !

«وإنا لذاكرون ما حدث فى الإضراب العام بانجلترا عام ١٩٢٦ إذ سيرت الحكومة كل قواها لقمعه . وأعلن قانون الرأسماليين أن الإضراب غير دستورى . وزحفت فصائل الشرطة وكتائب الجيش لقمعه ، تحميها الدبابات وسخرت شتى وسائل النقل لكسر الإضراب ، ودعى الشبان من طلبة الجامعات لقيادة مركبات النقل العامة . واستخدمت الإذاعة والصحف ، وجعلت الحكومة من نفسها خادمًا لأصحاب الأعمال . وتهددت النقابات باستصفاء أموالها وسجن زعمائها ..» .

ذلك فى إنجلترا .. أم الديمقراطية .. والكلام على لسان رجل إنجليزى .. لا رجل من أعداء الإنجليز(١) .

أما فى أمريكا فالأمر أبشع .. فهناك عصابات من «البلطجية» المحترفين تعمل فى خدمة «الديمقراطية» لتأديب الخارجين على سلطان رأس المال ، وسجنهم وتعذيبهم ، وقتلهم أحيانًا إذا لزم الأمر :

---

(١) هنرى نويل برايلز فورد . ترجمة عصام الدين حفنى ناصف .

يقول هارولد لاسكى فى كتاب «تأملات فى ثورات العصر» :

«ومن الضرورى أن يقرأ المرء تفاصيل وثيقة مثل تقرير لجنة «لافلوت» التى عينها مجلس الشيوخ الأمريكى لبحث موضوع التدخل فى الحريات المدنية ليصل إلى وجهة نظر صحيحة عن مدى ما بلغه هذا التدخل .

«وإن الرشوة والجاسوسية والتهديد و «البلطجة» وسوء الاستغلال المتعمد للقضاء فى أعلى مراتبه ، وفى المحاكم الاتحادية الثانوية .. هذه كلها ليست سوى أشكال وفئات من التصرفات التى تعودها زعماء رجال الأعمال فى أمريكا .

«وإن أكثر الاتحادات الصناعية الكبرى هناك ، لتملك جيوشها الخاصة المسلحة بالبنادق السريعة الطلقات ، وقنابل الغازات المسيلة للدموع ، لتمنع النقابيين من غزو مصانعها !

«وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مناطق فى الولايات المتحدة مثل «لويزيانا» فى عهد سناتور «لونج» ومثل «جيرسى» فى عهد العمدة «هاج» ومثل الوادى الإمبراطورى فى «كاليفورنيا» .. كل هذه البقاع ـ وهذه أمثلة منها ـ لم يكن فيها لإعلان الحقوق الأمريكى سلطة إزاء إصرار رجال الأعمال على جمع كل الامتيازات فى أيديهم بواسطة حيازتهم المطلقة لقوى الاقتصاد .

«وفى اعتقادى أننا لا نغالى فى حكمنا إذا قلنا إنه حتى سنة ١٩٤٠ كانت الفكرة الفاشية قد توغلت عميقًا فى أذهان رجال الأعمال الأمريكيين تحت ستار قبولهم الظاهرى للمبادىء الديمقراطية ..»[1] .

على أن الأمر ـ فى أمريكا ـ لا يحتاج إلى شهادة الكتاب والمؤلفين .. فقد وصلت روح «البلطجة» بالرأسمالية الأمريكية إلى حد أن ترتكب جرائمها عيانًا فى وضح النهار ، فى أغرب قضية اغتيال فى التاريخ : حيث قتل الرئيس الأمريكى كنيدى إرضاء للرأسمالية الوالغة فى الدماء ـ التى كانت تخشى أن يؤدى اتجاه كنيدى السلمى إلى تخفيف حدة التوتر العالمى ، وبالتالى إلى تحويل الصناعة عن الإنتاج الحربى إلى الإنتاج المدنى ، الذى لا يحقق الأرباح البشعة التى يحققها الرأسماليون من صناعة الحرب ! ـ ومن ثم

---

(١) تأملات فى ثورات العصر ـ هارولد لاسكى ـ ترجمة عبد الكريم أحمد ص ١٨٤ .

قتلت كنيدى فى وضح النهار ، ثم عبثت بقضية اغتياله عبثًا شائنًا لا يحدث فى أمة بدائية ! وعملت بكل الوسائل على تلهية الناس عن القضية والتحقيق ! !

وهذا كله غير جرائم الرأسمالية الأخرى ، فى إفساد الأخلاق ، وفى التحكم فى أرزاق الناس ، وفى التوسع الاستعمارى لاستعباد شعوب الأرض و . و ..

إنها حقيقة واحدة بارزة . هى أن « الديمقراطية » المزعومة قد تحولت إلى « دكتاتورية » رأس المال . تحولت إلى طاغوت يستعبد الناس ويذل له الرقاب !

* * *

ولا تصدق الجاهلية أن هذا وقع بسبب الانحراف عن منهج الله ! فهى من الأصل لا تعرف منهج الله ولا تعترف به ، وتعيش حياتها منقطعة عن الله ووحيه . ولا ترى الأمور إلا فى نطاقها الضيق المحصور فى صراع الأرض ، وصراع المصالح . وصراع الطبقات ..

لا تصدق الجاهلية أن الله — سبحانه وتعالى — حين حرم — فى منهجه الربانى — الربا والاحتكار .. كان يعلم من أمور الناس ما لا يعلم الناس . وكان يريد لهم من الخير ما لا يعرفون هم أنه الخير .. وكان يضع لهم المنهج الذى تتوازن فيه المصالح ، ويقوم فيه العدل ، ويمتنع الطغيان .

وهنا — فى باب السياسة — لا نتحدث عن الربا بالتفصيل ، فكان ذلك هو الحديث عن الاقتصاد . ولكنا نقول فقط : إن دكتاتورية رأس المال الطاغية ، التى أذاقت البشرية ويلاتها ، لم تكن لتقوم أصلاً لولا الربا والاحتكار . عمادا الرأسمالية وسنادتاها ، وهما هما المحرمان فى منهج الله ! فالحكم بما أنزل الله إذن كان هو السبيل إلى الحيلولة بين الطاغوت ورقاب الناس ، فى عالم السياسة والاقتصاد سواء .

* * *

ثم نمضى خطوات أخرى مع التاريخ ..

فحين اشتد طغيان رأس المال . فزع الناس .. وقاموا يصارعون .

ولكنهم ـ وهم يصارعون ـ كانوا ما يزالون فى الجاهلية ، بعيدًا عن منهج الله . ومن ثم فإنهم وهم يتفلتون من قبضة الطاغوت فى عسر شديد وحرج بالغ ، لم يفيئوا إلى الظلال الندية والظلة المريحة بعد طول العذاب .. وإنما تلقفهم ـ على مقربة منهم ـ طاغوت آخر ، لا يخفى وجهه بالديمقراطية هذه المرة ، وإنما يسفر عن وجهه واضحًا ، فيسمى نفسه منذ البدء « دكتاتورية » البروليتاريا .

من دكتاتورية رأس المال ، إلى دكتاتورية البروليتاريا !

من الطاغوت .. إلى الطاغوت ! بعيدًا عن منهج الله !

والتفسير الجاهلى للتاريخ يدور دورة واسعة مع الأسباب والنتائج ، وصراع المتناقضات الحتمى ، ليصل إلى تفسير الشيوعية وحتميتها التاريخية فى هذه اللحظة .. ثم يحلم ـ وهو التفسير « الواقعى ! » ـ على دخان لا يفترق كثيرًا عن دخان الحشيش والأفيون ـ باليوتوبيا المقبلة فى ظل « دكتاتورية البروليتاريا » ، وبالنعيم الأرضى الموعود ، بعد تذبيح جميع الطبقات ليخلو الجو « لطبقة » البروليتاريا !

* * *

يحدث صراع حتمى بين العمال ورأس المال ..

لا باسم الحق والعدل الأزليين ـ اللذين يسخر منهما فردريك إنجلز ـ ولكن باسم حتمية صراع المتناقضات !

وتحاول الرأسمالية أن تسحق طبقة العمال بكل وسائل السحق ، التشريعية والقضائية والتنفيذية .. ولكن الحتمية لابد أن تقع فى النهاية ، ويتغلب العمال ، ويستولوا على السلطة ، ويقيموا دكتاتورية البروليتاريا ، التى تلغى الملكية الفردية لأدوات الإنتاج ، وتحل محلها الملكية الجماعية ، وتمحق الطبقات التى ـ كانت ـ مستغلة ، وتقيم حكمها لصالح البروليتاريا (لا لأن ذلك هو الحق والعدل ! ولكن لأنها أصبحت هى الطبقة الحاكمة ! !)فتأخذ من كل بقدر طاقته وتعطى كلا بقدر حاجته .. ثم .. فى النهاية تذوب الدولة ذاتها وتصبح غير ذات موضوع ، ويتحقق عندئذ النعيم الموعود .. على دخان الحشيش والأفيون !

وبصرف النظر عن مجموعة « الأساطير » التى يحملها التفسير الجاهلى للتاريخ فى هذا

الموضوع .. إذ تنبأ ماركس بقيام الشيوعية فى انجلترا أول ما تقوم لأنها كانت ـ فى نظره ـ أعلى دولة مصنعة فى أوروبا ، حيث «يتحتم» فى نظره أن يقوم الصراع الذى يؤدى إلى تسلم العمال السلطة وسحق الرأسمالية . بينما قامت الشيوعية فى الواقع فى أكثر مناطق العالم تأخرًا من الناحية الصناعية ـ روسيا ثم الصين ! ـ وبقيت انجلترا رأسمالية إلى هذه اللحظة فى القرن العشرين بعد تنبؤات ماركس بثمانين سنة ! بالإضافة إلى «تخريفات» التنبؤ بالمستقبل البعيد الذى تمحى فيه الدولة وينعدم السلطان . وينقلب الناس إلى ملائكة مطهرين لا يثور فى قلوبهم غل ولا مطامع ولا شهوات ! ! وبالإضافة إلى أن التجربة العملية فى الشيوعية قد ارتدت فى أربعين عامًا فقط من حكمها عن كثير من مبادىء اللينينية الاستالينية ، إذ أباحت قسطًا من الملكية الفردية ـ فى حدود ـ وأباحت التفاوت فى الأجور ، وصارت تندد بضعف الإنتاج فى المزارع الجماعية مما يوحى بعزمها على إرجاع الملكية الفردية للأرض .

بصرف النظر عن هذه الأساطير كلها ، فإننا هنا نتحدث عن الجانب السياسى وحده من الموضوع . نتحدث عن «دكتاتورية» البروليتاريا .

لا نحتاج نحن أن نتكلم !

يقول خروشوف فى تقرير اللجنة المركزية أمام المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى :

«فيما مضى ، فى عهد الفرد [أى فى عهد ستالين] انتشرت سمات فاسدة فى قيادة الحزب والدولة والاقتصاد . هى القيام بإصدار الأوامر ، وطمس النقائص ، والعمل بحذر ، والخوف من الجديد وفى تلك الظروف ظهر عدد غير قليل من المتملقين والمهللين والمموهين» .

وليس ببعيد عن ذاكرة الناس ما وصفت به الصحف الروسية ستالين ـ بعد أن مات ! ـ من أنه ـ سفاح . قاتل . مجرم . خائن للمبادىء الاشتراكية .. الخ .

إن الدكتاتورية ـ فى دكتاتورية البروليتاريا ـ تصل فى عنفها وقساوتها ووحشيتها إلى أقصى ما يصل إليه خيال الإنسان ..

الاعتقال ـ إلى غير مدى محدد ـ والتعذيب الوحشى الذى تنفر مشاعر «الإنسان» حتى من تصوره . والمحاكمات الصورية التى تنتهى بالإعدام أو السجن مدى الحياة ..

كلها إجراءات «عادية» تمارس على نطاق واسع مع كل من تحدثه نفسه بالخروج على «الزعيم المقدس» وسلطانه الذى يجرى بلا حدود .

والحكم البوليسى ، الذى يقوم على الجاسوسية والإرهاب ، هو الوسيلة «العادية» لحكم الدولة .

والرعب الدائم ، المذل لكرامة الإنسان ، هو الوضع «العادى» للفرد .

وذلك كله ، تحت ستار مظهرى ، من «الانتخابات» والمجالس النيابية ، والتمثيل الشعبى ، ومجالس السوفييتات .. وما لا أول له ولا آخر من العنوانات !

والصحافة ـ الحرة ! ـ تقوم بتمجيد الزعيم «الأوحد» ـ فى حياته ! ـ ثم تقوم بلعنه والبصق على وجهه ـ بعد موته ! ـ بأمر الزعيم الأوحد الجديد .

تلك صورة الحياة ـ السياسية ـ فى ظل دكتاتورية البروليتاريا .. تنتقل بحذافيرها إلى كل منطقة تسود فيها ، لأنها الصورة «العادية» لهذا النوع من الحكم ، الذى لا يمكن أن توجد له صورة سواها فى أى مكان !

* * *

والطيبون .. أو السذج البسطاء .. الذين يأخذون الأمور من سطوحها ، والذين هم ـ قبل ذلك ـ يعيشون فى جاهلية فكرية تمنعهم من رؤية الحقيقة ورؤية العلاج ..

هؤلاء يظنون .. ويتمنون على الله (!) .. أنّ فى الإمكان إصلاح هذه الأنظمة الفاسدة من الحكم ، سواء دكتاتورية رأس المال أو دكتاتورية البروليتاريا ، ـ بـ «رشّ» قليل من «الحرية» و «الديمقراطية» فوق كل منهما ، فإذا هى غاية المرام ونوال المأمول !

أولئك يعيشون فى الجاهلية الفكرية ـ بعيدًا عن منهج الله وهداه ـ فلا يرون آثار الجاهلية المفسدة فى هذه الأنظمة كلها ؛ وأنها لابد أن تقوم على الطاغوت ، لأنها لا تقوم على منهج الله ، ولا تحكم بما أنزل الله .

إن المشكلة فى هذه الطواغيت ليست مشكلة سطحية قابلة للعلاج برشّ قليل من الحرية والديمقراطية عليها ! إنها أعمق من ذلك كثيرًا فى بنية النظام ذاته ..

إن الرأسمالية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية .. والشيوعية لا يمكن إلا أن تكون دكتاتورية ! وكل حكم غير حكم الله لابد أن يكون طاغوتًا .. ليس هناك وسيلة ـ ما ـ لمزج الحرية والديمقراطية بأيٍّ منها بحيث تُبقى على «فضائلها» وتقضى على مفاسدها !

الفساد فى بنية النظام ذاته .. فى أعماقه .. لا فى الأداة المنفذة له ولا فى وسائل التنفيذ .

والعلاج «الأوحد» ليس فى مزجه بالحرية والديمقراطية ـ وهو أمر فى ذاته غير ممكن ـ وإنما هو تغييره من أساسه وبالرجوع إلى منهج الله دون سواه ، والحكم بما أنزل الله .

* * *

تقول كلتا الدكتاتوريتين إنها تلجأ إلى خنق الحرية والتضييق على الناس .. لأنها فى حرب «مقدسة» ! !

فأما دكتاتورية رأس المال فإنها لا تعترف بأنها دكتاتورية ! وتزعم أنها «ديمقراطية» مائة فى المائة ! وأنها خلاصة إرادة الشعب ورغباته ! ولكنها حين تسأل عن قبائحها فى إرهاب العمال ، أفرادًا ونقابات ، وفى إقصاء كل من يشتم منه الدفاع عن الحريات الحقيقية ـ التى تمس مصالحهم الخاصة ـ إقصائه عن الحكم ، أو عن مراكز التوجيه ، أو إقصائه عن الحياة ذاتها بالاغتيال (!) .. حين تسأل عن ذلك كله تقول : إنها مضطرة إلى ذلك اضطرارًا ، لأنها تحارب «المبادىء الهدامة» .. أى مبادىء الشيوعية !

وأما دكتاتورية البروليتاريا ، فتزعم بطبيعة الحال أنها «ديمقراطية» ! وإن كان الاسم «المذهبى» «العلمى» لها يصمها بالدكتاتورية .. ولكنها حين تسأل عن قبائحها فى إرهاب مجموع الشعب ، والفتك بالمعارضين وإزالتهم من الوجود .. تعتذر بأنها مضطرة إلى ذلك اضطرارًا ، لأنها تحارب «الرجعية» .. أى الرأسمالية !

وهكذا يحتج كل من المعسكرين بأنه فى حرب «مقدسة» ضد المعسكر الآخر . وأن «الأعداء» يتربصون بالنظام ويتمنون تقويضه ، ويعملون على ذلك إن استطاعوا فلابد من أخذهم بالشدة والعنف ، محافظة ـ أى والله ـ على مصالح الجماهير ! ومكاسب الجماهير ! ووجود الجماهير !

وهى حجة واهية زائفة لا تثبت للتمحيص .. !

فليست هذه أول مرة فى التاريخ يواجه فيها النظام القائم أعداء من الداخل أو الخارج . يتربصون به . ويعملون على تقويضه . ويتصلون بالمعسكرات المعادية لتمدهم بالعون وتساعدهم على التقويض !

ولكن الموقف يختلف فيما بين الجاهلية ومنهج الله ..

لقد واجه الإسلام ـ منذ مولده ـ حربًا عنيفة لا تكف لحظة واحدة عن العدوان ..

حرب فى العقيدة . حرب فى الكيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى . حرب فى الأخلاق . حرب فى الأفكار . «طابور خامس» فى وسط الصفوف لخلخلة الصفوف . فتنة بالتعذيب وبالتجويع وبالعزل السياسى والاقتصادى والاجتماعى عن بقية المجتمع ..

ذلك كله فى منشأ العقيدة ..

ثم لما صارت دولة ـ فى المدينة ـ صارت الحرب أوضح وأعنف ..

إمداد «المنافقين» بالأموال والرجال والعتاد .. إثارة الفتن والاضطرابات .. الحرب الاقتصادية .. مصادرة الأقوات ..

فلما صارت الدولة هى الجزيرة العربية كلها . وتمكن الإسلام فى موطنه الأصلى . وفاتت الفرص الأولى لخنق الدعوة الجديدة . عنفت الحرب أكثر . وأصبحت أكثر ضراوة !

الإمبراطورية الرومانية تكيد للإسلام وتتحفز للهجوم .. والإمبراطورية الفارسية تقف بالمرصاد .

ثم يقع الاصطدام بالفعل . وتقع الحرب أشد ما تكون الحرب . ويدخل الإسلام المعركة المقدسة ـ المقدسة حقيقة لأنها فى سبيل الله . ولإعلاء كلمة الله ـ فكيف يكون سلوك الحكومة فى داخل العالم الإسلامى ؟

عمر .. ؟ الذى وقعت فى حياته معظم هذه الحروب الضارية مع الإمبراطوريتين الشامختين . اللتين تكيدان كل كيدهما الظاهر والخفى لتحطيم الإسلام .. ؟

كيف كان عمر فى حكومته للمسلمين ؟

أليس هو عمر هذا الذى قام على المنبر يقول : اسمعوا وأطيعوا . فينتبذ له رجل من المسلمين ـ سلمان الفارسى ـ **الفارسى لا العربى** ! يقول له : لا سمع لك علينا

ولا طاعة .. حتى تبين لنا لم فعلت كذا وكذا[1] ! فلا يغضب عمر ولا يثور ! ولا يقول : كيف تناقشنى وتعارضنى وأنا فى حرب مقدسة مع الأعداء الذين يتربصون بنا ويعملون على تحطيم الدولة والنظام ! بل بيّن له الأمر فى هدوء حتى اتضح .. فقال سلمان : الآن مر .. نسمع ونطع !

أليس هو عمر الذى قام يخطب الناس فى الصلاة فوقفت امرأة تعارضه فيما يذهب إليه .. فيقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة !

أليس هو عمر الذى رأى رأيًا ـ لصالح المسلمين ـ فى مسألة الفىء ، وتوزيعه أو عدم توزيعه على الفاتحين من المسلمين (وهو يرى عدم توزيعه ، محافظة على مستقبل الأجيال) فيعارضه بلال ـ العبد الحبشى ـ معارضة عنيفة قوية ، ويجمّع المعارضين معه ، فلا يجد من سبيل أمام معارضته ـ وهو مقتنع بصواب رأيه الذاتى ، وبأنه يعمل مخلصًا لصالح المسلمين ـ إلا أن يدعو ربه : اللهم اكفنى بلالاً وأصحابه ! !

ذلك منهج الله مطبقًا فى واقع الأرض .. يكشف النقاب عن حكم الطاغوت فى الجاهليات !

إنها ليست الحرب «المقدسة !» .. وما هى بحجة لفرض الدكتاتوريات !

إنما هى الحرب غير المقدسة ، ولا النظيفة ، ولا الشريفة .. حرب الطاغوت للمحافظة على ما فى يده من السلطان !

إن دكتاتورية رأس المال **لا يمكن** أن تكون غير ذلك . ودكتاتورية البروليتاريا **لا يمكن** أن تكون غير ذلك ! وكل ديكتاتورية تقوم على حاكمية الإنسان للإنسان **لا يمكن** أن تكون غير ذلك !

فمادام الناس لا يحكمون بمنهج الله .. فلا شىء غير حكم الطاغوت !

ورأس المال **لا يمكن** ـ مادام هو الحاكم والمسيطر ـ فى جاهليته التى لا تحكم بما أنزل

---

(١) وزعت على المسلمين أبراد (أقمشة) يمانية ، فنال عمر برد كبقية المسلمين ، ولما كان رجلاً طوالاً لا يكفيه برد واحد ، فقد قام سلمان الفارسى يستجوبه : من أين لك البرد الذى ائتزرت به وأنت رجل طوال لا يكفيك البرد الذى نالك كبقية المسلمين ؟! فنادى عمر ابنه عبد الله بن عمر ، فشهد عبد الله أنه تنازل لأبيه عن برده الخاص ليستطيع أن يجد الكسوة اللازمة له !

الله ـ لا يمكن أن يتنازل عن سلطانه . لا يمكن أن يتيح الفرصة «للطبقة» المواجهة له أن تسلبه سلطانه . لا يمكن أن يدع الطبقةَ المواجهة له تتقوى - عن طريق الحرية و «الديمقراطية !» ـ فتشرع تشريعات تحد من سلطته وتتعرض «لمصالحه» ..

لا يمكن ! لأن هذه نتيجة «حتمية» لقيام سلطان رأس المال !

وهى ليست ـ كما يفسرها التفسير المادى للتاريخ ـ حتمية لأن رأس المال هكذا . بصرف النظر عن «النفوس» وعن الإنسان ! وإنما تستمد حتميتها من سنة الله التى تقول : إنه مادام الناس لا يحكمون بما أنزل الله ، فلابد أن يحكمهم الطاغوت ! وتفسير ذلك فى حالة الرأسمالية ، أن الناس ـ منذ البدء ـ أبوا أن يحكّموا منهج الله الذى يحرم الربا والاحتكار ـ دعامتى الرأسمالية وسنادتيها ـ ويحرم تداول المال فى يد فئة قليلة من الأغنياء .. فاستشرى الطاغوت ، وأصبح هو الذى يملك ويحكم ، وأصبح الناس مستعبدين له لا يملكون من «حتميته» الفكاك !

ولن يكف هذا الطاغوت عن استعباد الناس قط . إلا بأحد شيئين : إما أن يرجع الناس إلى منهج الله فيسقط طاغوت رأس المال .. أو يتلقف الناس طاغوت آخر تخدمه الظروف القائمة فيملك توجيه ضربة قاضية لرأس المال ..

والذى حدث فى الجاهلية الحديثة هو الأمر الآخر بكل تأكيد ! لأنها جاهلية !

قفز طاغوت آخر فتملك رقاب الناس ..

ولا يمكن لهذا الطاغوت الجديد ـ مادام هو الحاكم والمسيطر فى جاهلية لا تحكم بما أنزل الله ـ لا يمكن أن يتنازل عن سلطانه . وأن يتيح الفرصة للطبقة المواجهة له أن تسلبه ذلك السلطان . لا يمكن أن يتيح ـ بالحرية والديمقراطية ـ فرصة لأعدائه أن يشرعوا ضد «مصلحته» أو يسلبوه سلطة التشريع .

كلا ! لن يحدث ذلك قط !

ومن ثم فالدكتاتورية ـ سواء اسمها رأس المال أو اسمها البروليتاريا ـ أو اسمها أى عنوان آخر ـ ليست أمرًا عارضًا يزول . ولن تمطر سماء الجاهلية على الناس حريات وديمقراطيات ، فى ظل هذا الطاغوت أو ذاك ؟

* * *

والمشكلة - بلغة التفسير الجاهلي للتاريخ - هي مشكلة «الملكية» وما يترتب عليها من نتائج سياسية.

فدكتاتورية رأس المال قد أباحت الملكية الفردية بغير حد وبكل صورة .. ومادامت هكذا - بغير حد وبكل صورة - فنتائجها «الحتمية» أن يتجمع في يدها - رويدًا رويدًا - السلطان. ثم أن تعمل على المحافظة على هذا السلطان. وهو سلطان متزايد - بطبيعته - فالربا - الذى تقوم عليه الدكتاتورية الرأسمالية - يجعل الثروة تتضاعف «أضعافًا مضاعفة» بحساب الربح المركب ثم يؤدى في النهاية إلى الاحتكار[1] كما هو حادث اليوم فى العالم الرأسمالي. ومن ثم تتركز السلطات في يد فئة قليلة من الناس. تعلم جيدًا فيما بينها وبين نفسها أنها تغتال الناس وهم أحياء .. وتعلم جدًا فيما بينها وبين نفسها أنه لو خلى بينها وبين الناس لانقضوا عليها. يستردون ما سلب منهم من أموال وجهد وعرق ودماء. فلابد أن يحصنوا أنفسهم بالتشريع الذى يكفل صيانة مصالحهم. ولابد لهم أن يملكوا في أيديهم القوة التنفيذية التي يقيمون بها هذه الصيانة. عن طريق أجهزة الدولة تارة. فإن لم تكف فعن طريق العصابات - لا مانع ! - وعن طريق تلهية الناس ببعض المنافع، والعدالة الجزئية .. و «المسرات» !

ما أكثر المسرات في ظل الرأسمالية !

حفلات ورقص وإباحية وتحلل .. اصنع ما تشاء ! تلك «حريتك» الشخصية ! لا تحريج لأحد عليك ولا سلطان. البس كما ترغب. وتعرّ كما ترغب ! ضَعْ علاقاتك الجنسية على هواك .. أنت تعيش في ظل «الحرية» ! !

وبهذه الوسائل وتلك .. وبكل الوسائل .. يسيطر رأس المال. ويقيم طاغوته على رقاب الناس !

ودكتاتورية البروليتاريا تمنع الملكية الفردية البتة ! ومادامت هكذا فنتيجتها «الحتمية» أن يتجمع السلطان كله في يد السلطة الحاكمة وينتزع من الناس ! إنه مادام لا يوجد شخص يملك شيئًا لنفسه .. مادامت لقمة الخبز تأتى عن طريق الدولة. **ولا تأتى إلا**

---

(١) نتحدث عن الربا والاحتكار في الفساد الاقتصادى فيما بعد. ولكنا هنا مضطرون للحديث عنهما سريعًا لبيان آثارهما في السياسة فحسب.

عن طريقها ، فالنتيجة الحتمية أن يكون الفرد مستذلا للدولة من أجل لقمة الخبز ! لا يملك أن يعارضها لأن قوته فى يدها . ولا يملك أن يجد من سلطانها لأنه سيتعرض للجوع . ويستوى أن يكون الحاكم فى ظل دكتاتورية البروليتاريا طيبًا جدا وتقيا وورعًا (! !) كما تقول صحف البروليتاريا عن كل حاكم فى أثناء امتلاكه للسلطة ، أو وحشًا سفاحًا مجرمًا خائنًا كما تقول عنه الصحف بعد أن يموت أو يزول عنه السلطان .. يستوى أن يكون هذا وذلك .. فالدكتاتورية ليست كامنة فى «شخص» الحاكم . وإنما فى أساس النظام ذاته . فى قيام الدولة ـ وحدها ـ بحيازة الملكية كلها ، وحرمان الناس من كل طريق للقوت إلا عن طريقها .. فتستذل رقابهم بلقمة الخبز !

لقد زعمت دكتاتورية البروليتاريا ـ ولا شك ـ أنها «حررت» الناس .. القطيع .. من المذلة للإقطاع ورأس المال من أجل لقمة الخبز . نعم ! ولكنها عادت ففرضت المذلة ذاتها .. المذلة من أجل لقمة الخبز .. على ذات القطيع الذى «حررته» من الإقطاع والرأسمالية . فلم يتغير فى حقيقة الأمر إلا السيد المستذِل : لم يتغير إلا شكل الطاغوت .. وبقى الناس ـ كما هم فى الجاهلية أبدًا ـ عبيدًا للطاغوت !

ولتلهية الناس .. تقدم لهم بعض المنافع ، والعدالة الجزئية .. والمسرات !

نفس المسرات التى تقدمها دكتاتورية رأس المال !

حفلات ورقص وإباحية وتحلل .. **فى ذلك** اصنع ما تشاء ! إنها «حريتك» الشخصية !

وهكذا يقع فى يد الناس ـ فى ظل هذه الدكتاتورية وتلك ـ شىء من النفع الحقيقى الذى لا شك فيه ، وشىء من العدالة الجزئية . وشىء من «الانبساط» !

وبهذا الفتات الذى يتساقط فى أيدى الناس ، تقوم هذه الدكتاتورية وتلك بتلهية الناس عن أعنف طاغوت شهدته البشرية ! بينما أصحاب الطاغوت ـ الفئة القليلة التى تملك السلطان ـ تتمتع إلى درجة الفجور .

فى طاغوت الرأسمالية يملك نفر من الناس ـ يعدون أحيانًا على الأصابع ـ من المال والسلطة ومباهج الحياة وترفها ـ الفاجر ـ ما تعجز عن عده الأرقام وعن تصوره الأفهام . أولئك هم «ملوك» الصناعة . ويصل سلطانهم ـ الفاجر ـ أن يقتلوا رئيس الدولة ويعملوا على أن تمر القضية بلا ضجيج !

وفى الطاغوت الذى يقوم باسم البروليتاريا ، تتمتع الفئة القليلة التى تملك السلطان ـ وهى أعضاء «الحزب» الشيوعى ـ بأقصى نعيم متاح فى الأرض .. بينما «الفقر» يوزع بالسوية على الجماهير !

ثم تقوم وسائل الإعلام ـ فى هذه الدكتاتورية وتلك ـ بتسليط الأضواء التى تبهر العيون ، على الفتات المتساقط فى يد القطيع .. وفى الوقت ذاته تقوم بإخفاء معالم الجريمة البشعة التى ترتكب فى حق ذلك القطيع .. جريمة تحويلهم إلى سائمة مستباحة ، وحرمانهم من «حقوق الإنسان» ومن كرامة الإنسان !

ويكون هذا وذاك هو «التطور» الحتمى ، كما يقرر التفسير الجاهلى للتاريخ !

* * *

فى الاقتصــاد ..

فى الباب السابق أشرنا إلى مسألة «الملكية» وأثرها فى الوضع السياسى للمجتمع . وقلنا : إننا نتخذ فى وصفها ألفاظ المنطق الجاهلى ذاته ! وما نريد أن نتابع هذا المنطق فى طريقة تفكيره .. فهو يقلب السبب والنتيجة . أو بالأحرى يأخذ حلقة واحدة من السلسلة . ويقطعها عن تسلسلها الطبيعى فى واقع الحياة البشرية . إنه يفسر الوضع السياسى بالصورة الاقتصادية . ولكنه يأبى ـ فى جاهليته ـ أن يفسر الوضع الاقتصادى ذاته «بالإنسان» وما يعتقد وما يفكر .. ذلك أن الإنسان ـ فى التفسير الجاهلى للتاريخ ـ تبع للوضع الاقتصادى . وليس الوضع الاقتصادى تبعًا للإنسان :

«فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس نراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها . وهى مستقلة عن إرادتهم .. **فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية** هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية **والمعنوية** فى الحياة . **ليس شعور الناس هو الذى يعين** وجودهم . بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم» [كارل ماركس] .

وقد بينا من قبل . ونحن نتحدث عن فساد التصور . مقدار ما فى هذا التصور الجاهلى من الفساد ، إذ يغفل قيمة الإنسان وإيجابيته الفاعلة ، وينكر أن هذا الإنسان ـ برغباته الكامنة فيه وأشواقه الدافعة له ـ هو الذى اخترع «الآلة» التى يعزو إليها التفسير المادى للتاريخ كل تطور اقتصادى واجتماعى وسياسى .

وكون الآلة ـ بعد اختراعها ـ تحدث تطورًا فى أساليب الحياة كلها لم يكن يدور بخلد مخترعها حين أقدم على اختراعها .. حقيقة . ولكنها لا تبرر قولة التفسير المادى بأن هذا التطور مستقل عن إرادة الإنسان . فهذا التطور ـ الذى لم يكن منظورًا بأكمله وقت اختراع الآلة ـ لا يمكن أن يجرى إلا وفق الطبيعة البشرية ذاتها ، بارتفاعاتها وانخفاضاتها . ولابد أن يسير مع دروب النفس البشرية ومنحنياتها ، ولا طريق له قط من خارجها ! لأنه لا يعمل فى الهواء ! وإنما يعمل دائمًا عن طريق النفس . ومن خلال النفس !

حين اخترع الإنسان الطائرة .. لم يكن هناك دافع مادى هو الذى يمسك بعقل الإنسان ويقول له : اخترع الطائرة ! إنما كان الشوق البشرى القديم الموغل فى القدم أن يطير فى الجو كالطيور .. ذلك الشوق الذى تمثل فى كثير من المحاولات البدائية حتى ظهر فى صورته العلمية ، حين أصبحت معلومات الإنسان ومعارفه تمكنه من تحقيق هذا الشوق فى صورة علمية . وكان إلى جانب ذلك الرغبة البشرية فى سرعة الانتقال من مكان إلى مكان . وهى رغبة فطرية ، يؤديها البدائى بالجرى . ثم يركب دابة . ثم يحاول اختراع أداة سريعة .. وتجره المحاولة إلى اختراع الطائرة .. ثم اختراع الصاروخ ..

وحين اخترعت الطائرة بالفعل أحدثت تطورًا هائلاً فى المجتمع .. فى الحرب والسلم على السواء .

ولكن كيف حدث التطور ؟! هل سلك طريقًا غير «النفس البشرية» ورغباتها وأشواقها ودروبها ومنحنياتها ؟ وأنَّى له أن ـ عل ذلك ؟

لقد اختلطت الحضارات والأفكار والعقائد باختلاط الناس الذى سهلته الطائرة .. فهل ذلك أمر جديد فرضته الطائرة على الناس ؟ أم قديم موغل فى القدم حاولته البشرية بأدواتها البسيطة الأولى ، ثم حاولته اليوم بصورة أكبر حين أتيحت لها الإمكانيات .. الإمكانيات التى أوجدتها بيديها !

وقد مكن استخدام الطائرة من سيطرة بعض الحضارات على حضارات أخرى ـ أو إفنائها ـ عن طريق الحرب . فهل ذلك أمر جديد أحدثته الطائرة ؟ أم له شواهد من أعماق التاريخ ؟

حقا لقد زادت الطائرة من إمكانيات البشرية فى كل مجال .. ولكن كل ما صنعته فى الحقيقة هو زيادة الإمكانيات وتحقيق رغبات كانت كامنة لأنها لا تجد السبيل إلى التنفيذ .. ولكنها لم تنشىء شيئًا لم يكن فى «الإنسان» من قبل ، بصورة كامنة أو ظاهرة .. ولم تنشىء إنسانًا جديدًا كما يحلو للتفسير المادى أن يتصور الأمور !

ومن هنا نعود دائمًا إلى «الإنسان» نفسر الاقتصاد من خلاله ، ولا نفسر الإنسان من خلال الاقتصاد !

* * *

وقضية «الملكية» هى الموضوع الرئيسى فى دنيا الاقتصاد.كيف تكون؟وما نتائجها؟

فأما التفسير المادى فهو يرسم صورًا حتمية لأطوار التاريخ ، من خلال صور حتمية لنوع الملكية ..

وقد مر بنا فى التاريخ ما يثبت زيف هذه الحتمية التاريخية والاقتصادية ..

مرة وجدنا زيفها فى ظهور الإسلام بمبادئه هذه ، فى بقعته هذه ، فى فترته هذه .. بغير مبرر واحد من المبررات « الحتمية » التى يضعها التفسير المادى للتاريخ !

لا الرقيق طالب بالتحرر ولا كانت ظروف اقتصادية حتمية تؤدى إلى تحريره كما حدث فى أوروبا بعد الإسلام بسبعة قرون .

ولا المرأة طالبت بالتحرر ، ولا كانت ظروف اقتصادية حتمية تؤدى إلى تحريرها ، وإعطائها شخصيتها المستقلة ، وحق الملك ، وحق التصرف المباشر فى الملك ، وحق الزواج وحق الطلاق .. وهى حقوق لم تمنحها أوروبا للمرأة إلا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بعد صراعات شنيعة ، وفساد مدمر فى الأخلاق !

ولا « الجماهير » طالبت بالتحرر .. من سلطان القبيلة أو سلطان الحكم القائم على الأهواء ، ولا قامت ظروف اقتصادية حتمية تؤدى إلى هذا التحرر .. وإلى قيام مفهوم جديد كل الجدة فى سياسة الحكم والمال لم تفىء أوروبا إلى بعض مظاهره إلا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بعد صراعات دامية بين المالكين وغير المالكين !

لم يكن هناك شىء واحد حتمى فى كل هذه الشئون ..

ومرة أخرى وجدنا زيف هذه الحتمية فى قيام الشيوعية رأسًا فى الدولتين الإقطاعيتين المتأخرتين أشد التأخر فى الناحية الصناعية : روسيا ثم الصين ، بينما انجلترا التى كانت الحتمية تحتم قيام الشيوعية فيها لتقدمها الصناعى لا تزال رأسمالية حتى اليوم !

وإذن .. فلم يكن من الحتم أن تأخذ الملكية صورتها التى أخذتها فى الجاهلية الحديثة ، سواء فى دكتاتورية رأس المال أم فى دكتاتورية البروليتاريا .. وإنما هى « الأهواء » !

* * *

فى أوروبا قامت الرأسمالية فى ظل جاهلية سمحت من قبل بقيام الإقطاع .

والرأسمالية تقوم على نفس القاعدة الجاهلية التى قـام عليها الإقطاع من قبل وهى حرية التملك بغير حد .. وبكل سبيل .

وسماح الجاهلية الأوروبية بذلك **لم يكن حتمًا** .. وإنما كل ما يمكن أن يقال فقط ، هو أن هذا هو الذى حدث بالفعل . فله قوة الأمر الواقع . ولكن ليست له حجّية تبرره ..

فلا شيء يمكن أن يبرر الطغيان !

وكل ما حدث من «تطور» فى الجاهلية الرأسمالية ، هو تطور «الصورة» التى يمسك بها الطاغوت برقاب الناس . كان يستعبدهم من قبل للأرض ، فصار يستعبدهم للمصنع ورأس المال . ولكن طبيعة الطغيان واحدة من حيث الجوهر ، وكذلك طبيعة العبودية من جانب المستذلين والمستعبدين .

و «طبيعة» رأس المال تختلف عن طبيعة الأرض فى الصورة الاقتصادية ، ولكنها لا تختلف عنها فى رغبة الحيازة والتملك والسلطان .

* * *

حين ولدت الآلة احتاجت إلى المال لإدارتها ..

ولم يكن من السهل ــ فى بادىء الأمر ــ أن يتحول ملاك الأرض إلى رأسماليين صناعيين . لأن الإلف والعادة لها حكمها على النفس البشرية . ولقد كان أصحاب الإقطاع مطمئنين إلى الطريقة التى يحوزون بها المال والسلطان ، ولهم فى ذلك خبرة قرون متوالية ، و «تقاليد» صنعها طاغوت الإقطاع وطبقها مئات السنين ، فصارت عرفًا ساريًا ، لا بحتمية ذاتية ، ولكن بانصياع الناس له .. بعيدًا عن منهج الله !

وكان لابد من الحصول على المال من طريق آخر غير طريق ملاك الأرض ..

وهنا تقدم المرابون ــ اليهود ــ لإقراض العمليات الرأسمالية الناشئة . ولم يكن قيام المرابين بالإقراض عملية جديدة أنشأتها الرأسمالية . فاليهود هذه صناعتهم منذ فجر التاريخ ! والربا يجرى فى عروقهم مجرى الدم . وقد نهاهم الله عن ذلك فى التوراة فلم ينتهوا . وانتشروا فى الأرض ينشرون معهم الجاهلية الربوية فى كل مكان !

قالت لهم التوراة : «لأخيك لا تبع بربا»[1] فقالوا لأنفسهم ـ أو قالت لهم شهواتهم ـ «لأخيك» يعنى لليهودى ..لا تبع بربا . أما «الأميون» غير اليهود فلا جناح عليك أن تمتص دماءهم بكل سبيل :

«ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل»[2] !

وكان لابد للمرابى اليهودى المقرض أن يضمن دينه ورباه .. كما كان لابد للمقترض أن يضمن الربح الذى يكفل ردّ الدين والربا ، وبقاء قسط من الربح الشخصى بعد ذلك . ومن هنا اتسمت الرأسمالية منذ البدء برغبة الحصول على الربح الفاحش .. ومن أهون سبيل .

ولم يكن ذلك حتمية تاريخية ولا اقتصادية !

فلم يكن هناك أى مانع على الإطلاق يمنع من قيام الرأسمالية على تعاون الممولين . وكان التجار يومئذ فى المجتمع الأوروبى يملكون المال السائل الذى يدير الصناعة .. لو شاء الناس ! لاهتـدوا بمنهج الله الذى يحرم الربا ويفتح الطريق للتعاون النظيف .. !

فهى ليست الحتمية .. وإنما الانحراف ! انحراف الجاهلية التى لا تعبد الله .

* * *

أباحت الجاهلية استخدام الربا فى عمليات الاقتصاد .. وكان ذلك بدء الكارثة «الحتمية» كما سنبين بعد قليل . ولكنا نريد قبل ذلك أن نبين أن شئون الاقتصاد ليست ـ كما يفسرها التفسير الجاهلى للتاريخ ـ منفصلة فى منبعها عن أخلاق الناس ومعنوياتهم ..

فالجاهلية التى سمحت بالربا ، مخالفة لمنهج الله ، سمحت ـ قبل ذلك ـ بالغش والغصب والسلب والنهب فى ظل الإقطاع .. ثم عادت فسمحت به فى ظل الرأسمالية .. مجرد امتداد !

والجاهلية التى سمحت بتشغيل الفلاح فى الأرض حتى يستنفد جهده كله ، مقابل

---

(١) لاويين ؛ إصحاح ٢٥ آية ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران [٧٥] .

لقمة الكفاف ، هى ذاتها التى سمحت بتشغيل العامل فى المصنع حتى يستنفد جهده .. مقابل الكفاف .

كلا ! لم تستحدث الرأسمالية «خلقًا» واحدًا لم يكن موجودًا من قبل فى الجاهلية الأوروبية .. إنما هى مجرد امتداد .

كل ما فى الأمر أن الربا ـ هكذا طبيعته ـ يصير إلى الأضعاف المضاعفة بصورة أسرع من أرباح الأرض ، ومن ثم تزايدت كل «أخلاقيات» الجاهلية الإقطاعية على يد الرأسمالية .. تزايدت فى الشناعة والهبوط !

ومضت الرأسمالية فى طريقها من «نصر» إلى «نصر» .. أى من طغيان لطغيان . وساعد العلم إمكانياتها فزادت ضراوتها ، وقدرتها على سحق كل معارضة فى الطريق .

ولم يكن ذلك حتمية تاريخية ولا اقتصادية !

فدول الشمال فى أوروبا تقوم ـ رغم جاهليتها وانحرافها فى أمور كثيرة أخرى ـ على الرأسمالية التعاونية ، لأن الناس هناك أرادوا ذلك ونفذوه .. فلم يجدوا حائلاً «حتميا» فى طبيعة رأس المال يحول بينهم وبين التعاون ، أو يفرض عليهم أن يكون رأس المال فى أيديهم غولاً بشعًا سفاك دماء .

ليست الحتمية .. وإنما الإنحراف !

وأدى تضخم الرأسمالية المتزايد ، والتقدم العلمى المتزايد ، إلى أن رءوس الأموال الكبيرة صارت أقدر على الربح ـ بإمكانياتها العلمية ـ من رءوس الأموال الصغيرة فأكلتها ! أو اضطرتها إلى الدخول معها فى اتحادات ، أدت فى النهاية إلى احتكارات !

. فحين تتداخل كل رءوس الأموال العاملة فى صناعة ما ، وتكوّن اتحادًا واحدًا ، يصبح هذا الاتحاد بالضرورة محتكرًا لهذه الصناعة وحده ، ولا يجرؤ رأس مال آخر على منافسته فى الميدان الذى تخصص فيه وتهيأ لاحتكاره .

ولم تكن هذه حتمية تاريخية ولا اقتصادية ! فكما أن التعاون قد أمكن بالفعل ـ فى دول الشمال فى أوروبا ـ بين الأفراد ، فقد أمكن كذلك هناك بين المؤسسات المتشابهة ، فتعاونت ـ برءوس أموالها التعاونية ـ لا للاحتكار والتحكم فى الأسعار بالنسبة للمستهلك ، وإنما لتحقيق الأرباح لجميع المساهمين وهم بذاتهم هم المستهلكون ..

فلا مصلحة إذن فى رفع الأسعار ، أو لا ضرر من رفع الأسعار ، فالنتيجة واحدة مادام المساهمون هم بذاتهم المستهلكين !

وزادت الصناعات وتكدس الإنتاج .. وأصبح لابد من تصريف فائض الإنتاج . ومن هنا سعت الدول الرأسمالية إلى الاستعمار والتوسع «الإمبريالى» لكى تضمن الأسواق لفائض الإنتاج .

ويقول التفسير المادى للتاريخ إن هذه حتمية تاريخية واقتصادية ..

وكذب التفسير المادى للتاريخ !

فالاستعمار لم ينشأ من الرأسمالية وفائض الإنتاج .. وإلا فما تفسير الاستعمار الرومانى الشهير فى التاريخ ؟ إنما الاستعمار شهوة منحرفة للمجتمع الجاهلى - كل مجتمع جاهلى يجد فى يده القوة والسلطان .

وفائض الإنتاج من جهة أخرى .. ليس الطريق الوحيد «الحتمى» لتصريفه هو الاستعمار .

فالتجارة - الطبيعية - كفيلة بتصريفه . والكف عن إنتاجه أصلاً كفيل بعدم وجود الفائض الذى «يلجىء» إلى التصريف !

وإنما كل هذه كانت حتميات **فى ظل الرأسمالية** .. أو بالأحرى فى ظل الجاهلية التى سمحت بالرأسمالية . وسمحت بعد ذلك بكل نتائجها ، التى أصبحت حتمية لأنه لا شىء يقوّمها ويمنعها من المزيد فى الطغيان .

وخطوة خطوة كان من الممكن أن يقوّم هذا الانحراف ، ولا يؤدى إلى نتائجه «الحتمية» لو أراد الناس غير ما أرادوا ، واتبعوا منهج الله .

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض»[1] .

ثم اختلت الجاهلية اختلالتها الأخرى .. فنزعت الملكية من الجميع .

لقد خيل إليها - فى جهالتها - أن الملكية الفردية هى سبب الفساد فى الأرض . ولم تدرك - لجهالتها - أن الذى كان قد فسد هو «الإنسان» . وأن الذى ينبغى إصلاحه هو

---

(١) سورة الأعراف [٩٦] .

«الإنسان» ! .. وأن الإنسان لا يصلح حتى يستقيم أمره على منهج الله ، فيعرف حقيقة نفسه ، وحقيقة مكوناته وطاقاته ، ويعرف مركزه من الكون والحياة .

إنها ـ حسب تفسيرها الجاهلى للتاريخ ـ تظن أن الاقتصاد هو الذى «يصنع» الإنسان ! وأنه إذا أصلح الاقتصاد فقد صلح الإنسان من تلقاء نفسه ، ولم يعد الأمر فى حاجة إلى «التدخل» .. لأن الحتمية الآلية التى تسير الحياة بمقتضاها ـ حسب هذا التفسير ـ ستترتب النتائج الحتمية بصورة آلية .. وينصلح الكون كله .. حين تنزع الملكية من الناس .

ولم يكن ذلك «علمًا» ! وإنما كان حماقة جاهلية !

كان رد فعل لبشاعة الإقطاع والرأسمالية .. يحمل سمات كل «رد فعل» جاهلى ، من الاندفاع والتطرف والتهوس المجنون .. مضافًا إليه الجهل بمكونات النفس ، وطريقة تعاملها مع الحياة والكون ، وتعاملها مع الناس .

إن الاقتصاد أيًا كانت أهميته الذاتية لا يزيد على أن يكون جزءًا واحدًا من حياة الإنسان . جزءًا أصيلاً ، نعم . ومؤثرًا ، نعم . ولكنه ليس الحياة كلها ، ولا هو العنصر الواحد المؤثر فى الحياة .

وحين أعطته الجاهلية الحديثة هذا الاهتمام المبالغ فيه ـ على حساب بقية الكيان الإنسانى ـ [سواء فى الغرب الرأسمالى أو الشرق الشيوعى] فقد أحدثت فى حياة الإنسان اختلالات ضخمة ، ليس أقلها ضياع «الإنسان» ذاته فى النهاية ، وتحوله ـ على الأكثر ـ إلى آلة منتجة ، تقوّم بقدر ما تنتج فى عالم المادة ، ولا تقوّم بمقاييس الإنسان .

وبالإضافة إلى هذا الاختلال الشامل ـ الذى سنتكلم عن طرف منه فى الأبواب التالية [فى الاجتماع ، وفى الأخلاق ، وفى علاقات الجنسين] ـ فإن الحل الخاص الذى «اهتدت» إليه الجاهلية الحديثة ، حين نزعت الملكية الفردية البتة ، لم يؤت ثماره التى دارت بخلد الجاهليين وهم يظنون أنه مفتاح النعيم !

لقد قامت هذه الجاهلية المنحرفة بمقاومة الفطرة البشرية مقاومة مجنونة .. لتنزع مشاعرها تجاه التملك الفردى .. وجادلت جدالاً «علميا !» طويلاً لتثبت أن حب التملك ليس نزعة فطرية ، وإنما هو ميراث من المجتمع الإقطاعى والرأسمالى ، ليس أصيلاً فى

كيان الإنسان . بل .. لما خشيت أن يكون هذا الكلام قليل الإقناع ذهبت فى نقاشها خطوة أبعد ، فنفت أصلاً أن للإنسان فطرة ! لعلها تحسم الجدل من جذوره ! وزعمت ـ كما قال ماركس وإنجلز وكثيرون غيرهم ـ أن الإنسان ولد بغير نزعات فطرية ، وبالذات بغير نزعة إلى التملك . وإنما « المجتمع » هو الذى بذر فيه هذه البذور ـ الخبيثة ـ التى لابد من اقتلاعها لأنها السبب فى إشقاء البشرية .

ولم يناقش هؤلاء الجاهليون هذا السؤال الذى لابد أن يخطر فى المناقشة : لماذا صنع « المجتمع » ذلك ؟ وما هو هذا « المجتمع » الذى صنع ما صنع ؟ هل هو شىء آخر غير « الإنسان » ؟ نعم قد يكون المجتمع مختلفاً عن الفرد ! وقد تكون له صفات وخصائص غير الصفات والخصائص التى يتميز بها الفرد .. ولكن هل هو شىء غير « الإنسان » ؟

ومع التسليم ـ جدلاً ؟ ـ بما يزعمه ماركس ودركايم من أن الكيان الجمعى يفرض نفسه على الفرد فرضًا ويزرع فى نفسه الطيبات والخبائث دون وعى منه ولا إرادة [سنناقش هذه الأسطورة فى الباب القادم] مع التسليم جدلاً بكل ذلك ، فمن الذى زعم أن « الإنسان » هو الفرد فقط ؟ والمجموع ؟ أليس مجموعًا « إنسانيا » ؟ أم هو جنس آخر غير بنى الإنسان ؟!

كلا ! لم يناقش الجاهليون هذا السؤال وهم يحاولون أن يقتلعوا الملكية الفردية فى نفس « الفرد » ! وإنما زعموا أن الإنسان البدائى لم يكن يعرف الملكية الفردية . وإنما كانت أدوات الإنتاج ـ التى لا وجود لها ! ـ مشاعة بين الجميع ، والإنتاج كله مشاعًا بين الجميع كذلك . وإنما عرفت الملكية فقط حين اكتشفت الزراعة ، فسعى الناس إلى ملكية الأرض ، وملكية أدوات الإنتاج .. وملكية الناس الذين ينتجون ، فى مرحلة الرق ، ثم مرحلة الإقطاع ، ثم مرحلة الرأسمالية !

وقليل من « المنطق » كان يكفى لرد هؤلاء الجاهليين إلى الصواب !

أى شىء كان قابلاً للامتلاك فى العهد البدائى الأول ؟

قطعة الحجر المسنونة على هيئة سكين ؟ ما نفعها لمن يملكها ؟ إنها تستخدم ـ على الأكثر ـ لقطع قطعة من اللحم النيىء إذا لم تفلح فيه الأظافر والأسنان ! وهذا اللحم ذاته ـ أو السمك ـ كيف يُملك ؟ إنه إذا فاض عن حاجة القوم فإنه ينتن ويفسد ، ولا يعود صالحًا للأكل . فلماذا يُحجز وكيف يحفظ ؟

إن عملية الملك هنا باطلة من أساسها لأنه ليس هناك ما يُملك .. لا لأن الإنسان خال من نوازع الملك .. وإلا .. فهل ثبت لهؤلاء الجاهليين أن النزاع لم يكن يقوم قط فى هذا المجتمع البدائى على ملكية شىء على الإطلاق ؟

ألم يكن يثور بينهم النزاع الوحشى على ملكية «امرأة» بعينها ، يراها صاحبها أجمل وأوقع ، فيحتجزها لنفسه .. وليكن هو شيخ القبيلة أو فتىً فارهًا يُدِلّ بقوته على الآخرين ؟

ألم يكن شيخ القبيلة «يميز» نفسه ، ولو بريشة واحدة فى رأسه «يمتلكها» دون الآخرين ، ويحرم على غيره أن يلبسها ؟

لقد كانت ملكيات تافهة ، نعم .. ولكنها «ملكية» .. وملكية «فردية» على قدر مستويات الناس فى ذلك العهد البدائى .. وعلى قدر ما هو فى مكنتهم أن يتملكوه .

فلما ارتقوا .. فصاروا أكثر نضوجًا من الناحية «النفسية» ، وصارت إمكانياتهم «المادية» أكبر ، وقدرتهم «العلمية» أوسع مدى .. «تملكوا» على نطاق أوسع .. تملكوا الأرض وأدوات الإنتاج ..

ثم انحرفوا ..

لم يكن انحرافهم لأنهم تملكوا .. فقد كانوا يتملكون من قبل فى حدود مستوياتهم النفسية والمادية والعلمية ..

ثم لم يكن بدء انحرافهم حين عرفوا ملكية الأرض وأدوات الإنتاج !

إنما الانحراف قديم قدم البشرية ..

فحين كانوا يتنازعون على ملكية امرأة .. ويتنازعون على رئاسة القبيلة .. وعلى أيهم هو الذى يملك «الريشة» التى يزين بها رأسه ويتميز على الآخرين .. ثم يحسمون هذا كله بقوة الجسد ، من غلب فله السلطان .. كان ذلك انحرافًا ! كان «شهوة» تتملك الناس فتملك عليهم أنفسهم .. و «الشهوة» منذ بدء البشرية هى الانحراف !

ولم يكن الانحراف فى أى وقت قوة حتمية .. ولا كان هو الصورة الواحدة للبشرية ..

إنما الانحراف – فى أى وقت – «احتمال» بشرى ، يقع ، كما يقع الاعتدال سواء بسواء .

ومرجع هذا وذاك إلى الفطرة البشرية ذاتها ، التى تحمل فى طياتها استعداد الهدى واستعداد الضلال ، وتتقبل الانحراف كما تتقبل الاعتدال .. حسب «التوجيه» الذى تناله ، و «الاتجاه» الذى تقصد إليه ! [1] .

وإذن فالأسطورة التى زعمها التفسير الجاهلى للتاريخ ، والتى تقول إن الملكية الفردية بدأت – فقط – باكتشاف الزراعة ، وإن «هذه» الملكية هى سبب الانحراف .. هى أسطورة جاهلية جاهلة لا تعرف طبيعة «الإنسان» !

وقد وجدت الملكية الفردية خلال التاريخ كله ، ولم تكن – فى ذاتها – طريقًا إلى الضلال .. إنما كانت وضعًا محايدًا ، يوجه فى طريق الخير فيكون عنصر بناء ونشاط وتقدم ، ويوجه فى طريق الشر فيكون عنصر هدم وتعويق وتدمير ..

ولم تكن الملكية الفردية مؤدية – حتمًا – إلى الإقطاع والرأسمالية [كما بينا من قبل فى هذا الفصل] وإنما الذى أدى إلى ذلك هو «الشهوة» .. الشهوة التى تتخذ الملكية طريقًا إلى استعباد الناس والتطاول عليهم . وهنا .. يكمن انحراف البشرية منذ أقدم الأزمان !

فلما قامت الجاهلية الماركسية تنزع الملكية الفردية البتة – ظنا منها بأن الفساد كامن فيها ، وليس فى «الإنسان» الذى كان يعيش فى أوروبا الجاهلية – فماذا كانت النتيجة العملية لهذه التجربة فى نصف قرن من الزمان ؟

«شهوة» السلطان هل قضت عليها الجاهلية الماركسية حين نزعت الملكية الفردية ؟!

لا ينبغى لنا نحن أن نتكلم ! فقد تكلم خروشوف ! تكلم عن «زعيمه» السابق – بعد أن مات ! – فقال إنه كان مجرمًا سفاحًا يمثل أبشع دكتاتورية فى التاريخ !

لقد أزيلت الملكية الفردية وبقى الانحراف الكامن فى ذلك «الإنسان» الجاهلى الذى لا يهتدى بمنهج الله !

وكان من نتائج هذا الانحراف تلك الدكتاتورية البشعة التى تحدثنا عنها فى الباب السابق [فى السياسة] سواء دكتاتورية الزعيم المقدس – الوحش المجرم السفاح –

---

(١) انظر «دراسات فى النفس الإنسانية» .

أو دكتاتورية النظام ذاته . التى سلبت الناس كيانهم واستذلتهم ـ بلقمة الخبز ـ للسلطان الجائر المتمثل فى «الدولة» وما يتركز فى أيديها من سلطات !

* * *

إنه اختلال مزدوج فى هذه الجاهلية ..

اختلال فى تغليبها العنصر الاقتصادى على كيان الإنسان كله . وإهمالها لحقيقة الإنسان «الشاملة» الأصيلة . التى لا تشمل الاقتصاد وحده . وإنما تشمل كل نشاط يقوم به الإنسان ـ نشاط الجسد ونشاط العقل ونشاط الروح .. أصيلاً كله عميق الأصالة ..

واختلال فى طريقة التملك ذاتها .. سواء بإباحتها بغير حد وفى أى صورة كما تصنع الرأسمالية الغربية ، أو بإلغائها البتة كما صنعت الشيوعية [من حيث المبدأ على الأقل . وإن كانت قد اضطرت تحت ضغط الواقع . واقع الفطرة البشرية ، أن تتراجع خطوات أساسية حاسمة عن الماركسية اللينينية . فأباحت بعض الملكية الفردية وأباحت تفاوت الأجور ولعلها غدًا ستلغى الملكية الجماعية للمزارع بعد أن ثبت فشلها كما يقول خروشوف !] .

والعلاج ـ حين تريد هذه البشرية الضالة أن تهتدى ـ لابد أن يكون لهذين الاختلالين معًا . وليس لأيهما دون الآخر .. ولا يصحح هذان الاختلالان إلا بتصحيح القاعدة التى انبثقا منها .

العلاج ينبغى أن يعدّل طريقة التملك .. فلا تنزع البتة كما تقضى حماقة الشيوعية ، ولا تباح بغير حد وفى أى صورة كما تصنع الرأسمالية الحمقاء .

وينبغى كذلك أن يعدّل ـ فى عالم الواقع ـ مكان الاقتصاد فى حياة البشرية . فلا ينظر للحياة كلها من خلال القيم المادية والاقتصادية ، وإنما يوضع الاقتصاد فى مكانه الصحيح ـ بلا تضخم ـ ويوضع إلى جانبه ، بل مهيمنًا عليه وموجهًا لتنظيماته ، الكيان الروحى للإنسان ، كيانه الأصيل الذى حذفته الجاهلية الداروينية من حسابها . فكان ما كان من هبوط الإنسان إلى عالم الحيوان ..

ينبغى ـ ببساطة ـ أن يعود الناس إلى منهج الله !

فى الاجتمـاع ..

العلاقة بين الفرد والمجتمع هى الموضوع الرئيسى الذى يدرسه علم الاجتماع ..

وكما اختلت الجاهلية الحديثة فى السياسة والاقتصاد ، فكذلك اختلت فى نظرتها للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، وفى تطبيق هذه النظرة فى عالم الواقع ؛ ذلك أن السياسة والاقتصاد والاجتماع فى الحقيقة ترتبط بعضها ببعض أوثق ارتباط ..

وقد رأينا من قبل التفاعل الكامل بين الاقتصاد والسياسة ، وسنرى الآن تفاعلها مع الاجتماع .. لا على الأساس الذى تراه الجاهلية المادية ، من أن الاقتصاد هو الذى يرسم صورة المجتمع من ناحية ، والسياسة من ناحية أخرى . ولكن على أساس أنها كلها مظاهر للوجود الإنسانى ، مترابطة لأنها تصدر عن كيان مترابط موحد ... هو « الإنسان »[1] .

* * *

وفى إشارة سابقة ألمحنا إلى اختلال الجاهلية الحديثة فى تصور العلاقة بين الفرد والمجتمع ، الناشئة من اختلال تصورها للنفس البشرية .. والنابعة فى الأصل من فقدان حاسة التوازن ، بسبب الانحراف عن منهج الله .

إما الفرد وإما المجتمع فى تصور الجاهلية ..

فالنظم الاجتماعية التى تقوم على الفرد ، تبرز كيانه وتبالغ فى إبرازه حتى تجعل ذاته مقدسة لا يمسها مساس ! يصنع ما يحلو له .. يملك كما يشاء بغير حد وفى أية صورة . ويصوغ أفكاره وعقائده وأخلاقه وتقاليده كما يشاء ، ليس للمجتمع أن يخرج عليه . ليس له أن يقول له : هذا خطأ وهذا صواب ، فما المجتمع ؟ وبأى حق تكون له الوصاية على الفرد ؟

---

(١) انظر «دراسات فى النفس الإنسانية» فصل «طبيعة مزدوجة» .

إن الفرد هو «الإله» ! ومن ثم فكل إله يصنع ما يحلو له .. والحرية الشخصية مجال مفتوح للآلهة أجمعين !

والنظم التى تقوم على المجتمع ، تبرز هى الأخرى كيانه ، وتبالغ فى إبرازه حتى تجعله هو الكيان المقدس ، والفرد لا قداسة له ولا كيان .. لا يحق له أن يملك . لا يحق له أن يصوغ أفكاره وعقائده وأخلاقه وتقاليده . لا يحق له أن يعترض على عمل المجتمع ، أو يصفه بأنه خطأ أو صواب . فما الفرد ؟ وبأى حق تكون له الوصاية على المجتمع ؟

إن المجتمع هو «الإله» ! ومن ثم يصنع ما يحلو له .. والفرد هو العبد الخاضع للسلطان !

* * *

ويزعم كل من النظامين أنه يقوم على أسس «علمية» ! !

وليس أدل على فساد هذا الزعم ، أو فساد «العلم» الذى يقوم عليه هذا الزعم ، من أنهما وضعان متقابلان تمامًا ، لا يقوم بينهما صلح ولا تفاهم ولا التقاء .. فكيف يكونان فى ذات الوقت صحيحين ؟ إن أحدهما أو كليهما لابد أن يكونا خاطئين .. وهذه هى الحقيقة !

قامت أسطورة الفرد المقدس من «التطور» الذى أصاب أوروبا منذ عصر النهضة .

لقد كانت أوروبا ـ فى جاهلية القرون الوسطى ـ تقع تحت ضغط بشع يضغط كل كيان الإنسان .

الكنيسة ورجال الدين يفرضان سلطانًا مذلا على كاهل الناس . «فالإنسان» لا يملك أن يتصل بخالقه اتصالاً مباشرًا .. وإنما ينبغى أن يكون ذلك عن طريق الكاهن أو القسيس ! والمغفرة لا ينالها الإنسان من الله مباشرة وإنما ينبغى أن «تسلم» إليه على يد كاهن أو قسيس ! والاعتراف ـ لله ـ بالخطيئة لا يتم ، ولا يؤتى مفعوله إلا حين يتولاه كاهن أو قسيس ! وهكذا يحال بين الإنسان وحقه فى أن يلتقى بكيانه الفردى المباشر مع الله .

والأشراف حمل آخر على كاهل الناس ..

فهم وحدهم فى المجتمع الذين لهم وزن وثقل .. والثقل يقع على هذه «الأحجار»

الآدمية التى يتكون منها مجموع الشعب .. الشعب الذى لا حقوق له ، وعليه فى الوقت ذاته جميع الواجبات .

و « الفرد » من هذا الشعب ليس له كيان . لا يملك شيئًا ملكًا حقيقيا ، فالإقطاعى هو المالك الوحيد . والفرد لا يتعامل بكيانه المباشر مع شىء على الإطلاق ! لا يتعامل مع الدولة . فالدولة لا تعرفه إلا عن طريق الإقطاعى الذى يملك أن يقدمه وأن يؤخره ، وأن يجعل له وجودًا أو يلغى ذلك الوجود . ومن ثم يقوم الإقطاعى بين الفرد وعلاقته المباشرة مع الدولة ، كما يقوم الكاهن والقسيس بين الفرد وعلاقته المباشرة مع الله .

والحقوق السياسية لا وجود لها . ولا ضمانات العيش ولا ضمانات القضاء . ولا أى ضمانات .

وفوق ذلك فالنظام الإقطاعى ذاته ـ بصورته الجاهلية التى قامت فى أوربا ـ لا يرتكز على شخصية الفرد ـ فيما عدا الفرد الإقطاعى صاحب السيادة ـ وإنما يرتكز على جموع من الأفراد ليس لها كيان فردى مستقل متميز ، وإنما لها صورة مطبوعة بخاتم قلما يتغير .. فالحياة راكدة آسنة فى الريف لم تتغير منذ مئات السنين .. فرد يذهب وفرد يجىء ، وكأنما لا يذهب الذاهب ولا يجىء ! ومن ثم لا يحس الفرد بوجوده ، وهو يمارس هذه السلبية الكاملة إزاء العرف والتقاليد ، التى يخضع لها لا إيمانًا واعيًا بها ـ فتكون له شخصيته المتميزة فى أدائها ـ ولكن خضوعًا آليا كالثور المعلق فى الطاحون .

* * *

ومن هذا الركود الآسن انبعث النشاط فى أوروبا ، بعد احتكاكها بالعالم الإسلامى ، فى الحروب الصليبية تارة ، وفى الجامعات الإسلامية فى المغرب والأندلس تارة أخرى .. فدبت الحياة فى الموات .

وكان على الناس أن يزيحوا عن كاهلهم ما يرزحون تحته من أثقال .

أول ثقل بدأوا يزحزحونه هو الكنيسة .. ورجال الدين .

وهنا دخلت «عبادة الطبيعة» مهربًا من الكنيسة وإلهها المتجبر الذى تحكم باسمه الناس ، ومحاولةً لإقامة «عبادة» جديدة يلتقى فيها العابد والمعبود مباشرة بلا وسيط !

ونحن هنا بطبيعة الحال نتتبع التاريخ دون أن نبرر التاريخ ! فليس هناك ـ كما أشرنا من قبل ـ مبرر «منطق» ولا «علمى» لهذا التحول من إله الكنيسة إلى عبادة الطبيعة .. وإنما هو مهرب وجدانى منحرف لا يحمل الدليل .. وقد كان على الناس حين أخذوا يزيحون سلطان الكنيسة المزيف أن يعودوا إلى عبادة الله الحق ، لا أن يخلقوا آلهة جديدة مزيفة يعبدونها من دون الله .

ثم أخذوا يزيحون ثقل الإقطاع بما يشمله من طبقة الأشراف ..

وكانت الثورة الفرنسية جماع هذه الثورة التى أطاحت بالملكية ورجال الإقطاع على الطريقة الأوروبية ! أو على الطريقة الفرنسية ! المقصلة وقطع الرقاب !

وبدأ «الفرد» يحس بكيانه ..

ولكنه ـ فى هذه الجاهلية التى لا تعرف الله ـ لم يكن يُتوقع له أن يحس بكيانه على اهتداء .

إنه ـ مثلاً ـ لم يسع إلى الاتصال المباشر بخالقه بغير وساطة الكاهن . وإنما أدار ظهره للكنيسة بكل ما تحمله من كهنة وقسيسين .. و «إله» !

ولم يحاول أن يفرز التقاليد السارية فى مجتمعه ، فيرى ما كان منها ذا قيمة باقية ، فيقوم بأدائه عن إيمان ـ فتكون له الشخصية المتميزة فى هذا الأداء ـ وإنما أدار ظهره لمجموعة الأخلاق والتقاليد فى عصره على أنها شىء بائد .. لابد أن يبيد .

وهكذا لم يتعقل فى ثورته المجنونة .. لقد كان ـ فى هياجه ـ يلقى كل شىء لينطلق خفيفًا من الأثقال .

* * *

ثم كان الانقلاب الصناعى الذى أتى على بقية ما كان من بنيان ..

لقد أحدث هذا الانقلاب تغيرًا كاملاً فى صورة المجتمع .. فى كل شىء فيه ..

وكان عاملاً من أهم العوامل فى التركيز على «فردية» الإنسان ..

لقد جاء العمال من الريف فرادى .. غير متعارفين ولا مترابطين . وسكنوا فى المدينة كذلك فرادى .. لا يلتقون إلا فى زمالة العمل وحده . ولكن لا تقوم بينهم الروابط التى

كانت تقوم بين الفلاح وأخيه فى الريف ، حيث الناس متعارفون ، متعاونون ، تربطهم القرابة والمصاهرة والجوار ودوام الاتصال .. والتقاليد المشتركة التى توحد كياتهم من الداخل فيلتقون متعارفين بالمشاعر والأفكار .

بل إنهم جاءوا كذلك فرادى بلا أسر .. فقد كان الجيل الأول من العمال النازحين من الريف يتحسسون الطريق فى المدينة ، فلا يحضرون معهم أسرهم حتى يطمئنوا أولاً إلى الجو الذى يعيشون فيه . وكان معظمهم من الشبان العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج ..

وهكذا أحس كل إنسان فى المدينة بفرديته المتميزة أكثر مما أحس بالرباط الجمعى ..

ثم عملت المرأة ..

وأحست كذلك بفرديتها ..

لقد كانت من قبل هملاً لا وجود له ولا كيان ولا استقلال . مجرد تابع للرجل . تعيش عن طريقه اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا وفكريا .. وكل شيء .. فهى لا تفكر فى أمورها بفكرها ، وإنما بفكر أبيها أو أخيها أو زوجها . ولا تفكر فى شئون المجتمع ــ ما لها هى وما له ؟ ــ وإن فكرت فعن طريق الرجل الذى ينقل إليها الأمور جاهزة مبلورة منتهية ، لا تشارك هى فى معاناتها أو تمثلها . ثم إنها لا تملك ملكًا مباشرًا ولا تتصرف بنفسها فى هذا الملك ــ هكذا كانت فى جاهلية العصور الوسطى فى أوروبا ! ــ وإنما الرجل هو الذى يملك ويتصرف .. وهى تعيش فى تقاليد معينة ، تضيّق عليها أكثر مما تضيق على الرجل ، أو تضيّق عليها وحدها دون الرجل فى كثير من الأمور . وهى تتشرب هذه التقاليد بلا وعى ، وتعيشها راضية أو ساخطة على أنها قدر مقدور ..

فلما اشتغلت حدث فى نفسها انقلاب !

صار فى يدها مال تملكه ملكًا حقيقيا ، مباشرًا ، كاملاً ، تستطيع أن تتصرف فيه كما تشاء .

وتعاملت ــ بشخصها مباشرة ــ مع المجتمع . فى المصنع والمتجر والطريق ..

وتعاملت مع الرجل ــ أو بدأت ــ إن لم يكن على أنها ندٌّ له ، فعلى الأقل على أنها لم تعد ذلك التابع الذى لا كيان له ، وإنما صارت كائنًا «يحاول» أن يصل إلى مستوى الرجل وينازعه السلطان ..

وفى كل ذلك برزت «فرديتها» التى لم يكن لها وجود من قبل ..

واشتغل الأطفال كذلك !

وبرزت ـ رويدًا رويدًا ـ لهؤلاء الصغار «فردية» متميزة ، يكتسبونها من عرك العمل لهم منذ طفولتهم ، ومن العملة القليلة التى تتحصل فى أيديهم ..

وصار الجميع «أفرادًا» متميزى الفردية !

* * *

لقد كان فى هذه الفردية انحراف هائل خطير ..

ولم يكن ذلك حتمًا بطبيعة الحال .. فليس حتمًا أن تكون الفردية فى ذاتها منحرفة .. فهى جزء أصيل من كيان الإنسان السليم . ولكنها انحرفت لأنها ولدت فى ظل الجاهلية المنحرفة عن منهج الله . ولأنها كذلك رد فعل عنيف غير متوازن لانعدام الكيان الفردى الذى أنشأه الإقطاع عدة قرون ..

لقد ذاق هؤلاء جميعًا فرديتهم المستقلة «المتحررة» من غير طريقها السوى ، الذى كان يضمن لهم ـ مع الإحساس بالذاتية المتميزة ـ توازنًا فى الإحساس بالحقوق والتبعات . والحرية والالتزام .

فسكان المدينة الجدد كانوا ـ رويدًا رويدًا ـ قومًا يتحللون من الدين والأخلاق والتقاليد . بتأثير الانتقال من الكبت العنيف فى الريف إلى «حرية» المدينة وبحبحتها ؛ وبتأثير الانسلاخ التدريجى الدائم من الدين ؛ وبتأثير التفسير الحيوانى للإنسان الذى بثته الداروينية فى النفوس ؛ وبتأثير التفسير الجنسى للسلوك الذى بثه فرويد ؛ وبتأثير وجود الشباب الفاره القوة ـ فى سن الشباب ـ بلا أسر تعصمه من الخطيئة . فيلجأ إلى الحل الرخيص الذى تقدمه المدينة فى صورة بغاء ..

والمرأة ـ وهى تحس رويدًا رويدًا بفرديتها ـ كانت تستق هذه الفردية على انحراف . فهى خارجة من حالة انعدام الكيان .. فى كل شىء . فلما أحست بذاتيتها أخذت تناضل لتحطيم كل قيد .. لازمًا أو غير لازم .. وأخذت بالذات تسعى إلى تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد لأنها استُخدمت ضدها فى معركة «التحرر» .. استخدمها الرّجل ليصدها عن منافسته . بينما كان هو فى واقع حياته متحللاً من الدين والأخلاق

والتقاليد ! ثم إنها بعد أن نكل الرجل – الجاهلى – عن إعالتها ، واضطرت – راضية أو كارهة – أن تعمل ، وجدت – فى كثير من الأحوال – أن أخلاقها قيد يمنعها من التكسب . فالرجل – الجاهلى – الحيوان الذى تعمل عنده ، لا يتيح لها فرصة العمل إلا أن تتيح له من نفسها ما يطلبه الرجل الحيوان . وفوق ذلك فقد كانت تطالب « بالمساواة » مع الرجل ! المساواة فى الأجر فى أول الأمر .. ثم المساواة فى كل شيء .. ومن بين ذلك المساواة فى التحلل والإباحية والانطلاق !

ووراء الرجل والمرأة معًا كان التوجيه اليهودى الماكر الذى يريد أن يدمر « الأميين » . توجيه ماركس وفرويد ودركايم : أن الأخلاق قيد لا معنى له . والجنس هو الوجود البشرى . والاختلاط هو السبيل ..[1] .

وحدث انحلال مدمر شنيع ..

لقد تحطمت روابط المجتمع ، وروابط الأسرة ، بل روابط الجنس ذاته ! فلم يعد الجنس – بصرف النظر حتى عن الأخلاق ! – رباطًا يربط بين رجل وامرأة بالعواطف الممتدة الطويلة الأمد ، والمشاعر المشتركة .. وإنما أصبح لحظة جسد منهومة ، تنقطع بإشباع شهوة الحيوان ، وتتجدد على دواعى الجسد الشهوان . واعتبرت « العواطف » و « المشاعر » حتى بصرف النظر عن الأخلاق ، « رومانتيكية » مريضة متهوسة لا تعيش فى « الواقع » . وإنما الواقع هو هذا الحيوان ، وهذا الجسد الشهوان .. كذلك أوحت لهم الجاهلية الداروينية ، وامتدادها على يد فرويد ، وغيره من « تلاميذه » و « حوارييه » فى كل ميدان !

وفسد كيان الرجل والمرأة كليهما .. فلم يعودا رجلاً وامرأة كما خلقهما الله !

فأما الرجل – وقد فقد روابطه الاجتماعية وضعفت فى نفسه روابط الأسرة وروابط الجنس ذاته ! – فقد أصبح « شيئًا » أقرب إلى الآلة منه إلى الإنسان .. آلة منتجة ، ولكنها لا تكاد تفكر أو تحس .. وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة ، بلا هدف شامل ولا وعى « بإنسانية » الإنسان ! ثم إذا فرغ من الإنتاج المادى الذى يكبت كيانه الحى ويطمس إشعاعة الروح فيه – بسبب « الأسلوب » الآلى الذى يؤدى به العمل – انطلق

---

(١) انظر كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » .

فى حيوانية هابطة يشبع دوافع الحيوان .. وتتحول الحياة فى نظره إلى هذين الهدفين القريبين : إنتاج كالآلة .. وانطلاق كالحيوان .

وأما المرأة فقد فسدت فطرتها من الداخل كذلك .

كتبت الدكتورة بنت الشاطىء فى جريدة الأهرام بعنوان «جنس ثالث فى طريقه إلى الظهور» .

«.. شاءت الظروف أن أذهب فى عطلة الأحد لزيارة صديقة لى طبيبة بإحدى ضواحى «فينا» – بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية فى دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبى حين فتحت لى صديقتى باب بيتها معجلة ، وفى يدها «بطاطس» تقشرها . ثم قادتنى فى لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك .

«ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتنى قائلة :

«ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة فى المطبخ يوم الأحد !

«قلت ضاحكة : أما العمل يوم الأحد فربما فهمته وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك ، فهذا ما لم أنتظره .

«فردت : لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب فالعمل فى عطلة الأحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتى الوحيدة لكى أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالى فى المطبخ ، فلعلى لم أتجاوز به نطاق مهنتى . إذ هو نوع من العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معى سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

«ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعى للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا فى المرأة العاملة ، وذلك لما لحظوا من تغير بطىء فى كيانها ، لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص فى المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختيارى محض ، وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع ، تحت ضغط الحاجة والاستقرار فى العمل . ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات ،

لم يكن أكثره عن إختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه فى الغالب لا يرجع إلى عيب عضوى ظاهر ، مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادى والذهنى والعصبى ـ عن قصد أو غير قصد ـ عن مشاغل الأمومة ، ودنيا حواء ، وتشبثها بمساواة الرجل ، ومشاركته فى ميدان عمله .

«واستند علماء الأحياء فى هذا الغرض ـ نظريا ـ إلى قانون طبيعى معروف ، وهو أن «الوظيفة تخلق العضو» . ومعناه فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هى التى خلقت فى حواء خصائص مميزة للأنوثة لابد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه «عالم الرجل» .

« ثم تابع العلماء هذا الفرض ، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظرًا ، وإذا بهم يعلنون ـ فى اطمئنان مقرون بشىء من التحفظ ـ عن قرب ظهور «جنس ثالث» تضمر فيه خصائص الأنوثة التى رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

«وثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمى حقها فى العمل ، ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال ، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب .

«وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائمًا الخوف من أعبائه ، والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها فى محل العمل .

« ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا فى حدود ضيقة ، تحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج ، فيرد عليه بأن هذا الخروج ـ على قرب العهد به ـ قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل ، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل ببوادر التغيير ، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة ، وقوة رسوخها فى ضميرها .

«وما يزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ، ويستقرئون فى اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات ،

والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن . وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة» .

* * *

أما الأطفال الذين أحسوا بفرديتهم فى هذا الطوفان المنحل .. فقد أحسوا بها كذلك على انحراف .

فالأسرة المحطمة ، التى يعمل فيها الرجل والمرأة فى المصنع والمتجر ، قد فقدت رباطها العاطفى والوجدانى الذى كان يمسك بالأطفال فى ترابط . ويبذر فى قلوبهم «الحب» و «المودة» ، وينشئهم متوازنين فى الشعور والتفكير . ويعلمهم آداب الجنس وينشّئهم على احترام العلاقة التى يجىء عن طريقها النسل . فلا تصبح شهوة جسد مرتكسة . وإنما تصبح روابط على مستوى الإنسان .

فقدت الأسرة رباط الأم .. رباط الوجدان . وصار البيت أشبه بالفندق الذى يعيش فيه رجل وامرأة كأنما هما فى علاقتهما «موظفان» يؤديان وظيفة الأبوة والأمومة «من الظاهر» كما يؤدى الموظف عمله بلا حماسة ولا يسره أن يداوم عليه .. لولا «الروتين» الذى يسيِّر الحياة .

ومن ثم انحرف الأولاد .. سواء كانوا يتربون فى الأسرة المفككة على يد «الخادم» أو فى المحاضن مع غيرهم من الأطفال «المشردين» عن الأمهات والآباء !

يقول «ألكسس كاريل» :

«ولقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاما . ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة ، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطامعهن الاجتماعية ، أو مباذلهن ، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية ، أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما . وهكذا يضيعن أوقاتهن فى الكسل . إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار ، فيتعلم عنهم أمورًا كثيرة .. إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع أخرى من نفس عمرها فى حظيرة واحدة . لا تنمو نموا مكتملاً كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى إثر والديها . والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء . لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى

والعقلى والعاطفى طبقًا للقوالب الموجودة فى محيطه . إذ أنه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال فى مثل سنه . وحينما يكون مجرد وحدة فى المدرسة ، فإنه يظل غير مكتمل . ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية ، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة »[1] .

ويقول ول ديورانت الفيلسوف الأمريكى :

« ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث] ليس زواجًا بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط المساخر ... »[2] .

* * *

وفى هذه الأثناء كلها كانت « البرجوازية » الناشئة تسعى إلى مزيد من حرية « الفرد » .

لقد كانت السلطة كلها – فيما سبق – فى يد الإقطاعيين يسحقون بها مجموع الشعب ، وتؤازرهم الكنيسة كهيئة إقطاعية ، وكهيئة ذات مصلحة ذاتية فى إخضاع الناس لسلطانها « الروحى » ليعيش « رجال الدين » فى مكان السيطرة الآمرة ، وفى نعيم مترف مقيم .

فلما أخذت « المدينة » فى النمو ، وجدت الطبقة الجديدة من الموظفين وأصحاب الأعمال وصغار الرأسماليين .. وجدت نفسها بلا حقوق ! فالبرلمان محتكر لرجال الإقطاع . وحرية القول والاجتماع والتعبير عن الرأى « الشخصى » ليس لها وجود .. وبدأ الصراع العنيف لاستخلاص هذه الحقوق رويدًا رويدًا من رجال الإقطاع .

وكان فى كل يوم نصر جديد « للديمقراطية » يتمثل فى مزيد من التحرر « للفرد » .

---

(1) « الإنسان ذلك المجهول » ص ٣١٨ – ٣١٩ .

(2) « مباهج الفلسفة » ص ٢٢٥ .

إن التفسير الماركسى يصور الصراع على أنه صراع طبقى .. «الطبقة» البرجوازية الناشئة تصارع «الطبقة» الإقطاعية العجوز .. ولكن هذا ـ إن كان صحيحًا ـ لا ينفى أن هؤلاء «البرجوازيين» [أى سكان المدينة] كانوا يحسون أنها معركة فردية لكل منهم . معركة كل فرد منهم ليعبر عن كيانه الفردى المتميز ، ليثبت وجوده الذاتى ، ليحس أنه إنسان قائم بذاته ، وليس تبعًا لهذا وذاك .

وكل نصر جديد .. أى كل حرية تنتزع من الإقطاع . كان معناها أن كل «فرد» قد امتدت حريته إلى مجال جديد .. أى أنه صار يستطيع أن يصنع ما يحلو له هو شخصيا فى نطاق جديد .

ولم يكن هذا «التحرر» فى ميدان السياسة وحده . وإنما كان كذلك تحررًا ـ أو تحللاً ـ من الدين والأخلاق والتقاليد ، تحوطه ضمانات «التشريع» والتنفيذ والقضاء .. بوصفه من «الحرية الشخصية» ..

وهكذا اتكأت البرجوازية ـ فى معركتها السياسية لانتزاع السلطان من الإقطاع ـ على الكيان الفردى المنطلق «المتحرر» الساعى إلى مزيد من التحرر ومزيد من السلطان .

وفى تلك الأثناء اتخذ الإنسان من نفسه إلهًا ، وعبد نفسه من دون الله !

* * *

وفى ظل ذلك كانت الرأسمالية النامية تجتاح الميدان .

تجتاحه على أساس فردى .. فهى تقوم على حرية كل «فرد» فى أن يملك بكل وسائل الملك ، ويستغل ماله فيما يشاء من استغلال . وكذلك يستغل الطاقة الآدمية المتمثلة فى العمال .

ودافع الرأسماليون دفاعًا عنيفًا عن حرية «الفرد» .. وقالوا ـ بطبيعة الحال ـ كلامًا «جميلاً» فى حقوق الإنسان الفرد . والحريات التى ينبغى أن تكفل له . و «القداسة» التى ينبغى أن يتمتع بها فى الحياة . وحقه فى ألا يتعرض «المجتمع» لأعماله ، ولا أن يضع فى سبيله القيود !

وكان شعارهم الذى رفعوه : «دعه يعمل . دعه يمر !» Laissez Faire-

Laissez Passer ممثلاً لذلك الاتجاه كله . فقد كان معناه : دع «الفرد» يعمل ما يشاء بلا حواجز .. دعه يمر بلا عوائق !

كانت دعوة للانطلاق من القيود !

ولكن هذا الكلام «الجميل» كله الذى قيل عن حرية الفرد ، وقداسة الفرد ، وحقوق الفرد .. لم يكن لوجه الله ! وإنما لوجه الشيطان ! لوجه الطاغوت المتمثل فى الرأسمالية ! فالرأسمالية لا تستطيع أن تعمل ـ ما تشاء ـ ولا أن تمر ـ بلا حواجز ـ إلا فى ظل هذه الحرية الفردية المطلقة من جميع القيود .

ولا مانع لدى هذه الرأسمالية الطاغية ـ فى سبيل تحقيق سلطانها الطغيانى ـ أن تنفخ فى دعوة «الحرية» هذه حتى ينحل المجتمع كله . دينه وأخلاقه وتقاليده .. ورجاله ونساؤه وأطفاله وأسره وطوائفه . لأن الذى يهمها كله هو استخلاص أكبر قدر من الربح ، عن طريق أن تعمل ـ ما تشاء ـ وتمر ـ بلا حواجز ! بل لعل انحلال المجتمع أكثر ربحًا لها ، لأنه يتيح استغلال المال فى إثارة الشهوات ، والحصول على الأرباح مضاعفات !

وهكذا أنشأت الرأسمالية الطاغية فلسفة كاملة ، ذات مدارس وأساتذة ومؤلفين وصحفيين وكتاب وفنانين ... الخ ، تدعو إلى التحرر «الفردى» المطلق وتحطيم كل قيد يعوق هذا التحرر المجنون !

وفى ظل هذه الفلسفة المنحرفة صُوِّر المجتمع على أنه الغول البشع الذى يسعى لتحطيم كيان الفرد ، والذى ينبغى فى ذات الوقت أن يقوم الفرد بدكِّه وتحطيمه ، جزاءً وفاقًا على ما يحمله فى طياته من نوايا العدوان !

ولم يقف هؤلاء الفلاسفة والمفكرون ، والأدباء والصحفيون ، والكتاب والفنانون .. الخ ، لم يقفوا ليسألوا أنفسهم : ما هذا المجتمع الذى ينبغى تحطيمه ليتحرر «الإنسان .. الفرد» ؟ ما هو؟ أليس مجتمعًا «إنسانيا» فى النهاية ؟ أليس «الإنسان» شاملاً للفرد وللمجتمع فى ذات الوقت ؟ أليس المجتمع ناشئًا من ضمير الفرد : من رغبته فى الاجتماع بالآخرين ، والأنس بهم ، والحاجة إليهم ؟! وحين يتحطم هذا المجتمع .. فكيف يعيش الفرد ؟ «أين» يعيش ؟ ما الإطار الذى يعيش فيه ؟!

ثم غفل هؤلاء الفلاسفة والمفكرون ، والأدباء والصحفيون ، والكتاب والفنانون .. لأنهم فى جاهلية عمياء لا تهتدى بمنهج الله ولا نور الله .. غفلوا عن أن طاغوت

الرأسمالية المدمر ، وهو ينفخ فيهم ليقرروا هذه الآراء المنحرفة ، لا يسعى ـ بعد حل روابط المجتمع كله ـ إلا لشيء واحد ، ناله بالفعل وحصل عليه ، هو استعباد هذا الشتيت المتنافر من «الأفراد» الذين لا يجمع بينهم رابط إنسانى ، ولا مودة ولا قربى .. استعباده لطاغوت رأس المال ومصالح رأس المال ، وهو راغم صاغر ، ومستغفل مضلَّل ، يسوقه الطاغوت من خطامه .. عن طريق الشهوات !

* * *

وحين كانت «الفردية» تجنح جنوحها ذلك المدمر .. كان «رد الفعل» ينشأ على الجانب الآخر. جانب «الجماعية» ..

كانت هناك نظريات تقول إن الفرد لا وجود له ولا معنى له بمفرده ! إنما يستمد كيانه من المجتمع الذى يعيش فيه ، وليس من حقه ، بل ليس فى إمكانه أن يحول المجتمع عن طريقه .. الحتمى !

كان دركايم يدلى بالتفسير «الجمعى» للحياة للبشرية .. وماركس يدلى بالتفسير المادى للتاريخ ، القائم على قاعدة أن الأساس الاقتصادى هو الذى يكيف المجتمع ، والمجتمع هو الذى ينشىء الفرد ..

يقول دركايم :

«... ولكن الحالات النفسية التى تمر بشعور الجماعة تختلف فى طبيعتها عن الحالات التى تمر بشعور الفرد ، وهى تصورات من جنس آخر ، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد ، ولها قوانينها الخاصة بها»[1] .

«... إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعية أشياء حقيقية **توجد خارج ضمائر الأفراد ، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظة من لحظات حياتهم**»[2] .

«ولكن لما كان هذا العمل المشترك [الذى تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية] **يتم خارج**

---

(١) «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى ـ مقدمة الطبعة الثانية ص ١٥ .

(٢) ص ٢٢ من المصدر السابق .

شعور كل فرد منا ، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية[1] ، فإنه يؤدى بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، **وهى تلك الضروب التى توجد خارجة عنا** ، **والتى لا تخضع لإرادة أى فرد منا** » [2] .

« ... ... فلما كانت الخاصة الجوهرية التى تمتاز بها هذه الظواهر [الاجتماعية] تنحصر فى **القيام بضغط خارجى على ضمائر الأفراد** ، كان ذلك دليلاً على أنها ليست وليدة هذه الضمائر » [3] .

« ... ... وسيرى المرء حينئذ كيف **تقتحم** الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلى للأفراد » [4] .

أما ماركس وإنجلز ، والتفسير المادى للتاريخ ، فهو يذهب خطوة أبعد ، وأسوأ ، فى تفسير الإنسان :

« فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة » [ماركس] .

« الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى » [إنجلز] .

« فالإنسان » كله ليس له وجود ذاتى فى رأى ماركس وإنجلز ؛ لا شعوره ولا أفكاره ولا بواعثه الذاتية ، وإنما هو مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى الذى يوجد خارج كيان الإنسان !

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها ، **وهى مستقلة عن إرادتهم** .. ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » [ماركس] .

---

(1) من العجيب أن دركايم يقر هنا **بأن الظاهرة الاجتماعية تنشأ من عدد كبير من الضمائر الفردية** ولكنه سرعان ما ينسى هذه الحقيقة التى يقررها ، لشهوة مذهبية مستولية عليه فى إنكار كيان الفرد !

(2) ص ٢٥ .

(3) ص ١٦٦ .

(4) ص ٦٦ .

«إن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية **لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس ، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين** . وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» [إنجلز] .

ولكن المهم - هنا - أن التفسير المادى للتاريخ حين يتحدث عن «الإنسان» لا يتحدث عنه فردًا . فهو مشغول دائمًا «بالعمليات الاجتماعية» .. ولا يتصور للفرد وجودًا إلا من خلال العمليات الاجتماعية .

الفرد لا وجود له فى رأى ماركس وإنجلز .. فهو لابد أن يتمثل فى «طبقة» ! ولابد أن يتشرب ويتكيف بمصالح الطبقة التى ينتمى إليها . وانتماؤه إليها هو الذى يحدد له مشاعره وأفكاره ، وأخلاقه وتقاليده ، وموقفه من الحياة .. أما أن يفكر فى الحياة فردًا مستقلاً ذا كيان متميز ، ويكون له - على هذا الوضع - أفكار ذاتية أو مواقف ذاتية ، فمسألة مستحيلة فى عرف التفسير المادى للتاريخ ! والفرد المتميز الذى تحكى عنه وقائع التاريخ هو أسطورة صنعها الناس (لماذا ؟!) . وحقيقة الأمر ، التى تبينها الدراسة «العلمية» أنه لم يوجد قط فرد من هذا النوع . إنما كان الفرد دائمًا متمثلاً فى طبقة خلال التاريخ كله . ثم كان الفرد «المتميز» دائمًا مجرد إنسان أبعد نظرًا أو أكثر استشفافًا للاتجاه الطبقى المقبل ، الحتمى ، الذى تفرضه التطورات الاقتصادية والمادية ، فقام يبشر بالاتجاه «الحتمى» المقبل !

وإذن فالإنسان كله فى مقام التبعية للتطورات الاقتصادية والمادية الحتمية ، والفرد - من هذا الإنسان - فى مقام التبعية الدائمة للمجتمع ، التابع بدوره لهذه التطورات !

وفى تلك الفترة تحول الإنسان من عبادة نفسه ، إلى عبادة الآلهة الجديدة ... آلهة الحتميات !

* * *

انحراف جاهلى آخر لا يقل تطرفًا عن الانحراف الجاهلى السابق . الذى أبرز الفرد على حساب المجموع !

كلاهما رد فعل لحركة سابقة .. وكلاهما يتسم بالتطرف المعيب !

إن الذى لا تطيق الجاهلية أن تتصوره فى كل مرة ، أن الفرد ليس منفصلاً عن المجموع ! كلاهما أصيل ، لأنه حقيقة !

من أين يأتى المجتمع إن لم يأت من مجموع الأفراد ؟!

إن نقطة الضلال الأكبر فى التفسير الجمعى للحياة البشرية ، أنه يرى جانبًا واحدًا من هذه الحياة : جانب خضوع الفرد لأشياء يفرضها المجتمع عليه ، على غير هواه !

وتلك ولا شك حقيقة .. ولكن ما دلالتها ؟

لقد أقر دركايم ــ وإن كان قد سحب اعترافه فى نفس اللحظة ! ــ بأن الظاهرة الاجتماعية تحدث نتيجة عدد كبير من الضمائر الفردية .. أى .. ماذا ؟ أى أن الفرد ــ بطريقة ما ــ ممثل فى هذا المجتمع تمثيلاً إيجابيا له ضغطه ووزنه ودفعه للحياة . والإخضاع الذى يفرضه المجتمع على الفرد فى بعض أمره ــ بل فى كل أمره حسمًا للجدل ! ــ ليس له إلا حالة من حالتين :

إما أنه إخضاع « صالح » .. فمعنى ذلك أن اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية الصالحة يفرض سلطانه على الفرد المنحرف ويقول له : مكانك ! لا تخرج على الحدود المرسومة !

وإما أنه إخضاع فاسد . فمعنى ذلك أن اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية الفاسدة ــ أى الطاغية المنحرفة ــ يفرض سلطانه على الفرد الصالح ويقول له : إما أن تسير معنا ، وإما أجليناك عن الطريق !

وفى كلتا الحالتين هو اجتماع عدد كبير من الضمائر الفردية . تزداد قوة باجتماعها . نعم . ولكن لا تخرج عن طبيعتها « الإنسانية » فى النهاية . فالفرد والمجتمع ــ كلاهما ــ هما « الإنسان » ! وليس الفرد وحده ولا المجتمع وحده هو الذى ينحصر فيه وصف « الإنسان » !

والتفسير الجمعى أو التفسير المادى يخلطان المسألة خلطًا لا يتميز فيه كيان الفرد ، لأنهما ــ كما قلنا ــ يأخذان جانبًا واحدًا من الحياة ، هو خضوع الفرد للمجتمع فى جميع الأحوال .

ولكنهما ــ فى عماية جاهلية ــ ينكران الواقع .. الواقع الذى يسجل خروج أفراد على مجتمعاتهم ، ووقوفهم منها موقف المناجزة والصراع .

وكون المجتمعات تستحقهم ، ليس هو موضع الدلالة هنا . فالمهم أنه يحدث بالفعل

أن يحس فرد بكيانه المتميز إلى الحد الذى يقف فيه إزاء «المجتمع» يعارضه ويتحدى سلطانه .

ثم إنه ليس صحيحًا أن المجتمعات فى كل مرة تسحق هؤلاء الأفراد !

لا فى الخير ولا فى الشر يصح هذا الزعم المذهبى المتعصب الذى ينكر الحقيقة !

ولنبدأ بمثال الشر ، لأنه أقرب إلى واقع هذا التفسير الجاهلى المتعصب !

ما القول فى تاريخ ستالين ؟!

كيف يصفه خروشوف ؟

ألم يقل عنه إنه أبشع مثال للزعامة الفردية التى فرضت على «المجتمع» عبادتها ؟! فكيف كان ذلك يا أيها التفسير الجاهلى للتاريخ ؟

إنه ـ حسبما وصفه المخلص الأمين خروشوف ـ لم يكن يمثل مصالح المجتمع الحقيقية . ولم يكن بالتالى يمثل مصالح «الطبقة» الحاكمة (نظريا) !) وهى طبقة البروليتاريا .. إنما يمثل شهوة سلطان فردى طاغ لا يرحم .. فما تفسيره إذا ألغينا بالكلية التفسير الفردى للتاريخ .. ؟!

ومن جانب الخير .. الأنبياء والقديسون والدعاة والمصلحون .. الذين يبرزون أفرادًا فى وسط طاغوت المجتمع ، فيقفون له وقفة الحق ، ينتصرون للخير ، وللحق والعدل الأزليين .. وينتصرون . إما نصرًا مباشرًا يشهدونه فى أثناء حياتهم ، وإما نصرًا لأفكارهم ومبادئهم .. ما تفسيرهم إذا ألغينا بالكلية التفسير الفردى للتاريخ .. ؟!

على أنه لا ينبغى أن يفسر التاريخ البشرى بالأفراد وحدهم ، ولا بالمجتمعات وحدها .. فكلاهما تفسير جاهلى منحرف عن «الواقع» التاريخى ذاته ..

إنما يفسر «بالإنسان» .. الإنسان الشامل الذى يشمل الفرد والمجتمع معًا ، متفاعلين تفاعلاً دائمًا فى واقع الحياة .

ولقد يبرز الفرد مرة .. ويبرز المجتمع مرة .. ولكن هناك بديهية تعمى عنها المذاهب الجاهلية ، هى حقيقة التفاعل المشترك بين شِقّى الإنسان : الفرد والمجتمع معًا ، فى كل لحظة على مدار التاريخ .

الفرد يعمل عن طريق المجتمع ، والمجتمع يعمل عن طريق الأفراد .. ولا وجود لأحدهما خارج كيان الآخر ، كما يتصور التفسير الجاهلى الفردى ، أو التفسير الجاهلى الجمعى .. كلاهما سيان !

* * *

وواقع البشرية اليوم فى ظل الجاهلية الحديثة هو أن تختار لها لونًا من ألوان الطغيان !

إما أن تختار طغيان الفرد .. فتنخرط فى سلك الدول الفردية الرأسمالية . وإما أن تختار طغيان المجتمع ، فتنخرط فى سلك الدول الجماعية .. هذا إذا كان لها حق الاختيار ! فالبشرية فى ظل الجاهلية لا تملك الاختيار .. إنما يحكمها الطاغوت الذى تخدمه الظروف فيقفز إلى السلطان !

وتلك حصيلة الانحراف «المزمن» عن منهج الله !

حصيلته أن يضيع الكيان الحقيقى «للإنسان» !

فالفرد المنسلخ عن المجتمع ، ينسلخ عن جزء أصيل من كيانه . كيانه هو الفردى . ويقف موقف الصراع من ذات نفسه . وينتهى به الأمر إلى الجنون والانتحار ، وضغط الدم وفساد الأعصاب .. و «اللامعقول» !

والمجتمع الذى يسحق كيان أفراده ، يسحق فى النهاية ذاته ! إن حصيلة «الأصفار» البشرية لا يمكن أن تكون كمية موجبة ! إنما هى مطية للطاغوت الحاكم ، الذى يكون هو «الزعيم الأوحد» وهو حاكم متمتع بالسلطان ، و «المجرم الوحشى» إذا مات أو انزلق عن السلطان ..

ثم تقول الجاهلية عن نفسها إنها فى قمة «التطور» البشرى ! وإنها قد استغنت عن وصاية الله !

فى الأخلاق ..

لعل من أشد ما يفتن الناس فى الجاهلية الحديثة أنها ذات «أخلاق» !

انظر إلى هذا الرجل الغربى المهذب .. إنه شخص ذو أخلاق .. إنه لا يكذب عليك ولا يغشك ولا يخادعك . إنه يحدثك فى استقامة . ويعاملك بأمانة . ثم إنه مخلص فى عمله ، صادق النية فى خدمة «وطنه» .. «مثال» فى كل شىء ..

فأما المسألة الجنسية .. فدعك منها ! إنهم ـ هناك ـ لا يعتبرون لها صلة بالأخلاق ! وليست العبرة بهذه النقطة .. ياليتنا يا سيدى نفسد مثلهم ، ويكون لنا أخلاق !

وسوف نتتبع هنا تاريخ الأخلاق فى الجاهلية الحديثة ، لنرى إن كانت سائرة فى طريق الصعود أم فى طريق الانحدار .. ونرى ـ على ضوء الواقع الحقيقى . بعيدا عن الهالات ـ كم بقى فى العالم الغربى من أخلاق .

ولكننا نود قبل أن نسير مع خطوات التاريخ ، أن نؤكد المعنى الذى أشرنا إليه أكثر من مرة من قبل : إنه لا توجد جاهلية واحدة فى التاريخ خلوا من «جميع» الأخلاق . فليس فى طاقة البشرية أن تفسد كلها .. وفى كل شىء ! لأن النفس البشرية لا يمكن أن تتمحض ـ فى مجموعها ـ للشر . ولابد ـ مهما فسدت ـ أن تبقى منها لمحات متناثرة من الخير هنا وهناك .. ولكن وجود هذا الخير المتناثر ـ فى أية صورة وفى أى مجال ـ لا ينفى عن الجاهلية انحرافها ، ولا يعفيها من النتائج الحتمية لهذا الانحراف .

وقد كانت الجاهلية العربية حافلة بألوان من «الفضائل» .

كان فيها الشجاعة والإقدام ، وبذل النفس رخيصة فى سبيل ما تؤمن به من هدف . والكرم . والأنفة وإباء الضيم ..

ولكن ذلك كله لم يعفها من كونها جاهلية . ثم لم يعفها من نتائج ضلالها . فقد كانت هذه «الفضائل» ذاتها ـ لبعدها عن منهج الله ـ تنحرف عن طريقها القويم . كانت الشجاعة والإقدام وبذل النفس تضيع فى جاهلية الأخذ بالثأر ، والتناصر على

ضلال . لا يهم إن كان الذى ينصرونه على الحق أو على الباطل . إنما «ينفرون» لهيجة القتال بمجرد استثارتهم ، لا لدعم حق ولا إزالة باطل .. فكان الباطل يتراكم على الدوام ! وكان الكرم ينقلب مباهاة فارغة ! فذبح الذبائح وقرى الضيف .. لكى يتحدث بذكره الركبان ! فإن لم يكن ركبان ولا حديث . إن كان إعانة للضعيف والمحروم ــ لوجه الله ــ فعند ذلك يدرك النفوس الشح وتمتنع عن العطاء ! وكانت الأنفة وإباء الضيم تنقلب استكباراً آثما عن اتباع الحق ! فليس الحق هو الأصل وإنما هو «الأنا» الطاغية ، ولو علم صاحب «الأنا» بينه وبين نفسه أنه على ضلال !

والجاهلية الأوربية حافلة بألوان من الفضائل فى مجال التعامل الفردى : الصدق والإخلاص فى العمل والاستقامة والأمانة ونظافة التعامل .. ولكنها ــ لبعدها عن منهج الله ــ تنحرف عن طريقها القويم . فقد تحولت ــ كما سنرى بعد لحظة ــ إلى فضائل «نفعية» ! يتبعها من يتبعها لأنها ــ فى مجموعها ــ «نافعة» فى التعامل .. تجعل عجلة الحياة تسير هينة بلا احتكاك . أما حين تفقد «نفعها» فهى تفقد كذلك رصيدها عند ذلك الأوربى «الفاضل» .. وتصبح فى نظره حماقة «مثالية» لا تستحق الاتباع .

* * *

ولا نتعجل الحديث .. فسنتتبع ــ على هينة ــ خطوات التاريخ .

«كانت» الأخلاق الأوربية مستمدة كلها من الدين . وليس هناك مصدر للأخلاق فى الحقيقة سوى الدين ! والبشرية تنحرف فى عقيدتها بعد أن تكون على الحق ، فتنحرف معها أخلاقها . ولكن انحراف الأخلاق بطىء بطىء إلى أقصى حد .. لا يتم فى جيل واحد ، بل أجيال .. ومن ثم يحدث ذلك المظهر الخادع الذى خدع الجاهلية الحديثة ، وخدع معها عشاقها .. أن يوجد الانحراف عن العقيدة ظاهرا ، ولا يكون الانحراف عن الأخلاق قد اتضح بعد وأخذ صورته الحادة .. فيظن الناس لأول وهلة أنه لا صلة بين العقيدة والأخلاق . وأنه يمكن أن ينحرف الناس عن العقيدة ما شاءوا ، ثم تظل لهم أخلاق !

وهو وهم خادع .. سببه اختلاف السرعة فى الانحدار ! وسببه أن النفس تحتجز رصيدها الخلقى ــ بحكم العادة والتقاليد ــ أمدا طويلا بعد أن تكون قد فقدت «الإيمان»

به كجزء من العقيدة .. وقد تحتجزه فترة ـ على وعى ـ منفصلا عن العقيدة .. على أنه شىء «ينبغى» فى ذاته أن يقوم .. ولكن النتيجة الحتمية واحدة فى النهاية .. إنه ما دامت العقيدة قد انحرفت فلابد أن تنحرف الأخلاق . وما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة ، فلا بد أن تموت .

وهذا هو الذى حدث ـ فى تدرج بطىء ـ فى الأخلاق الأوربية ، التى ما زالت بقية منها تضلل الجاهلية الحديثة عن حقيقة الواقع ، فتحسب أنها ذات أخلاق .

* * *

كانت الأخلاق الأوربية ذات يوم مستمدة كلها من المعين الذى لا معين غيره للأخلاق .. معين الدين .

وكان هناك مصدران لهذا الرصيد الخلقى فى أوربا : أحدهما الديانة المسيحية ، والثانى هو الإسلام .

فأما الديانة المسيحية ـ منذ أدخلها قسطنطين فى أوربا ـ فقد صبغت الحياة الأوربية بمُثل أخلاقية معينة ، ظلت قائمة أمداً فى نفوس الناس ، رغم ما دخل فى هذه الديانة ـ على يد قسطنطين ذاته ـ من انحراف[1] . غير أن هذه الأخلاق كانت تتسم بصورة سلبية لا تواقع الحياة . لقد كان المسيح عليه السلام وهو يقول للناس : «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» يقصد تطهير الأرواح من الداخل ، ولم يكن قط ـ وهو نبى الله ورسوله ـ يقصد أن يبذر الذلة والخنوع فى النفوس . ولكن الصبغة العامة للأخلاق المسيحية فى العصور الوسطى كانت تتسم بهذا الطابع ، الذى لم يقصده ـ ولا شك ـ السيد المسيح ، إنما اتكأ عليه أتباعه لظروف محلية فى داخل الإمبراطورية الرومانية الجانحة إلى المادية الطاغية ، والتجبر ، والفساد .

ثم احتك العالم الصليبى بالعالم الإسلامى فى الحروب الصليبية ، ودخل الصليبيون بلادا إسلامية وأقاموا فيها فترة من الوقت ، وأقاموا دويلات مؤقتة فى بعض بلاد الشام .

---

(١) راجع شهادة دريبر الأمريكى فى فصل «صفحة من التاريخ» ص ٢٨ من هذا الكتاب .

وامتزج الصليبيون بالحياة الإسلامية عن كثب ، وأفادوا منها الكثير .. أفادوا منها نظرة إيجابية للحياة .. مع المحافظة على «الأخلاق» .

لقد كانوا يرون المسلمين ـ فى داخل دويلاتهم ـ إذا أذَّن المؤذن تركوا دكاكينهم مفتوحة أو شبه مفتوحة ، بكل ما فيها من البضائع الثمينة ، لا يحرسها شىء ، وهرعوا إلى الصلاة فى المسجد .. فإذا قضيت الصلاة وعادوا إلى دكاكينهم لم يكن شىء قد سرق منها .. لأن الناس أمناء ، بالإسلام .

وكانوا يرون المسلمين «أمة» مترابطة . يجمع بينهم شعور «الأمة» الواحدة ـ فى ساعات الخطر على الأقل ! ـ فيتعاونون ، ويتوادون ، ويتراحمون ، ويخلص بعضهم لبعض ، بصرف النظر عن الحكام .

وكانوا يرون الصانع المسلم مثالا للجد والنشاط والأمانة .. أمانته هى رأس ماله الأول . وجدّه هو رصيده الواقعى للتقدم .. ومن ثم تقدمت بينهم الصناعات وتوافر الإنتاج .

وغير ذلك من الفضائل كانوا يلمسونه فى واقع المسلمين الذين احتكوا بهم .. وبخاصة «الوفاء بالعهد» أشهر ما لمسه الصليبيون فى تعاملهم مع المسلمين ، وعلى الأخص مع صلاح الدين .

ومن هذا الرصيد المتجمع كله ، ومن حصيلة العلم الذى أخذوه عن المسلمين فى المغرب والأندلس قامت النهضة الأوربية الحديثة فى كل ميدان .

* * *

ولكن النهضة ـ لظروف بيّناها تفصيلا من قبل ـ قد انحرفت عن عبادة الله . وعادت وثنية .. يونانية ورومانية ، وإن بقيت العقيدة رصيدا باهتا فى داخل الضمير .

وهنا أضيف إلى حصيلة الأخلاق فى النفس الأوربية رصيد ثالث .. هو «الفلسفة» المستمدة من الثقافة الهيلينية ، ثقافة «الأبراج العاجية» ذات المُثل المعلقة فى الفضاء .

وبدأ الانحراف فى الأخلاق منذ ذلك الحين !

ولأن الانحراف فى الأخلاق يكون بطيئا جدا وتدريجيا جدا .. لم تتبين للناس حقيقة الأمر .. عدة قرون .

لقد كان من أثر دخول الرصيد اليونانى فى حصيلة الأخلاق الأوربية أنهم تصوروا أنه من الممكن ــ ومن المستساغ ــ أن تقوم المثل الأخلاقية فى الفضاء .. فى الأبراج العاجية ، بينما السلوك الواقعى يسير فى خط آخر ، محكوم ــ كما يقولون ــ بالضرورات .

وهذه التفرقة بين النظرية والتطبيق ، رصيد أوربى بحت ، أنتجته الجاهلية الحديثة بوجه خاص ، وصبغت به «أخلاقيات» العالم كله فى كل مجال ، فصار من المستساغ عند الناس أن يتحدثوا عن «النظرية» الأخلاقية ويستمتعوا بها فى ذاتها ــ فى عالم المثل ــ ثم لا يتوقعوا تطبيقها فى واقع الأرض ، وإنما يسيرون فى هذا الواقع بحسب ما تقتضيه «الظروف» !

وفى ظل هذه الجاهلية فى التصور ، ولدت «المكيافيلية» التى تسم بطابعها السلوك الغربى كله . فى كل مجال تجد فيه أوربا أن «المثل» لا تسعفها «بالفائدة» المطلوبة !

وبدأت المكيافيلية فى السياسة ...

كانت السياسة أول ما تأثر بعملية الفصل بين النظرية والتطبيق !

وسارت أوربا فى السياسة على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة ! فكل وسيلة ــ مهما كانت قذارتها وبشاعتها ــ مستساغة ما دامت توصل إلى الهدف المطلوب .

وفى الداخل والخارج طبعت المكيافيلية سياسة أوربا بطابعها .

الملوك والأشراف ورجال الدين يتبعون أخس الوسائل للمحافظة على ما لهم من سلطان . والرأسمالية من بعدهم ترثهم وترث وسائلهم وتزيد عليها .. بشاعة زائدة فى التواء السلوك لتحقيق المصالح غير المشروعة التى تعيش عليها .. حتى لا يعود هناك مانع فى نظر الرأسمالية الأمريكية مثلا من قتل كنيدى .. للمحافظة على مستوى الأرباح !

أما فى الخارج فالأمر أشد بشاعة .. الاستعمار يتوسل بكل سفالات الأرض ودناءاتها ليوطد سلطانه ، ويمتص دماء الناس .. ولا يرى فى ذلك انحرافاً ! فالغاية تبرر الوسيلة ! ولا يهم أن تكون الغاية ذاتها نظيفة .. ففى عالم المثل توجد النظافة .. لا فى عالم الواقع المشهود !

وهكذا انفصلت السياسة عن الأخلاق فى أوربا .. وقال الناس : لا ضير ! إنها هكذا «السياسة» .. لا صلة لها بالأخلاق !

* * *

كان ذلك بدء الانحراف .. ولكنه لم يكن كل الانحراف .

وخدع الناس فلم يفطنوا إلى الحقيقة .. أنه مادامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة فى الله ، فلن تثبت فى الأرض ، ولن تصمد للعقبات !

خُدِعوا .. لأنهم رأوا رصيداً ضخما من الفضائل مازال باقياً فى واقع الأرض .. لم يتطرق الفساد إليه .. فظنوا ـ مخدوعين ـ أن السياسة شأنها هكذا حقيقة .. لا تخضع لقواعد الأخلاق ! وأن ما حدث لم يكن هدماً للأخلاق ولا انتقاصاً من رصيدها النبيل ، وإنما هى نظرة «واقعية» للأشياء ، لا تحلم بالمثل المستحيلة التطبيق !

ولكن السنة الحتمية لا تتخلف ! فما دامت الأخلاق قد انفصلت عن العقيدة ، معينها الطبيعى الذى يجدد حيويتها ، ويمنحها الإخلاص والصدق ، فلا يمكن أن تثبت !

لقد استبدلت أوربا بالدين الفلسفة .. وصاغت منها قواعد أخلاقها .. أو أنها فى الحقيقة ـ كراهية فى الدين ـ قد أعطت ثوباً فلسفياً لما كان باقياً لديها من رصيد خلقى لم يفسد بعد .. فصار الناس يمارسون الفضائل ـ الموروثة ـ ثم ينفرون من أن يحسوا بأنها مستمدة من الدين ! فيفسرونها «بالواجب» أو «بالضمير» أو بكذا .. وكذا .. ويأبون أن يفسروها بالدين[1] !

ولكن هذه الأخلاق ، المنفصلة عن معينها ، لم يكن يمكن أن يكتب لها الدوام .

أخذ الاقتصاد ـ من بعد السياسة ـ ينفصل عن الأخلاق !

---

(١) انتشر هذا المفهوم ـ بالعدوى ـ فى الشرق «الإسلامى !» ، فتجد أحدهم يقول لك : أنا لا أشرب الخمر .. ثم يسارع فيقول لك كأنه ينفى عن نفسه تهمة كريهة : لست أفعل ذلك عن تدين !! وإنما كراهة فى الشراب !

حقيقة إن الوضع الاقتصادى فى أوربا كان قائماً منذ البدء على أساس غير أخلاق . فقد كان نظام الإقطاع المعتمد على عبيد الأرض قائماً فى الإمبراطورية الرومانية من قبل المسيحية بكل شناعاته ورذائله ، ولم تستطع المسيحية ـ فى صورتها الزائفة التى فرضها الإمبراطور قسطنطين على الإمبراطورية فرضاً ، وتولت الكنيسة صياغتها حسب أهوائها ـ لم تستطع هذه المسيحية الكنسية المحرفة أن تخضع الوضع الاقتصادى فى الإمبراطورية لقواعد الأخلاق المستمدة من الدين . بل إن الكنيسة ذاتها انقلبت بعد أجيال قليلة إلى مؤسسة إقطاعية ، تمارس فى ممتلكاتها كل ما يمارسه الإقطاعيون من مظالم كريهة .. باسم الدين !

ومع ذلك فقد كان الانحراف الخلقى فى الاقتصاد الإقطاعى محصوراً فى هذا الوضع الموروث من قبل ، الذى عجزت الكنيسة المسيحية عن تعديله . واستطاعت تعاليم الدين ـ على الرغم مما أصابها من انحراف ومسخ ـ أن تجعل التعامل بالربا ـ مثلا ـ أمرا مستبشعا لا يلجأ إليه الناس فى تعاملاتهم الاقتصادية إلا كارهين .

فلما جاء الانقلاب الصناعى والرأسمالية كان الناس قد بعدوا أشواطاً عن العقيدة وأشواطاً عن الأخلاق ! ومن ثم لم تجد الرأسمالية الناشئة حاجزاً يحجزها عن انتهاك كل ما رغبت فى انتهاكه من مبادىء الأخلاق .

الربا .. المحرّم فى المسيحية ـ واليهودية من قبل ـ كان هو الأساس الذى قامت عليه الرأسمالية من أول لحظة ، بكل ما يشتمل عليه من قبائح وظلم ، واغتصاب للجهد المبذول ، واستمتاع فاجر بالكسب الذى لم يتعب فيه آخذه ، وإنما يأتيه الكسب سهلا ميسراً وهو قاعد مستريح !

ثم كان الاستغلال البشع لجهد العمال لقاء القوت الضرورى ، بل لقاء أجر يقل أحياناً عن الكفاف ..

وكان استغلال الأطفال ـ فى طفولتهم الغضة ـ يعملون الساعات الطويلة المنهكة لقاء دريهمات ..

وكان استغلال المرأة لمضاربة الرجل وتفتيت عزيمته حين أخذ يطالب برفع الأجور وتحسين أحوال العمل .. ثم استغلالها لإرضاء شهوات الرجل الهابطة ، وقهرها على بيع عرضها لقاء لقمة الخبز !

وكان إفساد الأخلاق بالجملة لإتاحة فرص الربح المجنون للرأسمالية ، فى « الملاهى » والملذات ، وأدوات الزينة والملابس و« المودات » و « التقاليع » .. !

وكان نهب المواد الخام من البلاد المستعمرة لتحصل الرأسمالية على الربح الفاحش ، وتترك الملاك الأصليين فى الفقر والتأخر والجهل والمرض والعجز .. مع تصدير المفاسد الخلقية إليهم لتربح الرأسمالية عن طريقها مزيداً من الأرباح !

وكان شراء الذمم والضمائر – فى السياسة الداخلية – لضمان تسيير السياسة حسب أهواء الرأسمالية الحاكمة ، وفى السياسة الخارجية للإبقاءعلى مصالح الرأسمالية والاستعمار ..

وسخرت الرأسمالية أيما سخرية من الذين يواجهونها بالدعوة الخلقية والرجوع إلى مبادىء الأخلاق !

وظهرت نظريات « علمية ! » تقول إن الاقتصاد له قوانينه الخاصة .. قوانينه الحتمية التى لا علاقة لها بالأخلاق .. بل لا علاقة لها « بالناس » على الإطلاق !

وهكذا انفصل الاقتصاد عن الأخلاق انفصالا كاملا .. وهز الناس أكتافهم ، وقالوا : هذا شأن الاقتصاد .. إنه لا يخضع لقواعد الأخلاق !

* * *

ثم أخذ الجنس – من بعد السياسة والاقتصاد – ينفصل عن الأخلاق !

على هدى التفسير الحيوانى للإنسان ، والتفسير الجنسى للسلوك ، وفى ظل الانقلاب الصناعى الذى ولد فى الجاهلية المنحرفة عن العقيدة .. أخذ الناس يغرقون فى حمأة السعار الجنسى المجنون ..

وفى مبدأ الأمر كان واضحاً للناس ولا شك أن هذا فساد فى « الأخلاق » !

ولكن رويداً رويداً نسى الناس هذه الحقيقة .. أو أنستها لهم الشياطين !

ماركس .. وفرويد .. ودركايم .. وغيرهم من الشياطين ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول .. غروراً[1] .

---

(١) انظر فصل « اليهود الثلاثة » فى كتاب « التطور والثبات فى حياة البشرية » .

ماركس ـ ومعه التفسير المادى للتاريخ ـ يقول : إن «العفة» الجنسية من فضائل المجتمع الإقطاعى البائد ! كقيمة موقوتة لا بد أن توجد فى هذا الطور الاقتصادى .. لا كقيمة ذاتية ينبغى أن تتبع بصرف النظر عن الظروف الاقتصادية ، لأنها مرتبطة بكيان «الإنسان» ذاته المتميز عن الحيوان !

وفرويد يقول : إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسى . وكل قيد ـ من دين أو أخلاق أو مجتمع أو تقاليد ـ هو قيد باطل ، ومدمر لطاقات الإنسان .. وهو «كبت» غير مشروع !

ودركايم يقول :

«إن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق . وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين ، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التى تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان .. الخ [يقصد الرسل والأنبياء والقديسين] **ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها**(1) !»

ويقول :

«ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان ، وإن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف . وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على **أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان**(2)»

ويقول :

«وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأى السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية فى ذاتها إذا صح هذا التعبير .. ومن ثم فليس من الممكن ، تبعاً لهذا

---

(1) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ص ١٦٥ .

(2) ص ١٧٣ .

الرأى ، أن تصبح مجموعة **القواعد الخلقية التى لا وجود لها فى ذاتها** موضوعاً لعلم الأخلاق[1] » ..

وسنتحدث عن الفساد فى علاقات الجنسين فى الباب القادم من هذا الفصل . ولكننا هنا نشير فقط إلى دلالات خط التاريخ ..

لقد غرق الناس فى حمأة الجنس بتأثير هذه المبادىء الهدامة ، ثم نسوا أنهم بذلك ينحرفون عن « الأخلاق » فراحوا يقولون : إن الجنس عملية « بيولوجية » بحتة لا علاقة لها بالأخلاق ! ! كما قالوا من قبل : إن السياسة هى سياسة ولا علاقة لها بالأخلاق ! وكأنهم حين يقولون ذلك بأفواههم يغيرون حقيقة الواقع ، أو ينفون عن هذا الواقع ثقلة الانحراف ، ونتائج الانحراف !

وهكذا انفصل الجنس عن الأخلاق كما انفصلت السياسة والاقتصاد من قبل ، وانهار ركن جديد من الأخلاق بعد إذ انفصلت عن معينها الحقيقى الذى لا معين غيره .. معين الدين !

* * *

وإذ كان التحول فى مجال الأخلاق تدريجياً وبطيئاً .. وإذ كانت الحصيلة التى جمعتها الأجيال تحتاج – فى هدمها – إلى أجيال .. فقد انفصلت السياسة والاقتصاد عن الأخلاق ثم انفصل الجنس ، وبقى بعد ذلك رصيد ضخم من الأخلاق لم يكن قد فسد بعد .. فخيل للناس – فى جاهليتهم – أن الأخلاق يمكن أن تنفصل عن العقيدة فى الله وتظل مع ذلك حية فاعلة فى الأرض .. وخيل إليهم – بما نفخت الشياطين فى أذهانهم من المذاهب والنظريات – أن السياسة والاقتصاد والجنس ، لا علاقة لها بالأخلاق حقا ! فهى محكومة بقيم أخرى واعتبارات أخرى غير القيم والاعتبارات الخلقية .. وأن « الأخلاق » باقية بخير ، ومستمرة فى فاعليتها .. حتى بعد انفصال السياسة والاقتصاد والجنس .. لن تتأثر بهذا الفساد ، الذى آن لنا أن نكون « واقعيين » فلا نسميه فساداً .. ولنسمه مثلا .. تطوراً .. أو فلنسمه .. ضرورة حتمية ! والتطور والحتمية كلاهما قوة لا

---

(١) ص ٥٩ – ٦٠

تناقش ولا تعارَض ، ولا توضع ـ كالأشياء الأخرى ـ فى الميزان . فهى ميزان نفسها . ولا تقاس بشىء خارج عنها .. أو ليست «آلهة» ؟ لا تُسأل عما تفعل ! فلنقبل حكمها صاغرين .. بل فلنتقبل حكمها مسرورين !

* * *

ومضت العجلة خطوة أخرى فى طريق الانحدار .. فما كان يمكن أن تقف عند حد معين .. ما دامت فى طريق الانحدار !

لقد كان قد بقى رصيد من الأخلاق الحقيقية فى أوربا .. رصيد من الفضائل الإنسانية الخليقة بالإعجاب . الصدق والأمانة والاستقامة والجلد على العمل والإخلاص فيه .. والقدرة على التنظيم .. والتوجّه إلى الإنتاج والصبر على مقتضياته ، والكفاح من أجل تحسين الحياة وتجميلها وتيسيرها ..

وهى كلها جزء من الرصيد الأصلى للأخلاق ، الذى استمدته أوربا من معينه الأول ـ معين الدين ـ سواء المعين المسيحى والمعين الإسلامى .. مضافاً إليه الروح الرومانية القديمة ، النشيطة فى عالم المادة والإنتاج المادى ، المتجهة إلى «التنظيم» و «التحسين» .

ولكن الروح الرومانية ذاتها هى التى أفسدت ذلك الرصيد !

وكما أفسدت الهيلينية رصيد الأخلاق من قبل ، ففصلت بين المثال والواقع ، وأباحت الاستمتاع بالمثل الأخلاقية ـ فى الأبراج العاجية ـ دون أن يكون لها رصيد من الواقع [ونشأت عن ذلك المكيافيلية فى عالم السياسة] فكذلك أفسدت الروح الرومانية ما تبقى من رصيد الأخلاق .. من ناحيتين :

إن الروح الرومانية ـ كانت ـ نفعية من ناحية . وأنانية من ناحية .

ومن هذين الانحرافين فى الجاهلية الرومانية القديمة حدث الانحراف فى الرصيد الذى تبقى من الأخلاق فى الجاهلية الحديثة .. فصارت نفعية .. وصارت أنانية ..

إن الصدق والإخلاص والأمانة والاستقامة .. الخ ، فضائل . ولكنها يمكن أن تتم على مستويات مختلفة ، وليست صورة واحدة مفردة ..

يمكن أن تتم على مستوى «إنسانى» .. وهذا هو الخليق بها .. وهذه صورتها الحقيقية الأصلية التى تستمدها من معين الدين . ويمكن أن تتم على مستوى «قومى» أى أنها لا تطبق إلا فى حدود «القومية» التى يعيش الإنسان فى داخلها ، فإذا خرجت عن حدود هذه القومية ــ الضيقة ــ مهما اتسعت ــ عن النطاق «الإنسانى» الشامل ــ فقدت رصيدها ودوافعها ، وانقلبت أنانية تسرق وتنهب وتغش وتخادع وتلتوى .. ولا تبالى أن تصنع ذلك كله ، ولا تتأثم ولا تتحرج .. لأنها ــ فى أصلها ــ لا تقوم على ركيزة «إنسانية» حقيقية . ويمكن ــ بعد ذلك ــ أن تتم فى المستوى القومى ذاته ، لا على أساس أنها قيم مطلقة ينبغى طاعتها ــ فى المستوى القومى على أقل تقدير ــ وإنما على أساس ما تجلبه من النفع لحاملها .. فهى تتبع بمقدار هذا النفع ، وتبطل إذا بطلت المنفعة ، القريبة أو البعيدة ، التى هى ــ فى هذه الحالة ــ الرصيد الوحيد المتبقى لهذه «الأخلاق» !

ولقد وقعت أوربا ــ بتأثير الجاهلية الرومانية المعادة ــ فى هذين الانحرافين معاً .. بالتدريج !

* * *

حين كان المسلمون يتعاملون مع الصليبيين فى الحروب الصليبية ــ وخاصة فى عهد القائد المسلم صلاح الدين ــ فيفون بعهودهم . ويأبون أن ينقضوا مواثيقهم حتى حين تحصرهم الضرورة وتكون «المنفعة» فى نقض هذه المواثيق .. حينئذ كانوا يضربون مثلا للأخلاق «الحقيقية» ! فهذه هى الأخلاق فى صورتها الأصلية ، المستمدة من منهج الله

«وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين[1] » .

فالميثاق لا ينقض غدراً حتى حين تخاف الخيانة .. وإنما يعلن العدو أن الميثاق قد انتهى بسبب الخيانة من جانبه ، ويعلن أن العلاقة هى علاقة الحرب ، فلا يؤخذ على غرة ــ وهو عدو ! ! ــ وعدو فى العقيدة .. أغلى ما يملك المؤمنون ! !

وحين كان الصليبيون ينقضون الميثاق الذى ضربوه للمسلمين . ويأخذونهم على غرة . ويقتلون منهم الألوف من الرجال والنساء والأطفال قتلا وحشيا بشعاً لا يطيقه إلا

---

(١) سورة الأنفال [٥٨] .

«ضمير» أوروبا . ويدخلون عليهم المسجد ــ وهو الحرم الآمن المقدس .. بيت الله ــ وهم لاجئون إليه بلا سلاح ولا عدة ، فيقتلونهم فى داخل بيت الله حتى تغوص سيقان الخيل الهاجمة فى الدماء .. ثم ترتد الجولة للمسلمين فينتصرون على هؤلاء الصليبيين ذاتهم ، فيعاملونهم على نفس المستوى «الإنسانى» الذى كانوا يعاملونهم به من قبل .. كانوا يضربون مثلا آخر للأخلاق «الحقيقية» القائمة على ركيزة «إنسانية» لأنها تستوحى منهج الله وتعيش على هداه .

ولكن أوروبا الجاهلية المنحرفة عن عبادة الله لم ترتفع إلى هذا المستوى قط فى تاريخها كله .. لأنها لا تستمد الأخلاق من منبعها الرائق الأصيل ، وإنما تمزج به ــ على الدوام ، وبنسب متزايدة ــ مفاهيمها الجاهلية المنحرفة ، المستمدة من جاهلية اليونان وجاهلية الرومان .. وعليها مزيد !

إن الروح الرومانية القديمة التى كانت تتمثل فى القانون الرومانى الشهير ، الذى يمنح «العدالة» للرومانى فقط ! ويحرم منها الآخرين .. إنها هى ذات الروح الأنانية التى سيطرت على «أخلاق» أوروبا فى جاهليتها الحديثة . فالأخلاق سارية المفعول فى حدود «القومية» وحدها . فإذا انتقلت إلى خارجها فقدت رصيدها ودلالتها .. إلا فى حالة واحدة .. حالة المنفعة ! وعندئذ يمكن أن تستمر قائمة خارج حدود القومية !

السياسة أمرها واضح ! فالمواثيق تعقد وتوثّق .. وفى لحظة غادرة تنقض وتصبح حبرا على ورق ، بمجرد أن تلوح «المصلحة القومية» فى نقض الميثاق ! ويمر الناس بهذا الأمر مستخفّين غير مبالين ، لأن النظرية الجميلة شىء والتطبيق شىء آخر ، بموجب الجاهلية اليونانية الفلسفية !

ولكن السياسة ليست هى المجال الوحيد لهذه «الأخلاق» !

كان المسلمون فى كل بلد فتحوه يحافظون على «عقائد» المخالفين له ، ويضعونها تحت حماية الدولة المسلمة وحراستها ، ويأبون أن «يحتالوا» على الناس ليتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام .. لأن الله ــ فى منهجه الربانى ــ علّمهم هذه الأخلاق ..

وفى جنوب أفريقيا شركة ملاحة انجليزية يعمل على سفنها بحارة أفريقيون مسلمون .. ولا تطيق الشركة المسيحية أن تراهم مسلمين ! لابد من إفسادهم بأية وسيلة ! فدأبت على أن تصرف لهم جزءاً من أجورهم زجاجات من الخمر ! وهى أغرب «عملة» يتعامل

بها الناس فى عالم الأجور ! والخمر محرمة على المسلمين ، شربها وبيعها سواء ! فكانوا يحطمون هذه الزجاجات ، ويفقدون بذلك الجزء الأكبر من أجورهم ويعيشون على الكفاف ! ثم أدركهم أحد المسلمين البصيرين بالقانون ، فوصّاهم أن يرفضوا قبض أجورهم بهذه الصورة التى لا مثيل لها فى أى بقعة على الأرض ويرفعوا على الشركة قضية إذا أصرت على هذا التصرف الغريب .. فما كان من الشركة إلا أن فصلتهم من العمل جميعاً دفعة واحدة ! وهذه هى «الأخلاق» !

وأهل فرنسا قوم «ظرفاء» «مهذبون» . للمنفعة ! .. فحين يستقبلك أهل باريس بالأدب والظرف و«الإتيكيت» ويمنحونك «عواطفهم» فكل ذلك لكى «تنفق» فى فرنسا أكثر ما تستطيع إنفاقه من النقود ! أما إذا لم تصنع .. !

حدثنى شاب مصرى كان هناك ، لا يشرب الخمر ولا يرتاد أماكن الفجور ولا يتقبل ما يعرضه عليه الفندق من دعارة تأتيه حتى غرفته وهو جالس مستريح . فضيق عليه الفندق الخناق لكى «يتعب» ويخرج ! ورفع عليه الأسعار !

وحين تتعامل التجارة الدولية بأمانة فائقة ، نادرة المثال ، خارج حدود القومية ، فهى ليست «الأخلاق» وإنما هى «المنفعة» ! فالغش يفقد السوق ، ويفقد الأرباح ! والحرص الشديد على الربح يستوجب الأمانة الفائقة فى التعاملات !

على أن هذا التفسير النفعى للأخلاق ليس مقصوراً على التعامل «الخارجى» وحده . فرويدا رويداً أصبح هو الدافع الأخلاقى داخل القومية ذاتها ! فلم يعد الأمر أن الأخلاق انحسرت من نطاقها الإنسانى إلى النطاق القومى ، وإنما فقدت حتى داخل هذا النطاق الضيق رصيدها الصادق ، وأصبحت منفعة متبادلة بين الناس !

الصدق جميل فى التعامل لأنه نافع فى حدود التنظيم القومى ! أنت تصْدُق وتتوقع من الآخرين أن يكونوا صادقين مثلك . لا لأن الصدق فى ذاته فضيلة ، ولكن لأنك وإياهم تكسبون بذلك جميعاً ، تكسبون توفير كثير من الجهد وكثير من المال وكثير من الوقت .. يمكن أن توجه إلى كسب مزيد من الربح !

فأما حين يكون الصدق بلا مكسب .. أو حين يكون الصدق خسارة مادية .. فما قيمته ؟ وما الدافع إليه ؟!

حدثنى أحد المصريين الذين عاشوا فى أمريكا ..

كان يتلقى درساً فى اللغة على يد مدرسة خصوصية تعمل فى مدرسة من مدارس الأحد هناك . ولما اطمأنت بينهما العلاقة ، وعرفت أنه مسلم متدين ، قالت له : إننى أعرف أشياء عن الإسلام تجعله منفراً للناس ! إننى أعرف مثلا أن نبيكم محمداً سكر ذات مرة حتى لم يعد يملك خطواته ، فوقع على الأرض فعضه خنزير .. ومن أجل ذلك حرم الخمر والخنزير ! !

فلما قال لها : إن هذه خرافة لا سند لها من التاريخ ، وإن الحقيقة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشرب الخمر قط ، قالت : أوه .. أشكرك على ما بينت لى من الحقيقة . هل تعلم أننى أدرس هذه الأشياء لتلاميذى فى مدرسة الأحد ؟ !

قال : والآن وقد علمت أن ذلك ليس حقيقة .. هل تستمرين فى تلقينه للصغار ؟

قالت مسرعة : أوه : هذه مسألة أخرى . إننى أرتزق من تدريس هذه الأشياء ! ! !

* * *

ولأن الأخلاق فى الجاهلية الحديثة فقدت رصيدها الخلق «الحقيقى» بتأثير الجاهلية اليونانية والرومانية بعد انفصالها عن معينها الحقيقى الصادق .. لم يكن فى الإمكان أن تثبت للصدمات !

ولقد فتن الناس بقضية الأخلاق فى الغرب ، حين رأوا هذه الأخلاق صامدة راسخة لا تتأثر بفساد السياسة والاقتصاد والفساد الجنسى ، وغابت عنهم فى الوقت ذاته دلالة الأنانية والنفعية فى هذه «الأخلاق» ، فحسبوا أن الأخلاق يمكن أن تنفصل عن معينها الدينى وتظل حية فاعلة فى واقع الأرض ، وأن الأمور التى انفصلت عنها لم تكن من أصولها .. وأنها ستبقى هكذا أبداً ، مهما فسدت أمور السياسة والاقتصاد والجنس (أو تطورت أو خضعت للحتمية) ومهما طغت الروح المادية والنفعية والأنانية على الناس !

والفتنة كامنة ـ كما بينا ـ فى بطء التحلل الخلقى ، حتى ليبدو للناس أنه لا يحدث تحلل على الإطلاق ..

ولكن أحداث ربع القرن الأخير كانت حاسمة الدلالة فى هذا الشأن الخطير !

ونبدأ بفرنسا ..

لقد سرى الفساد الأخلاق فى ميدان الجنس كالسوس ينخر فى داخل العظام .

وجاءت الحرب وفرنسا ماخور كبير غارق فى حمأة الجنس المسعور ..

وحدث ما لابد أن يحدث ! انهارت فرنسا فى أيام ! لا لأنها لا تملك السلاح ـ فقد كانت أحدث الأسلحة وأفتكها فى أوروبا كلها ، ملك فرنسا ! وكانت تحصينات خط ماجينو أشد ما عرف فى ذلك الحين ! ولكن لأنها لا تملك «الروح» التى تحارب .. ولا تملك «الكرامة» التى تدافع عنها ! ولأنها خشيت على مراقص باريس ومواخيرها من قنابل الألمان .. فسلمت فى أسبوعين من الزمان ! !

وقال الناس : هذه ظروف ! لا علاقة لها بالأخلاق ! !

ثم جاء دور أمريكا !

قرر كنيدى فى تصريحه الخطير سنة ١٩٦٢ أن مستقبل أمريكا فى خطر . لأن شبابها مائع منحل غارق فى الشهوات ، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه . وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ! لأن الشهوات التى غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية .. «والنفسية» ! !

وحدث ما هو أخطر وأبشع ! اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية إلى فصل ٣٣ موظفا من موظفيها لأنهم مصابون بالشذوذ الجنسى ، ولأنهم ـ بهذه الصفة ـ غير مؤتمنين على أسرار الدولة !

ثم جاء دور انجلترا !

قضية بروفيمو .. وتعريض أسرار الدولة العسكرية للخطر لقاء لذة فاجرة يقضيها وزير الحرب مع إحدى العاهرات ..

ثم جاء دور روسيا !

صرح خروشوف سنة ١٩٦٢ ـ كما صرح كنيدى ـ بأن مستقبل روسيا فى خطر ! وأن شباب روسيا لا يؤتمن على مستقبلها ، لأنه مائع منحل غارق فى الشهوات !

ثم جاء دور دول الشمال فى أوربا ـ أرقى بلاد العالم ! ! أرقى بلاد الجاهلية الحديثة ! !

الشباب الشارد .. الذى يدخن الحشيش والأفيون .. وينفق طاقته الحية فى هذا

الخبل المجنون .. والعصابات التى تتألف للخطف والقتل والاغتصاب الجنسى .. تقلق أمن الدولة ، وأمن علماء الاجتماع !

وذلك كله فى مجال واحد .. هو مجال الجنس !

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد .. ولا يمكن للعجلة المنزلقة فى الطريق المنحدر أن تقف عند حد !

فى أمريكا عصابات من «كبار» المثقفين .. من المحامين والأطباء والكتاب ورجال القانون .. مهمتها .. ماذا ؟!

مهمتها تيسير مهمة الزنا .. لأغراض قانونية ! !

ففى الولايات الكاثوليكية لا يباح الطلاق إلا فى جريمة الزنا من أحد الزوجين .. فيحق للزوج الآخر أن يطلب الطلاق .

ومن ثم يلجأ الطرف الكاره الذى يطلب الطلاق ـ سواء هو الزوج أو الزوجة ـ إلى تأجير واحدة من هذه العصابات ، للإيقاع بالطرف الآخر فى جريمة زنا ، وضبطه متلبسا ، وإعطاء المستندات اللازمة التى تمكّن من طلب الطلاق .. لقاء أجر معلوم !

وفى أمريكا كذلك عصابات لبيع الفتيات ! بيعهن ! ! رقيقا .. على مذبح الشهوات لأثرياء أوروبا الذين يطلبون هذا المتاع الدنس ويدفعون فيه الثمن المطلوب !

هذا فضلا عن العصابات التى تعمل علنا فى الانتخابات ـ الديمقراطية ! ! ـ لتهديد المعارضين والقضاء عليهم إذا لزم الأمر ! لقاء أجر معلوم !

* * *

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ..
الجيل الناشىء فى أوروبا يعانى أقصى درجات التحلل والانحدار !
عصابات للخطف والسلب والنهب والاغتصاب ..
عصابات ـ من الأطفال ـ لمهاجمة القطارات وقذف نوافذها بالأحجار !
عصابات ـ من الأطفال ـ تضع الأحجار على القضبان لتخرج من عليها القطارات !

عصابات الحشيش والأفيون وبقية المخدرات ..
«التزويغ» من دفع أجرة الركوب ..
كل «الرذائل» التى يمكن أن يتصورها الإنسان !

* * *

حقيقة إن هذا الفساد لم يصبح بعد صورة شاملة !
وماتزال فى الجاهلية الغربية فضائل حقيقية بعد هذا الانحدار كله ! وفضائل كثيرة ! وفضائل متماسكة ! .. فضائل تكفى لأن تعيش الجاهلية الحديثة ـ إذا شاء الله ـ جيلا آخر قبل الانهيار !

ولكن المهم هو دلالة خط السير ! صعود أم هبوط ! خير أم شر ؟!

لقد حاول الناس فى مبدأ الأمر أن يتجاهلوا النذير . حاولوا أن يضحكوا على أنفسهم ويدفنوا رءوسهم فى الرمال ، ويقولوا : إن الدنيا بخير ! إنه «التطور» !

بل راح قوم ـ فى سماجة ـ يتظاهرون بالتعقل و«التثقف !» وأنهم «يرتفعون» إلى مستوى التطور !

يقول قائلهم : إن الجيل الجديد بخير .. بل هو خير من الجيل الماضى بكثير ! إنه جيل جرىء متفتح متطور يعيش بعقلية ظروفه ! إنه لا يجوز لنا أن نحكم على الجيل «الصاعد» بعقلية جيلنا نحن المتخلف ! إن أخلاقياتنا نحن لا تصلح للحياة فى الظروف الجديدة ، والجيل الجديد يصنع أخلاقياته بنفسه ، حسب ظروفه ، صاعدا .. صاعدا .. إلى ما شاء الله ! وإن الذين يتصايحون بأن الجيل الجديد منحل أو منحرف ، هم الجامدون المتخلفون الذين عجزوا عن أن يروا الأمور بمنظار الجيل الجديد .

ثم جاءت الأنباء من عند «السادة» أنفسهم ! من أوروبا ! من أمريكا !
جاءت تلجم ألسنة العبيد الذين يتظاهرون بالتعقل والتثقف والارتفاع إلى مستوى التطور !

جاءت تقول : إن مؤتمرات «علمية» تعقد هناك للنظر فى انحراف الشباب ، وتقرر ـ فى جد صارم لا هزل فيه ـ أن الأمر خطير حقا .. وأن الجيل الناشىء الذى سيتولى غدا

قياد الأمر .. جيل منحرف هابط ، لا يؤتمن على المستقبل . وأن «الدول الغربية» مهددة بالبوار !

وبصرف النظر عن هذا التفكير اللا إنسانى . الذى لا يفكر فى الأخطار الماثلة لمستقبل «الإنسان» ، وإنما ينظر من داخل الحدود «القومية» وبوحى من هذه الروح ..

بصرف النظر عن هذا التفكير ـ وهو انحراف «أخلاق» مما تمارسه الجاهلية الحديثة ـ فإن الدلالة خطيرة إلى أقصى حد .. إلى حد تهديد البشرية كلها بالزوال !

* * *

ذلك تاريخ «الأخلاق» فى الجاهلية الأوربية الحديثة ، الذى ينتشر ـ بالعدوى ـ فى بقية بلدان الأرض ..

إن الأخلاق حين انفصلت عن معينها الأصلى .. حين انفصلت عن العقيدة فى الله .. أو حين تأثرت بانحرافات هذه العقيدة .. لم تستطع أن تصمد .. لم تستطع أن تعيش ..

فى قرنين اثنين انهارت أخلاق أوروبا .. التى احتاجت فى بنائها إلى عدة قرون !

وليس يهم أنه ما يزال هناك رصيد كبير من الفضائل فى الجاهلية الحديثة ، هو الذى يمكّنها من أن تعيش حتى اليوم ..

إن هذا الرصيد يتضاءل يوماً بعد يوم .. وأخطر ما فيه أن الجيل الناشىء هو الأشد فساداً والأكثر تحللاً .. ومعنى ذلك أن المستقبل يزداد خطورة ، لأنه معرض لمزيد من الانحدار ..

ولم يعد يجدى أن يقال : إن كذا وكذا لا علاقة له بالأخلاق .. !

إن خروج السياسة من دائرة الأخلاق ، ثم خروج الاقتصاد ، ثم خروج الجنس ، لم يكن إلا بداية لمزيد من الانزلاق ! لا يمكن أن تقف العجلة المنزلقة على المنحدر عند حد معين .. لابد أن تزيد فى الانزلاق !

وقد حدث بالفعل مزيد من الانزلاق

وتلك هى الدلالة الخطيرة لسير الأحداث فى هذه الجاهلية المنحرفة عن عبادة الله

لقد وصل الفساد إلى «العظم» ..

ولئن كان السوس بطيئاً .. وبطيئاً جدًّا وهو ينخر فى العظم .. فإنه كذلك خداع ! فى لحظة واحدة ينهار العظم المنخور ، الذى كان يبدو سليما قبل لحظات .

ومع ذلك فما زالت الجاهلية تزعم للناس ، ويزعم لها الناس ، أنها غنية بالفضائل . وأنها ذات أخلاق !

* * *

فى علاقات الجنسين ..

هنا لن نتحدث عن الفساد فى علاقات الجنسين من الناحية الخلقية !

لقد أشرنا إلى هذا الفساد الخلقى إشارة عابرة فى الباب السابق من هذا الفصل ؛ ولكنا هنا ندرسه من حيث هو اختلال فى النفس والمجتمع . أى فى الكيان النفسى للإنسان ، وفى الحياة الاجتماعية للناس .

إنه ـ كفساد خلقى ـ أوضح حتى من أن يشار إليه ! وعلى الرغم من كل محاولات الجاهلية الحديثة . أن تحيطه بالنظريات «العلمية !» على يد فرويد مرة ، وماركس والتفسير المادى للتاريخ مرة ، ودركايم مرة .. وتحيطه بأوهام تستقر فى أذهان الناس ، كقولهم : إن الجنس عملية بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالأخلاق . ! وتحيطه بسيل مستمر من الإنتاج «الفنى» ! من قصص ومسرحيات وسينما وتليفزيون وإذاعة وصحافة ، تصور الحياة من خلال لحظة الجنس الطائشة ، وتصورها على أنها الشىء «الطبيعى» الذى لا انحراف فيه ولا فساد .. ! على الرغم من ذلك كله ، فلن يكون التحلل الجنسى إلا فساداً خلقياً من البدء إلى الانتهاء .. !

تقول «بروتوكولات حكماء صهيون» : «يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا . إن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، **وعندئذ تنهار أخلاقه**» .

وتقول البروتوكولات : «لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم . **وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد**» .

إنه إذن ـ مهما قيل فيه ـ فساد فى الأخلاق !

* * *

ولكنا على الرغم من ذلك لا نريد أن نعالجه هنا ـ بصفة أساسية ـ على أنه فساد خلقى . ذلك أن الناس ـ فى تصورهم الجاهلى للأشياء ـ قد فصلوا بين ما هو «أخلاق» وما هو «حياة» ! ولا انفصال فى حقيقة الأمر بين هذا وذاك .

إن «الأخلاق» ليست شيئاً منفصلا عن الواقع . ليست نظريات تدرس فى الأبراج العاجية مستقلة بذاتها . وليس لها قوانين خاصة غير قوانين الحياة الواقعية ! ولا يمكن أن يوجد فساد «خلقى» مع استقامة فى حياة الناس الواقعة . إنما هما شىء واحد : الفساد فى الأخلاق معناه فساد فى واقع الحياة . والفساد فى واقع الحياة معناه فساد فى الأخلاق .. لأنهما قانون واحد مستمد من الوجود البشرى المتكامل ، والفطرة البشرية الشاملة .

وهنا حين ندرس الاختلال فى علاقات الجنسين من ناحية أثره فى الحياة الواقعة ، نبين فى النهاية معنى القول بأنه فساد فى الأخلاق .

* * *

ككل شىء فى الحياة البشرية حدث التحلل فى علاقات الجنسين على مدى طويل وفى تدرج بطىء ..

فى العصور الوسطى كانت المفاهيم المسيحية هى المسيطرة على أوروبا ، كما صورتها الكنيسة الأوروبية للناس .

ولاشك أن المسيح عليه السلام قد دعا إلى لون من الزهادة والارتفاع على متاع الجسد الملهوف . وفوق أن هذه هى دعوة كل نبى وكل دين ، لمواجهة تلهف البشرية على قضاء الشهوات .. فقد كانت الجرعة مضاعفة ـ إذا صح التعبير ـ فى أقوال المسيح عليه السلام ، لأنه كان يواجه طغياناً ماديا وفساداً خلقيا بلغ أقصى الغاية سواء بين بنى إسرائيل أو العالم الرومانى .

وقد جاء فى الأناجيل : «إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله فى جهنم»[1]

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس آية ٢٤ .

ومن هذا القول ـ وأمثاله ـ استمدت الكنيسة مفاهيمها الخلقية التى فرضتها على الناس ، فكانت الرهبانية التى ابتدعوها :

«ورهبانية ابتدعوها ـ ما كتبناها عليهم»[1] ...

وكان الإيحاء العام أن الجنس دنس قذر فى ذاته والمرأة مخلوق شيطانى دنس ينبغى الابتعاد عنه والزواج ضرورة غريزية ـ حيوانية ـ للعامة ، ولكن السعيد الأتقى من استطاع أن «يرتفع» عليه ولا يتزوج .

ومضت الأمور على ذلك حيناً : مباذل شنيعة بشعة فى الإمبراطورية الرومانية على اتساعها ، ورهبانية واسعة الآفاق على حدود الصحارى ، وفى داخل المدن ، فراراً من الفساد .

يقول «ليكى» فى كتاب «تاريخ الأخلاق فى أوروبا»

«كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى . وإن المدن التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته»[2] .

ويصور الكاتب النفور من فكرة «الجنس» وما حولها من علاقات ـ فى ظل الرهبانية ـ فيقول :

«وكانوا يفرون من ظل النساء ، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن ـ ولو كن أمهات أو أزواجاً وشقيقات ـ تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية» .

وينقل الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى كتابه «الحجاب» بعض أقوالهم ، يقول :

«فمن نظريتهم الأولية الأساسية فى هذا الشأن ، أن المرأة ينبوع المعاصى ، وأصل السيئة والفجور ، وهى للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هى مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلا أنها امرأة ! وينبغى لها أن تستحى من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذى

---

(١) سورة الحديد [٢٧] .

(٢) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى .

لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن تكفّر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً . لأنها هى التى قد أتت بما أتت من الرزء والشقاء للأرض وأهلها » .

« ودونك ما قاله « ترتوليان Tertulian » أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها ، مبينا نظرية المسيحية فى المرأة : إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان ، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ، ناقضة لقانون الله . ومشوهة لصورة الله - أى الرجل » .

« وكذلك يقول كرائى سوستام Chry Sostem الذى يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية فى شأن المرأة : هى شر لابد منه ، ووسوسة جبلّيّة ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلى مموه ! »

« أما نظريتهم الثانية فى باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هى نجس فى نفسها يجب أن تتجنب - ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمى مشروع[1] » .

* * *

من هذه النظرة الجاهلية المنحرفة - التى لم يأمر بها الدين ، ولا يمكن أن يأمر بها نبى - حدث رد فعل جاهلى عنيف فى الاتجاه الآخر .

حدث فى تدرج بطىء .. ولعوامل شتى .

فالفساد المروع الذى حدث داخل الأديرة ذاتها ، حاويا لكل أنواع الفساد الجنسى ، ما بين الرهبان والراهبات ، وما بين كل فريق بعض وبعضه .. كان إحدى الصدمات التى خلخلت القيم الرهبانية من أصولها ، وصرفت الناس عن هذا « الترفع » سليما كان أو غير سليم ، فانحدروا يبحثون عن الشهوات .

والتفسير الحيوانى للإنسان ، الذى مده فرويد ووسعه بالتفسير الجنسى للسلوك .. كان دفعة قوية أخرى فى سبيل الفساد .

والانقلاب الصناعى ، وما أحدثه من تفكيك للأسرة ، ونقل للشبان الأقوياء - بلا

---

(١) « الحجاب » ص ٢٥ .

أسر ــ من الريف المتزمت المتحفظ إلى المدينة الفضفاضة الأخلاق ، وتوقيع فترة من «التعطل الجنسى» عليهم بحرمانهم من الأجر المعقول الذى ينشئون به أسرة فى المدينة ، وإتاحة البغاء لهم وتيسيره .

وتشغيل المرأة على نطاق واسع ، واضطرارها إلى التبذل الخلقى لتضمن لقمة العيش .

وانشغال المرأة بقضية المساواة مع الرجل ، وطلبها ــ فى أثناء ذلك ــ المساواة معه فى الفجور ؛ كفرع من فروع المساواة التامة الشاملة ..

كل ذلك كان دفعة عنيفة فى سبيل الفساد .

وتلقفت ذلك كله الصهيونية العالمية ، سواء فى عالم النظريات أو فى عالم الواقع .. فراح ماركس وفرويد ودركايم ، وغيرهم من «العلماء» يهوّنون من أمر الأخلاق ويسخّفونها ، ويدعون المرأة ــ كل من ناحيته وبطريقته ــ أن تخرج وتمارس نشاطها الجنسى ، حتى تكون سهلة قريبة من متناول الرجل .

ثم راحت السينما ــ وهى صناعة يهودية بصفة أساسية ــ وَوَرِثَتْهَا من الإذاعة والتليفزيون ، تزيد كل أنواع التحلل الجنسى ، و«الاستمتاع» .

وبيوت الأزياء .. وبيوت الزينة .. والتقاليد «الاجتماعية» القائمة على الاختلاط . والإباحية الكاملة فى النهاية .. !

* * *

بالتدريج !

لم يحدث كل ذلك دفعة واحدة ..

فقد ظل أنصار الأخلاق يحذرون من التحلل ، وظل أنصار «التطور» يزينون فى الفساد .. وتقوم المعارك طويلة عنيفة بين هؤلاء وهؤلاء .

ولكن التوجيه الدائم الملح المتكرر ، بكل وسائل الإعلام ، نحو الإباحية والتحلل .. والظروف الاقتصادية التى وضعتها الرأسمالية ــ اليهودية أصلاً ــ التى لا تيسر للناس سبل

الزواج النظيف فى مرحلة الشباب المبكر . ثم تملأ فترة التعطل الجنسى بالمغريات التى لا قبل للشباب ـ فى فورته ـ باحتمالها والانصراف عن ندائها ..

وسهولة الحصول على المرأة . زميلة فى العمل وفى الشارع وفى دور التعليم ..

وفنون الإغراء التى زوِّدت المرأة بها عن طريق الصحافة والإذاعة والسينما .. ثم التليفزيون ..

والبغاء المتاح فى جميع صوره وألوانه . من بيوت للدعارة رسمية وغير رسمية . ومسارح وملاهٍ تصطاد «الزبائن» وتقدم لهم البضاعة الدنسة ..

والتوجيه الفكرى بأن الحياة خلقت للاستمتاع . بلا ضابط .. إلا الاكتفاء [ولن يحدث الاكتفاء !] وأنها فرصة واحدة إن لم يهتبلها الإنسان فى حينها فستمضى .. بلا رجوع .

كل ذلك عمل عمله فى الجاهلية المنحرفة . فبلغ الاختلال أقصاه من الطرف الآخر .. من أقصى التزمت إلى أقصى الاندفاع ..

* * *

و«تحررت» المرأة .. وتحرر الناس من قيود الدين والأخلاق والتقاليد .. وأصبحت الإباحية ديانة معترفاً بها . تيسرها الدولة وتقوم بها وترخص بمزاولتها فى كل مكان .. وتجند ـ تحت سمعها وبصرها ـ جميع القوى للدعوة إليها . كتباً وبحوثاً وقصصاً وصحافة وإذاعة وسينما وتليفزيون .

يقول «ول ديورانت» فى كتابه «مباهج الفلسفة» :

«إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط . نعنى كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى سلوك الناس ؟ **إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن** ...» [ص٦ ج١]

«واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا . فقد كان القانون الأخلاقى قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج . لأن النكاح يؤدى إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما . ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل . وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه . لأن

جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة فى التغير نتيجة لهذا العامل ..» [ص ١٢٠ جـ١]

«فحياة المدينة تفضى إلى كل مثبط عن الزواج . فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان قبل . كما يتأخر النمو الاقتصادى . فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى . فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا أو غير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال . حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين . ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة . وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم . وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية . ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا . ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم . وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال . ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا . وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى . ولم يعد العالم المدنى يحكم به»[1] [ص١٢٦ - ١٢٧]

«ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه . ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب . ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة . وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان (!) وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب

---

(١) واضح أن الكاتب يفسر الأمور على هدى التفسير المادى للتاريخ . فيفسر التحلل الخلقى بالتطور الاقتصادى . ولكنه أغفل حقيقة هامة ينبغى الإشارة إليها والتوكيد عليها .. إن الدولة الشيوعية التى تملك أرزاق الناس «وتحررهم» من سلطان رأس المال .. لم توجه الشبان فى بلادها إلى الزواج المبكر الذى يمنع الفساد الخلقى . رغم أنها - فيما تزعم - رفعت لعنة الضرورة الاقتصادية عن كاهل الناس ! إن الأمر ليس تطورًا اقتصاديا فى حقيقته . ولكنه توجيه مسموم لتدمير البشرية .

المكشوف ، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ـ وهم فى حُمّى الفوضى الصناعية ـ من حِمَى الزواج ورعايته للصحة .

« ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لإرضاء غرائزة الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل ، نظاماً دوليا مجهزاً بأحدث التحسينات ، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية . ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها .. » [ص ١٢٧ ـ ١٢٨] .

« وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات ـ وقد أكسبهم المال جرأة ـ أن الدين يشهّر بملاذهم ، التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين .. » [ص ١٣٤] .

« ولما كان زواجها [الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث] ليس زواجاً بالمعنى الصحيح ـ لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة ـ فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان . وتنتهى الغيرية الموجودة فى الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع ، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .. » [ص ٢٢٥] .

« لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم ، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء ، فقد فَقَدَ الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح . ومع أن حريتها إلى جانب الرجل أميل ، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد . سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور

جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعاً فى كل طبقة يضحى الحمل أمراً عارضاً فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء»[ص ٢٣٥ - ٢٣٦] .

* * *

شهادة من كاتب غربى ، حديرة بأن تغنينا عن التعليق !

إن المفاسد التى يشرحها الكاتب ، والتى نجمت فى النفس والمجتمع عن التحلل الجنسى .. لجديرة بأن تفتح عيوننا على شناعة الجاهلية الحديثة فى هذا الشأن .. المنذرة بتدمير كيان الإنسان فى مجموعه ، لا فى المجال الضيق الذى يعرف عادة «بالأخلاق» !

إن هذا التحلل الجنسى لم يترك شيئاً فى النفس والمجتمع ناجياً من الفساد .

ماذا بقى بعد الصورة الكريهة المنفرة التى عرضها هذا الكاتب ؟! ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف كتب كتابه هذا سنة ١٩٢٩ ! ونحن الآن فى النصف الثانى من القرن العشرين ، قرن الجاهلية الكبرى ، نشاهد بأعيننا أن كل ما تنبأ به الكاتب قد حدث ، وانتشر فى كل بقاع الأرض ، واستشرى بحيث لم تعد الجاهلية ذاتها تملك رده لو أرادت .. لأن الزمام أفلت من أيديها ، ولم يعد لها على الفساد سلطان !

ولكن المقتطفات التى نقلناها هنا لم تشر إلى كل أمور الفساد ! أو لم تفصلها !

وقد تحدثت بالتفصيل فى كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» عن هذا الموضوع فى فصل «المشكلة الجنسية» .. وتحدثت عنه بالتفصيل كذلك من زاوية أخرى فى كتاب «التطور والثبات» . ولن أعيد هنا ما كتبته هناك . إنما يكفى أن نرسم صورة سريعة لهذه الجاهلية المجنونة ، كيف صارت حين انفلتت من رباط «الإنسان» فى شئون الجنس ، وارتكست إلى عالم الحيوان .. بغير ضوابط الحيوان !

* * *

إن الفطرة الإنسانية كما خلقها الله .. ذات «معايير» و«ضوابط» تضبط منصرفات الطاقة الحيوية وتحدد مقدارها .. فإذا انفلت العيار ، وبطلت الضوابط ، فلن يكون

هذا «خيراً» يصيب الإنسان فى نفسه ومجتمعه . ولن يكسبه السعادة التى يرجوها بالانفلات !

ولا فائدة فى تحدى الفطرة .. فمنطقها فى النهاية هو المنطق الذى يَغْلِب .. وليس منطق الأهواء !

حين انفلت الناس من قيود الجاهلية السابقة ـ المتزمتة ـ وتكالبوا على متاع الجنس بلا حواجز ولا قيود .. ما الذى حدث فى عالم الواقع ؟

هل «شبعت» الشهوة بإتاحة الفرص للإشباع ؟

كان دعاة «الحرية» والانفلات يقولون : إن «الكبت» أو الامتناع فى أية صورة من صوره هو الذى يحدث الجوع الجنسى الذى لا يشبع . والمشغلة الدائمة بالجنس . التى تشغل الأعصاب وتبدد الجهود .

و .. نعم . يحدث ذلك حين يطول الامتناع عن الحد المعقول . وبغير سبب معقول ! فما نتيجة الإباحة بلا حدود ولا قيود ؟

إن بلاد الغرب والشرق كلها قد أباحت المتاع الجنسى و«باركته» بإغضاء الدولة أو تشجيعها الصريح . وإتاحة الفرص الواقعية للإشباع بعيداً عن كل نهى أو زجر أو تخويف أو ترويع ..

فما بال الجوعة لم تهدأ بالإشباع المطلق المتاح ؟
ما بال هذا العصر أشد العصور كلها اشتغالا بأمور الجنس ؟

كم فلماً .. كم كتاباً .. كم قصة .. كم صورة خليعة .. كم برنامجاً إذاعياً أو تليفزيونياً .. كم أغنية .. كم حفلة عارية أو شبه عارية «يستهلكها» الشباب من الجنسين ؟

وكم مرة مع ذلك ـ كم ملايين من المرات ـ يقع فيها الاتصال الجنسى فى سهولة ويسر ؟

لِمَ لَمْ يشبع هذا النهم المسعور ؟
لا نتحدث عن «الأخلاق» !

نتحدث عن الأمن النفسى والاستقرار الذى ينبغى أن يتوفر لكل نفس «إنسانية» لها

مهمة تقضيها على هذه الأرض غير مهمة الحيوان ! ونتحدث عن «القيم» الإنسانية التى ينبغى أن تعمر قلب الإنسان : قيم الحياة الراشدة المستعلية الهادفة البناءة التى تسعى إلى «التقدم» بكل كيان الإنسان !

وما نتائج هذا النهم الذى لا يشبع رغم إتاحة كل الفرص له للإشباع ؟

هذا القلق الدائم . هذا الضغط العصبى . هذا الجنون . هذا الانتحار . هذه الجريمة .. أو ليس من روافدها هذا النهم المسعور ؟

والأسرة ..

ماذا أصاب الأسرة من إطلاق الشهوة دون حدود ؟

لم تعد الأسرة راحة وسكناً ، ورباطاً زوجيا ، وأطفالا يمسكون بأيديهم الرقيقة حبالها ، فتتوثق وتتعمق فى الوجدان ..

بل لم تعد حتى عِشْرَة حيوان لحيوان .. فبعض الحيوان يتعاشر جنساه مدى الحياة !

والسبب فى ذلك – كما قال ول ديورانت – هو الإباحية ذاتها !

إن الفتى والفتاة يتعودان فى فترة شبابهما على التعدد .. فى الحفلات الراقصة والحياة المختلطة فى البيت وفى الشارع والمكتب والمصنع .. والمعسكرات فى الأحراش والغابات وشواطىء البحار والأنهار !

و«حجة» التعدد هى التجربة ! حتى يجد كل منهما الشخص الذى يناسبه بالضبط .. **فى كل شىء** .. حتى فى توافق الرغبة الجنسية والمزاج ..

ولكن الهدف يُنسى .. وتصبح الوسيلة هى الغاية ! يصبح التعدد فى ذاته هدفاً ، أو على الأقل عادة !

ويجد الشاب بعد طول التجربة فتاته .. وتجد الفتاة شريكها فى الحياة ..

ويضمهما البيت .. عدة شهور ! أو سنوات !

ثم تفتر العلاقة ولا شك .. فهى ليست علاقة «إنسانية» تتأصل بدوام المعاشرة ! إنها علاقة جنس حيوانى غالب .. علاقة جسد شهوان بجسد شهوان .. هكذا بدأت فى أيام «الصداقة» ! وهكذا استمرت فى حس الولد والبنت المرتبطين بعقدة الزواج !

ويصبح الزواج سجناً بليداً لا حركة فيه ولا «مثيرات» .

ويعود الولد والبنت – أو الرجل والمرأة – إلى ما تعوداه من قبل من «صداقات» !

إن هذه الفتاة تبدو وضيئة لامعة شهية مثيرة .. لأنها «جديدة» لم تذهب الألفة بما فيها من إغراء ، كما ذهبت بما تملكه الزوجة من فنون الإغراء ..

وإن هذا الفتى ليبدو لطيفا مملوءا «بالرغبة» التى لم تطفئها الألفة بعد .. وهو شهى فى نظر الزوجة لأنه جديد .. وضّاء !

ومن ثم يشرد الزوج والزوجة فيتخذان العشيقات والعشاق .. أو ينفصلان !

ونسبة الطلاق فى أمريكا التى أباحت الفجور الدنس إلى أقصى حد ، وحمته بسلطة التشريع . ووجهت إليه بكل وسائل الإعلام ، وجعلته فلسفة كاملة يكتب فيها كل من يجد فى نفسه القدرة على البيان .. نسبة الطلاق هناك فى بعض الولايات [غير الكاثوليكية التى تقيد الطلاق] وصلت ٤٠٪ من مجموع الزيجات .. وهى آخذة فى الازدياد ..

وكذلك هى فى دول الشمال فى أوربا ، «أرقى» دول الجاهلية المعاصرة على الإطلاق !

معنى هذا .. ؟ أن حياة الأسرة فى طريقها إلى الدمار ..

والأولاد المشردون ..

وهل يكونون إلا مشردين . أولئك الذين تنفصم عرى محاضنهم الفطرية ويتوزعون بلا رباط ؟

فلتكن الضمانات «الاقتصادية» لهؤلاء الأولاد ما تكون .. فأين ضمانات المشاعر ؟ وطمأنينة النفوس ؟

على أن للأطفال مشكلة أخرى ..

إن تلك الحياة الفاجرة التى يحياها الغرب ، المليئة بالمثيرات فوق الطاقة ، تنضج مشاعر الأطفال الجنسية قبل الأوان .. قبل أن تنضج المدارك والتجارب التى تصلح لإقامة الأسرة والاستقرار فى الزواج .

ثم تدفع تلك الحياة الفاجرة بالأولاد والبنات المراهقين إلى ممارسة الجنس فى هذه السن المبكرة بلا ضوابط تكبح الجماح ..

ثم . ينتشر بينهم الشذوذ الجنسى !

والشذوذ الآخذ فى الازدياد فى كل البلاد التى أفرطت فى إباحة الحرية الجنسية

مشكلة خطيرة لم تدرس هناك دراسة جادة من جميع أوجهها .. وربما كان تقرير «كنزى» عن السلوك الجنسى للرجل الأمريكى ، والسلوك الجنسى للمرأة الأمريكية أول محاولة «علمية» لهذه الدراسة . وقد أثبتت انتشار هذا الشذوذ فى الجنسين . ولكن هذه الدراسة تسجل وتحصى ، ولا تشرح الأسباب ولا تقدم العلاج .

ولنا رأى فى هذا الشذوذ وانتشاره فى البلاد التى أباحت الاتصال الجنسى بلا حواجز ، والتى برزت فيها المرأة حتى صارت هى الجنس الغالب فى البيت وفى المجتمع .. رأى أثبتناه من قبل فى الكتب السابقة .

ولكننا هنا معنيون فقط بإثبات هذه الحقيقة ـ كما تسجلها المشاهدة والإحصاءات العلمية ـ وإثبات علاقتها الواضحة بالتحلل الجنسى الذى أصاب الجاهلية الحديثة بالسعار !

* * *

ثم تجىء تلك الفضائح التى أشرنا إليها فى الباب السابق [فى الأخلاق] ..

انهيار الأمم وعجزها عن الصمود فى حلبة الصراع ..

انتشار الفساد الخلقى حتى يصل إلى أجهزة الحكم ويعرض الدولة للأخطار .. من بيع الأسرار العسكرية ، إلى تمكين الجواسيس من التجسس فى مقابل المتاع الدنس .. والشذوذ .

فضيحة بروفيمو فى انجلترا .. والدبلوماسيين الأمريكيين ..

ويجىء تشرد الشباب وانحرافه .. فضلا على شذوذه ..

وتجىء نذر الخطر بأن شباب أكبر دولتين فى الجاهلية الحديثة ـ روسيا وأمريكا ـ شباب منحل داعر لا يؤتمن على مستقبل البلاد لانهماكه فى الشهوات ..

* * *

إنها نذر الفطرة ..

ليست المسألة محصورة فى «الأخلاق» بمعناها الضيق المتعارف عليه .

إنها أوسع من دلك جدًّا .. إنها مسألة هذا «الإنسان» ..

الإنسان الذى تدمره الإباحية المتحللة ، المرتكسة إلى عالم الحيوان .. بغير ضوابط الحيوان !

وفى كتاب «التطور والثبات» بينت أن هذه الإباحية ـ ونتائجها الحتمية ـ ليست خاصة بالجاهلية الحديثة وحدها ، فهى سمة لابد أن توجد فى كل جاهلية على ظهر الأرض . وجدت فى الجاهلية اليونانية ، والجاهلية الرومانية والجاهلية الفارسية .. ودمرتها . وتوجد اليوم فى الجاهلية الحديثة .. وهى فى طريقها إلى تدمير كيان الإنسان .

ولكن ينبغى أن نقرر أن نصيب الجاهلية الحديثة فى عملية التدمير هذه أبشع وأشد .. لأنها لا تكتفى كالجاهليات القديمة بترك الفساد يأخذ مجراه .. وإنما تسانده مساندة «علمية» !

فالنظريات والمذاهب التى تبرر الانحراف والتحلل قد وجدت ولا شك من قبل فى كل جاهلية ، ولكنها لم تلبس الثوب «العلمى» بقدر ما لبسته فى الجاهلية الحديثة التى تُلبس الدمار ثوب العلم وتشيعه فى الناس .

وبالإضافة إلى ذلك وسائل الإعلام .. الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون .. والصهيونية العالمية من وراء ذلك تبارك الفساد ، وتفرك يديها فرحاً بتدمير «الأميين» ..

* * *

ولم نشأ أن نأخذ الأمر من صورته «الخلقية» بمعناها الضيق لأن قوماً يظنون أن الأخلاق شىء آخر مختلف عن «الحياة» .

ولكن كيف رأينا من استعراض الواقع الذى تعيشه جاهلية القرن العشرين ؟

إن الذى ينظر الناس إليه على أنه فساد خلقى محصور فى دنيا الأخلاق ، هو فى حقيقته فساد مدمر للنفس والمجتمع ، يستشرى فى واقع الحياة ..

والفساد فى واقع الحياة هو فى النهاية فساد خلقى .. سواء كان فساداً سياسيا أو

اجتماعيا أو اقتصاديا أو جنسيا [أو فنيا] .. فهو فى النهاية فساد فى الفطرة البشرية . والأخلاق هى ضوابط الفطرة ، وليست شيئاً منفصلا عنها يعيش فى عالم النظريات .

وهذه الجاهلية الحديثة .. المتعلمة المتنورة المستبصرة .. هى أكثر الجاهليات عماية عن حقيقة الفطرة ، وعن ضوابط الفطرة التى تكوّن الأخلاق .

* * *

فى الفن ..

الفن صورة من الحياة .. ولا يملك إلا أن يكون كذلك !

وأصحاب المذاهب «الواقعية» الذين يتصايحون بأن الفن ينبغى أن يكون للواقع . وأنه لا يوجد شيء يسمى «الفن للفن» .. أولئك ما كان لهم أن يتصايحوا ! فالفترات ذاتها التى كان يبدو فيها أن الفن يُنْشَأ من أجل الفن لا من أجل الواقع . كان الفن فيها يعكس صورة «واقعية» من حياة الناس ! فلولا أنهم ـ لسبب من الأسباب ـ قد رغبت نفوسهم فى هذا اللون من الفن لما أمكن أن يوجد وأن يروج بين الناس ! والرمانتيكية ـ كمثال ـ إذا كانت تمثل الهروب من الواقع ، والجنوح إلى الخيال المفرط الغريب .. فليس ذلك لأن الفن فيها كان للفن .. وإنما لأن الناس فى تلك الفترة من تاريخهم كانوا يحبون الهروب من الواقع ، والجنوح إلى الخيال المفرط الغريب .. !

ومن ثم يكون الفن فى جميع أحواله صورة من الحياة .. حتى ولو كان يمثل الهروب من واقع الحياة !

* * *

تلك مقدمة لا تعنينا ـ إلا بقدَر ـ فى هذا البحث ! فمجالها الأصيل هو النقد الفنى[1] ! ولكنا نحتاج إليها هنا من حيث تعطينا المفتاح لفهم انحرافات الفنون الجاهلية ، التى تنشأ فى مجتمع جاهلى .. ولا تملك إلا أن تنحرف مع انحرافات الجاهلية . لأنها لا تملك ـ فى أية حالة ـ إلا أن تكون صورة من الحياة !

* * *

---

(١) ناقشنا كثيرًا من المفاهيم الفنية ، المستقيمة والمنحرفة ، فى كتاب «منهج الفن الإسلامى» وسنمر هنا بشىء من هذه القضايا ، ولكن مرورًا عابرًا بما يناسب موضوع هذا الكتاب .

أول ما يلفت النظر فى الفنون الغربية أنها فنون وثنية ! لا تنشأ إلا فى بيئة وثنية ، ولا تنشىء إلا إنسانا وثنيا فى نهاية المطاف !

وفى هذه الفنون روائع «إنسانية» بارعة ولا شك .. روائع عميقة وعالية معاً ، تلقى أضواء كاشفة على أغوار النفس الإنسانية ، وآمالها وآلامها ومسراتها وعذاباتها .. وترتفع بالمشاعر الإنسانية إلى عالم رفيع ..

ومن أجل هذه الروائع ـ فى داخل الفن الوثنى ـ ظن الناس أن الفن ينبغى أن يكون وثنيا ! وأن الاتجاه الوثنى فى الفنون حلية تتحلى بها هذه الفنون .. لتحسن وتجود !

والأمر فى هذه الروائع الفنية هو ذات الأمر بالنسبة لكل شىء فى الجاهلية . لا يمكن أن يكون شرا خالصاً ، ولا يمكن أن يكون خلوا من الخير . لأن النفس البشرية لا تستطيع ـ بمجموعها ـ أن تتمحض للشر ، ولابد ـ مهما فسدت ـ أن تظل فيها قطع من الخير متناثرة هنا وهناك .

ولكن هذا الخير المتناثر لا يستطيع أن يعفيها من وصمة الجاهلية ، ولا يستطيع أن يعفيها كذلك من تبعة الجاهلية .. وما يترتب على الانحراف من ازدياد مستمر يصل إلى البوار .

* * *

والظاهرة الغريبة فى الفن الغربى أنه ـ فى تاريخه كله ـ مشغول إما «بالآلهة» وإما بصراع الآلهة والإنسان ! ولست أدرى الآن ـ فإنى لم أدرس هذه الظاهرة بعد ـ وأرجو أن يتنبه لها غيرى ويدرسها ـ لست أدرى إلى أى حد يمكن أن تكون هذه سمة «بشرية» فى الإنتاج الفنى البشرى : أن يكون مشغولا إلى هذا الحد بفكرتى الله ، والإنسان ، وما بين الله والإنسان من صلات[1]

(١) ظاهر فى الفن الهندى أنه مشغول «بفناء» الإنسان فى الله .. أو فى الوجود الكلى الذى يرمز إلى الله أو يحل فيه الله . ولكنى لم أتبين هذا الاتجاه بوضوح فى الآداب الأخرى . وأرجو ـ كما قلت ـ أن يأخذ غيرى على عاتقه هذه الدراسة ، فهى ظاهرة تستأهل الدراسة حقا ، وربما ألقت ضوءا كاشفًا على تاريخ الفن ودلالاته .

ومن أجل هذه الظاهرة ـ بصفة خاصة ـ ظهر الفساد فى الفن الغربى .. لأنه يتتبع انحرافات العقيدة خطوة خطوة .. ويقع فيما تقع فيه العقيدة من انحرافات !

منذ بدء التاريخ الأوربى ، كان الفن اليونانى يمثل ـ حتى فى «أروع» إنتاجه ـ ذلك الصراع الكريه المنفر بين الآلهة وبين الإنسان .. وبين «القدر» وبين الإنسان .

كل المسرحيات اليونانية الشهيرة لا تخلو من آثار هذا الصراع ..

الإنسان يريد أن يثبت ذاته . وهو لا يرى طريقة لإثبات ذاته إلا أن يصارع القدر ويصارع الآلهة .. وفى كل مرة ـ تقريباً ـ يكون الإنسان على حق ، والقدر .. أو الآلهة .. هى التى تتحكم فيه لغير شىء سوى شهوة التحكم ، بلا منطق واضح ولا مبرر مفهوم !

وتقع المأساة حين يتحطم البطل ـ الصالح ـ على يد القدر ، أو على يد الآلهة الجبارة التى لا ترحم ، والتى تفتك بالبطل لغير معنى .. سوى عقابه على أن يتحدى الآلهة الجبارة ، ويريد أن يصبح إلهاً هو الآخر ، متحكماً فى مصير نفسه ، صانعاً تاريخه بيده .. غير مصيخ للقوى الخارجية التى تُخضع بجبروتها الإنسان .

ويظل فى نهاية المأساة هذا الإحساس : أن الإنسان خيّر .. ومظلوم . وأن الآلهة شريرة .. وظالمة . وأنه لا وسيلة للصلح بين الجبروت الظالم والخير المظلوم !

وفى ظل هذا التصور الجاهلى نبتت ـ كما قلنا ـ «روائع فنية» تلقى أضواء كاشفة على أغوار النفس البشرية ، وترتفع معها أحياناً إلى آفاق عليا .. ولكن الجو المسمم الذى يعطيه ذلك الصراع ، يفسد هذه الروعة الفنية ، ويلقى عليها ظله الكريه ..

وربما كان مفهوماً ـ من حيث التحليل النفسى ـ أن يوجد مثل هذا الانحراف فى طفولة البشرية التى تمثلها الفترة اليونانية .. ففى الطفولة ـ المنحرفة ـ يحب الطفل أن يثبت ذاته بأن يرفض اليد «العليا» التى توجهه ! كأنه يحس فى ظل هذه اليد الموجهة معنى العجز والضآلة ! وأن الشخص «الكبير» لا يخضع لأحد ...إلا ذات نفسه .. ومن ثم ـ لكى يحس أنه كبير ـ يخرج على توجيه الكبار .. ويتحداهم . ويحس ـ حين يصل الانحراف أقصاه ـ أن الكبار يريدون أن يحطموه ويصغروا من شأنه .. وكلما زاد خروجًا عليهم ، وزادوا توجيهًا له ، زاد هو نفورًا وحقدًا على هذا التوجيه .. وود لو يرد على هؤلاء الكبار بتحطيمهم أجمعين !

هذا انحراف خطر يعرفه علم النفس التحليلي معرفة وثيقة !

ولقد كان هو ذات الانحراف ـ أو شبيهه ـ الذى استولى على النفس اليونانية فى جاهليتها . فأنتجت هذا السيل من الفن ـ «الرائع» فى بعض جوانبه ـ والذى لا يسلم من هذا الظل الكريه الذى يلقيه الصراع البشع الدائر بين الآلهة والإنسان ..

وليست أسطورة بروميثيوس وحدها هى التى تشير إلى هذا الصراع .. ولكنها جملة أساطير . سجلتها المسرحيات اليونانية فى مختلف العصور ..

وهو انحراف .. حتى بالنسبة للطفولة البشرية ! فليس كل طفل يشعر بذلك نحو الكبار . وإنما هو فى صورته السوية يبادلهم الحب . وقد يتألم أحياناً من توجيهاتهم لأنها تؤذيه فى ذات نفسه ـ والنفس بطبيعتها تكره النقد وتحب المديح ـ وقد يحب كذلك أن يثبت ذاته بأن يعتمد على نفسه فيما كان يتلقى فيه العون من قبل من الكبار .. ولكن لا يصل الأمر إلى الحقد والكراهية والرغبة فى التحطيم . وتصور رغبة الآخرين فى تحطيمه . إلا حين يكون فى الأمر انحراف ..

وفى الجاهلية اليونانية كان ذلك الانحراف . الذى انعكس فى فنهم واضحاً . لأن الفن صورة من النفس وصورة من الحياة ..

* * *

تلك سمة من سمات الجاهلية اليونانية . فى الحياة والفن ..

وسمة أخرى هى عبادة الجسد .. عبادة وثنية تجعل من الجسم الجميل إلهاً يعبد . وتقدم له القرابين .. ويزعم لها الزاعمون أنها ليست شهوة .. وإنما هى فن ! فن يعجب بالنسب والأبعاد ، بالجمال المجرد . وإن كان يتجسم فى جسد إنسان !

وفى الجاهليات ـ من هذا النوع ـ مزاعم كثيرة .. لا تثبت للتمحيص ..

فواقع الحياة اليونانية ـ التى زعمت أنها تعبد الجمال جمالا مجرداً من شهوة الجسد ـ كان هذا الواقع يعج بالمباذل الخلقية التى دمرت فى النهاية حضارة اليونان .. كما أن أساطير «الحب» والجمال عند الإغريق . حافلة بهذه المباذل التى يغرق فيها البشر والآلهة إلى الأذقان !

لقد كانت إذن شهوة هذا الجسد . تتستر وراء عبادة الجمال !

* * *

هذان الانحرافان الجاهليان فى الجاهلية اليونانية القديمة ، ألقيا ظلهما طويلا ، وطويلا جدا ، على الفنون الغربية منذ عصر النهضة إلى العصر الحديث ..

فبعد الفترة المسيحية - القصيرة نسبيا - التى شغل الفن فيها «بالإله» على الصورة التى قدمتها الكنيسة الغربية ، وامتد فيها ظل الجاهلية اليونانية والرومانية معاً فى تجسيد الإله وعبادته فى صورة وثن حسى ملموس ، فى التماثيل العديدة التى قامت لهذا الشأن[1] .

بعد هذه الفترة عادت الهيلينية منذ عصر النهضة تحكم الاتجاهات الفكرية والفنية حكما واضحاً صريحاً .. وترد الناس إلى وثنية اليونان كاملة فى كل شىء ..

ولقد مرت على أوروبا فترة عاشت فيها بشخصية مزدوجة ، مسيحية وهيلينية فى ذات الوقت . مسيحية فى العقيدة ، وهيلينية فى التفكير والفن .. ثم جنحت رويداً رويداً إلى الوثنية الكاملة فى كل شىء ..

وجاء الوقت الذى عبدت فيه أوروبا «الطبيعة» وهى هاربة من الكنيسة وإلهها الذى تستعبد به الناس !

هذه الفترة تتوافق - فى تاريخ الفن الأوربى - مع الحركة الرومانتيكية .. إنها مرة أخرى فن مشغول «بالإله» ولكن على انحراف فى تصور الإله !

إن الحركة الرومانتيكية لم تكن حركة «إعجاب» بالطبيعة .. وإنما كانت «عبادة» للطبيعة ..

وذلك هو مصدر الانحراف فيها !

التجاوب مع الطبيعة شعور إنسانى أصيل .. عميق فى أعماق الفطرة . فقد خلق الإنسان وفى فطرته هذا التجاوب الحىّ مع الأحياء الآخرين ومع الكون .. كما خلق وفى فطرته هذا السرور الخفى «بالجمال» : أبعاده ومقاييسه ، وألوانه وظلاله ، وكل صورة من صوره ..

---

(1) مما هو جدير بالذكر أنه بعد احتكاك المسيحيين بالمسلمين فى العصور الوسطى قامت فى أوروبا الحركة الشهيرة المعروفة بحركة تحطيم التماثيل ، التى كان رائدها ليو الثالث The Iconoclast فى القرن الثامن ، واستمرت مائة وعشرين سنة من تاريخ الكنيسة الأوروبية . ولكنها لم تستطع أن تتغلب على هذه الرغبة الوثنية فى تصوير «الإله» فى صورة محسوسة !

وإذن فلا انحراف فى «الإعجاب» بالجمال .. بل هو الأمر الطبيعى الذى يعتبر غيابه نقصاً فى الكيان البشرى ، وانحرافاً عن الفطرة السليمة .

ولكن «عبادة» الجمال ـ فى أية صورة من صوره ـ هى انحراف وثنى . لا تلجأ إليه الفطرة السليمة ، التى تعبد الله خالق الجمال ، وتعبده من خلال الإعجاب بالجمال . ولكنها لا تجعل عبادته فى داخل هذا الوثن الذى اسمه الجمال !

وفرق بين الاثنين واسع كبير !

وكل الكلام «الجميل» المعسول الذى قيل لتبرير هذه الوثنية : أن الطبيعة «محراب» الله . أن الجمال «صورة» الله . أننا نعبد الله فى خلقه .. إلى آخر هذه الجمل «الرومانتيكية» البراقة .. كل هذا الكلام لا يستطيع أن يخفى تلك الروح الوثنية الغارقة فى الوثنية ، التى تعبد «المحسوس» فى حقيقة الأمر . لأنها تعجز عن إدراك «الله» بالروح .. والروح غنية عن المحسوسات !

وقد كانت الرومانتيكية ـ بهذا المعنى ـ حركة وثنية منحرفة .. بصرف النظر عما يراه فيها «الواقعيون» من أنها كانت منحرفة لأنها لا تعيش فى «الواقع» ولأنها تمثل حركة هروب من الحياة[1] .

* * *

ومن الرومانتيكية «المنحرفة»[2] انتقلت أوروبا إلى جاهلية فنية جديدة .. هى «الواقعية» المنحرفة !

---

(١) سبق أن بينا فى مقدمة الحديث عن الفن أن الرومانتيكية لم تكن انحرافًا عن «الواقع» ! فقد كان الواقع فى تلك الفترة هو «الهروب» .. الهروب من الكنيسة ومظالمها . والإقطاع ومظالمه .. وكل الواقع السيىء الذى كانت تعيشه أوروبا ، وتعجز ـ فى ذلك الحين ـ عن تغييره . فهى إذن واقعية فى تصوير الحالة النفسية للناس فى وقتها . ونضيف هنا أنها كانت واقعية أيضًا فى تصوير «عبادة الطبيعة» التى لجأ الناس إليها هروبًا من إله الكنيسة . ولكن الانحراف الحقيقى فيها هو هذه الوثنية التى تحول عبادة الله إلى عبادة المحسوس .

(٢) منحرفة بالمقاييس التى بيناها فى هذا الفصل ، لا بالمقاييس الفنية الأوروبية التى لا تدرك ما فى طبيعتها من انحراف !

وكان ذلك ـ مرة أخرى ـ يمثل تحولا فى العبادة ، وتحولا فى الإلٰه !

بطلت عبادة الطبيعة .. حين كشفت «أسرارها» وسيطر العلم الإنسانى عليها ـ كما تصورت أوروبا ـ وبردت حرارتها .. وانتقل الإنسان إلى عبادة جديدة فى ظل الانقلاب الصناعى . والفتنة بالعلم ومخترعاته . والفتنة بقدرة «الإنسان» .

وكانت العبادة الجديدة هى عبادة الإنسان !

لقد آن أن ينفض الإنسان عن نفسه عبادة «الله» . التى اعتنقها فى فترة جهله وعجزه . وأن يصبح هو الله !

ومرة أخرى تتبع الفن الغربى الإلٰه الجديد .. فوجه اهتمامه ـ بدلا من الطبيعة ـ إلى الإنسان !

ومرة أخرى نقول إن «الاهتمام» بالإنسان ليس فى ذاته انحرافا .. فى الفن أو فى واقع الحياة . فمن الأمور الطبيعية البديهية أن يهتم الإنسان بنفسه ، وبتصوير حياته وانفعالاته ، ومشاكله وصراعاته ، وجهاده وكدحه على وجه الأرض ..

ولكن الانحراف هو «عبادة» الإنسان

وقد كان اهتمام الفن الأوروبى بالإنسان فى هذه الفترة «تحديا» للإلٰه !

فليس الأمر مقصورا على إبعاد الله البتة من مجال الفن . وتحريم المشاعر الدينية والأفكار «المستقيمة» على الجو الفنى . بل تعداه إلى السخرية العنيفة ـ المقصودة ـ بكل شعور دينى . وبكل توجه إلى الله !

ولم يكن الأمر كذلك مقصورا على السخرية «برجال الدين» المنحرفين .. ففى وسع الفنان أن يسخر ما شاء من «رجل الدين» المنحرف . ليعيد للدين الحقيق وقاره ، ويرسخه ـ فى صورته الصافية ـ فى قلوب الناس ووجدانهم .

ولكن فن هذه الفترة لم يكن يسخر برجل الدين ليرد للدين الصحيح اعتباره وصفاءه وقداسته .. وإنما هو يستتر وراء رجل الدين . ليسخر فى الحقيقة من مفاهيم الدين كلها ، ومن «سذاجة» الإيمان بالله !

وانتشر الأدب «الإلحادى» فى كل الأرض .. أدب مليء بالتوقح على الله . والسخرية من عبادة الله .. وسمى هذا «تحررا فكريا» ليس غير .. !

* * *

ولكن فى ذات الوقت كان تياران جاهليان آخران يجرفان الفن «الواقعى» فى طريق الانحراف .

التفسير الحيوانى للإنسان .. والتفسير الجنسى للسلوك .

التفسير الحيوانى للإنسان ألقى ظله على لون من الفن الواقعى سماه أصحابه الفن «الطبيعى» .. يصور الإنسان مجموعة من السفالات ممتدة بغير حد ! فالإنسان سافل بطبعه ، دنىء ، مخاتل ، مخادع ، انتهازى لا مبادىء له ولا أخلاق . وإنما هو يلجأ إلى «التظاهر» بالأخلاق والمبادىء نفاقا .. من أجل المجتمع ! [لم يقل أحد من هؤلاء الناس جميعا لماذا يترضى الإنسان المجتمع «بالتظاهر» بالأخلاق والمبادىء !! ألم تكن لهذه الظاهرة ـ على فرض صحتها ـ دلالة ما على كيان الإنسان ؟!] .

والتفسير الجنسى للسلوك أنشأ «فنا» كاملا قائما بذاته .. الأدب المكشوف ، والصور العارية ، والسينما العارية ، والقصة العارية ، والأغنية المثيرة ، والنكتة المصورة العريانة .. و ..

وراج هذا «الفن» .. أو «رُوِّج» كما لم يحدث قط فى التاريخ .

وكانت وراء ذلك الصهيونية العالمية تدمر كيان «الأميين» .

* * *

ولكن «الانحرافات» لم تقف عند حد .

لابد أن يتبع الفن كل انحرافات التصور وانحرافات السلوك .. لأنه ـ فى كل حالة من حالاته ـ صورة من الحياة .

إن «الجزئية» التى وسمت بطابعها التصور الإنسانى للنفس البشرية ، قد ألقت ظلها كذلك على الفنون .

فمن نظريات فرويد عن العقل الباطن ـ وأنه هو ـ لا العقل الواعى ـ حقيقة الإنسان ـ نشأت السريالية فى الأدب والفن ، ونشأ الفن التجريدى .. وغيره من «تقاليع» الفن الحديث .. كلها تقوم على أساس أن العقل الواعى هو الجزء المزور من الإنسان ، الذى لا يمثل حقيقته الباطنية العميقة الأصيلة ! وإنما يمثلها فقط ذلك العقل الباطن ، «المنكوش» غير المرتب ، الذى يقبع فى أعماق الإنسان !

وهو انحراف ظاهر البطلان .

فما الذى يمنع ـ فى المنطق الإنسانى ـ أن يكون العقل الباطن والواعى معاً هما الإنسان ؟!

وتلك حقيقة أولية بسيطة عرفها الإنسان منذ حاول أن يعرف نفسه ، قبل أن يتفلسف فرويد ، ويأتى بهذا العجب العجاب ! فقد عرف الإنسان أن له «أفكارا» منظمة مرتبة ، و«مشاعر» غير منطقية ولا مرتبة بمنطق الذهن .. وأن هذه وتلك معاً تكوّنان الإنسان !

ومن «الفردية» المنحرفة نشأت الفنون التى تحارب «المجتمع» وتحاول هدمه وتحطيمه .. وفى مقدمتها الوجودية .. التى تقوم على عبادة «الفرد» . وأنه هو وحده الحكم فيما يأتى من الأمر . ليس لأحد ـ من «المجتمع» ـ أن يحدد له مفاهيمه ، أو أخلاقه ، أو تقاليده ، أو عقائده ، أو تصرفاته ، أو سلوكه .. ولا تنظر هذه الوجودية الحمقاء كيف يصير ذلك «الفرد» المقدس ذاته حين ينهار «المجتمع» ويصبح مجرد «أفراد» .. كل منهم يحكّم هواه ، بلا ضابط ، ولا عرف ، ولا معيار ثابت للأشياء !

* * *

ومن التطور الذى «يخبط خبط عشواء» والكون الذى وجد «مصادفة» والوجود الذى «ليس له غاية ولا خالق مدبر» .. نشأ فرع آخر من «الوجودية» ، يمثل «الضياع» !

واسأل إن شئت كيف يتمثل «الوجود» فى «الضياع» !

اسأل الوجودىّ «الكبير» ألبير كامو .. الذى يصور حيرة الإنسان إزاء الكون .. وشعوره بالضياع والضآلة والقلق والاضطراب . لأنه لا «حكمة» وراء وجوده ولا «تدبير» ..

* * *

ثم انحرف الفن انحرافا جذريا آخر .. وراء «المعبود» الجديد !

لقد بطلت ـ أو أخذت تبطل ـ عبادة الإنسان .. وتلتها عبادة الآلهة الجديدة .. الحتميات ..

واتجه الفن ، المشغول بالإله المعبود بصورة ظاهرة .. اتجه إلى عبادة الحتميات ، يفسر من خلالها الإنسان .

لم يعد الإنسان فى ذاته هو موضوع الفن .. فى المذاهب الحديثة التى تسمى المذاهب الاجتماعية وما شابه ذلك من الأسماء[1] . وإنما صار الإنسان مجرد إطار للألوهية الجديدة . تدرس من خلاله الحتمية الاجتماعية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية التاريخية ..

فحياة الإنسان شىء ثانوى فى هذا الفن . والشىء الرئيسى هو «الطور» الاجتماعى أو الاقتصادى أو التاريخى ، الذى يصوغ هذه الحياة ، والناس مجرد أشباح تحركها هذه الحتميات كرهاً عنها لتضعها فى مكانها الحتمى من الصورة ، لا إرادة لها فى تصرفاتها ولا اختيار ..

وصارت هذه الحتميات هى «القَدَر» الجديد الذى يسير حياة الإنسان .
ولكنه فى هذه المرة ليس القدر اليونانى القديم ، المغيّب عن العين ، والمغيّب عن الإدراك . إنه قدر مدرَك ، منظور ، يقاس بالنوع والكم ، والأطوال والأبعاد .. ومع ذلك يقوم بين الإنسان وبينه ذات الصراع الذى كان يقوم بين الإنسان وقدر الإغريق القدماء .. مع الفارق .. أن الآلهة الحتمية هنا على حق فيما تفعل .. لا تخبط خبط عشواء ! ومع فارق آخر أسوأ : أن «الإنسان» لم يعد يصارع ليثبت ذاته .. فقد ضاع ـ فى ظل هذه الحتميات ـ وجود الإنسان ! وإنما يصارع لأنه غلطان !

* * *

فى ظل هذه السلسلة المتوالية من الانحرافات الجاهلية أنتج الفن الأوربى روائع إنسانية بارعة .. !

ولكنها روائع مشوهة بسبب ذلك الانحراف !
إن ما فيها من روعة الأداء [«التكنيك»] ومن روعة التصوير لجوانب من النفس

---

(١) الأدب «الملتزم» مذهب من مذاهب الجاهلية الحديثة ! يلتزم بالتفسيرات المادية للحياة البشرية ويسمى ذلك التزامًا «بالقيم» الاجتماعية !

البشرية ودقائق الحياة ليأخذ الإنسان .. فيتمنى أن لو كانت سلمت من هذه الانحرافات الجاهلية التى تفسد ما فيها من جمال !

ولاشك أن قلة منها قد نجت من لعنة الانحراف .. فما يمكن ـ كما كررنا مراراً من قبل ـ أن تتمحض النفس البشرية للشر ، ولا يكون فيها خير على الإطلاق ..

هذه القلة النادرة هى الفن الحقيقى الصافى ، الجدير بالوجود فى سجل البشرية الفنى ..

ولكن كثرة من «الروائع» قد لوثها الانحراف من هنا ومن هناك . فصارت كالوجه الجميل الذى شوهته آثار «ماء النار» ! تحس أنه «كان» جميلا ، وترى فيه مواضع التشويه ..

أما غير الروائع .. وهى من حيث الكم الجزء الأكبر من الفن الغربى المعاصر [ومن كل فن !] فالبضاعة الأصلية فيها ليست الجمال ، وإنما الانحراف !

الأدب الجنسى كله .. الذى يصور الحياة كلها كأنها لحظة جنس طاغية مسعورة .. لا هو فن ولا جمال .. ولا حقيقة ! فليست الحقيقة البشرية هى ذلك السعار !

والأدب «المتهوس» كله .. الذى يصور هلوسة العقل الباطن على أنها حقيقة الإنسان .. لا هو فن ولا جمال ولا حقيقة .. فليست حقيقة الإنسان هلوسة بلا دليل !

وأخيراً جاء اللامعقول !

إنه قمة الخبل الأوربى فى عصره الحديث !

جاء نتيجة اليأس القاتل من كل «التجارب» البشرية المنحرفة عن منهج الله !

لقد جربت تلك البشرية الضالة كل أنواع التجارب بعيداً عن منهج الله .. فأعثرتها !

جربت المادية الطاغية .. وجربت الرأسمالية الطاغية .. وجربت الشيوعية الطاغية .. وجربت الفردية الطاغية .. وجربت الجماعية الطاغية ..

وكل هذه التجارب لم تمنح البشرية الهدوء والطمأنينة واليقين ..

من أجل ذلك كفرت بهذه التجارب كلها التى أنشأها «العقل» البشرى ..

وارتدت إلى اللامعقول !

سواء كانت العاطفة الجامحة التى لايمسكها دليل العقل ، أو الهلوسة الباطنية التى

لا يحكمها التفكير المنظم .. أو .. ؟ كلها انفلات من المعقول إلى اللامعقول ..

وهى جاهلية جديدة .. لأنها لا « تهتدى » إلى يقين تفر إليه من القلق والحيرة والاضطراب والشكوك !

وتلك هى صفحة الفن الغربى .. بكل « روائعه » المرموقة ..

صفحة من الجاهلية المتصلة من لدن جاهلية اليونان إلى جاهلية القرن العشرين !

وهى ـ ككل شىء فى هذه الجاهلية ـ براعات فائقة ولكنها مضيعة .. مضيعة لأنها لاتعرف سبيل الرشاد !

ولم يكن الفن قادراً ـ فى ظل الجاهلية الطاغية ـ أن ينجو بنفسه ، ويسير بعيداً عن الانحراف ..

فالفن ـ فى جميع حالاته ـ صورة من الحياة !

* * *

فى كل شى .. !

ماذا بقى فى هذه الجاهلية بلا انحراف ؟ !

لقد تتبعناها فى كل مجال من مجالاتها .. فى النفس والمجتمع .. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .. فى الأخلاق والفن .. فى التصور والسلوك .. فهل أبقت شيئا من حياة الإنسان لم يتطرق له الفساد ؟ !

شىء واحد يبهر الناس بشدة فى هذه الجاهلية ..

إنه العلم . والتيسيرات الضخمة التى أدخلها العلم على حياة الإنسان . والإمكانيات الضخمة التى فتح العلم مجالها أمام الإنسان .. والتنظيمات الهائلة التى أقدر العلم عليها الإنسان ..

من أجل ذلك يُقبلون على هذه الجاهلية وينهلون من منابعها .. متصورين ــ فى وهم جاهلى ضخم ــ أنه مادام العلم صاعدا ومتقدما ، فالحياة البشرية كلها لابد أن تكون صاعدة ومتقدمة ، وسائرة على صواب !

وهم من أوهام الجاهلية .. له أمثال كثيرة فى التاريخ .

فكل جاهلية ذات حضارة ، كانت تظن أن حضارتها ــ المنحرفة ــ هى الخير والبركة والارتفاع الذى ليس وراءه ارتفاع .

وكانت النتيجة الحتمية واحدة فى النهاية .. انهارت تلك الحضارات .. أو تلك الجاهليات ، بحكم مافيها من جاهلية وانحراف .

و « العلم » ليس نتاج الجاهلية !

العلم خط بشرى صاعد أبدا لا يتوقف ــ إلا نادرا ــ فى خط سير البشرية !

وهو طاقة محايدة .. لاتوصف ــ فى ذاتها ــ بالخير ولا بالشر . ولكنها تعمل فى خدمة « السيد » الذى يسيطر عليها . و « تتقدم » بالخير وبالشر سواء !

إن الدافع الأكبر للعلم هو الطبيعة البشرية ذاتها كما خلقها الله محبة للمعرفة ، تواقة إلى القوة ، متطلعة إلى المزيد من السيطرة على طاقات الكون .

وهو بهذا بعيد عن مكان الخير والشر فى كيان الإنسان .

إنه كامن فى « عقله » لا فى « ضميره » .

والعقل لايتوقف ـ إلا نادرا ـ فى خط سير البشرية !

ولذلك يتقدم العلم ولايتوقف ، فى الهدى وفى الضلال سواء !

إنما الذى يتأثر بالهدى والضلال هو الطريقة التى يستخدم فيها العلم ، والمجال الذى يستخدم فيه !

* * *

يجب الفصل إذن بين العلم وبين الجاهلية ..

لا العلم من منشآت هذه الجاهلية حتى يُحْرَص عليها من أجله ، ولا هو عرضة للتوقف إذا انهارت هذه الجاهلية وحل محلها منهج الله !

ولقد عرفت البشرية من قبل منهج الله ، فكان هو ذاته الذى بعث العلم من شتاته الضائع ، وحركه أكبر حركة فى تاريخ العلم يومئذ .. الحركة التى وجهت أوربا ـ باحتكاكها بالمسلمين فى المغرب والأندلس ـ إلى المذهب التجريبى ، وكل ماتنتج عنه بعد ذلك من نتائج باهرة ماتزال فى الازدياد !

* * *

ليس العلم من نتاج الجاهلية الحديثة .. بل الجاهلية الحديثة هى التى توجهه فى سبيل الشر وفى سبيل التدمير !

إنما هو نتاج « بشرى » ضارب بجذوره فى التاريخ ، ظلت تسلمه أمة إلى أمة حتى وقع اليوم فى يد أوربا . ففتحت به فتوحا ضخمة ، ولكنها كذلك انحرفت به عن السبيل ، فأفسدت الأخلاق وهددت العالم بالتدمير ..

فإذا أخرجنا العلم من حصيلة الجاهلية الحديثة .. فلن يبقى لها إلا الجاهلية العمياء ..

هنالك ـ حقا ـ خير متناثر فى كل الأرض ..

هنالك تحقيقات مختلفة لكيان الإنسان .. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفن .. هنالك عدالة جزئية وفضائل جزئية ومكاسب جزئية حصل عليها الإنسان ..

وهى ضخمة فى ظاهرها .. لأن كل شىء فى العصر الحديث يتسم بالضخامة .

ولكن المقياس الحقيقى لمقدارها ينبغى أن يكون بالقياس إلى الشر المستشرى فى كل الأرض ، والظلم الطاغى فى كل مكان ..

وينبغى ألا ننسى ــ فى ظل الخير المتناثر ــ رغم ضخامته ــ مدى هذا الشر الغائل لكيان الإنسان ..

فلنتذكر ..

دكتاتورية رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا ، ومايفرضانه من المذلة على كيان الإنسان .

الملكية الطاغية التى تستعبد غير المالكين .. وانتزاع الملكية الطاغى الذى يستعبد غير المالكين !

الفردية الطاغية التى تدمر المجتمع .. والجماعية الطاغية التى تسحق كيان الفرد ..

التدهور المستمر فى الأخلاق ..

الفساد الحادث فى علاقات الجنسين ، وما ينشئه فى النفس والمجتمع من شقاء بالغ وقلق واضطراب ، فى حياة الرجل والمرأة والأطفال .

التوجيه الفاسد فى الفن ، الذى يعود فينعكس على النفس فيفسدها ..

الـ ... الـ ...

لاشىء نجا من هذا الطغيان ..

والخير المتناثر فى كل الأرض .. على ضخامته .. جد ضئيل حين يقاس إلى هذا الشر ..

فتات يتساقط من أيدى الطاغوت ، ليلهى البشرية ! وليبقى الطاغوت ــ وحده ــ مستمتعاً بجميع المنافع .. وبالسلطان !

* * *

على أن هناك أمراً خطيراً فى شأن الجاهلية الضاربة اليوم فى أعماق الأرض ..

فسواء رضى الناس بالعبودية للطاغوت واستكانوا إليه ، أم سخطوا استعداداً لإزالته من على كاهلهم .. فمصير الجاهلية الطاغية ليس متروكا لاختيار الناس !

هنالك « حتميات » فى أقدار الناس .. حتميات حقيقية لأنها من صنع الله .

ومن هذه الحتميات أن هذه الجاهلية لاتستطيع أن تبقى إلى الأبد مسيطرة على أقدار الناس .. فإنها ـ لابد ـ ستنهار ..

تنهار بحكم مافيها من شر غالب .. « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »[1] .

ولكن سنة الله التى فرضت انهيار الجاهلية ـ بصورة حتمية ـ لما فيها من شر ، لم تفرض أن يعقبها ـ آلياً ـ حكم الخير !

إنما « الناس » هم الذين يختارون لأنفسهم مايحل بهم بعد انهيار الطاغوت .. إما الهدى وإما الخضوع لطاغوت آخر ، يتلقف الشاردين فى الجاهلية بعيداً عن منهج الله ، فيستعبدهم بالطغيان .. كما انهار طاغوت الرأسمالية ـ أو كاد ـ فتلقف منه طاغوت الجماعية ما كان بيده من سلطان !

« إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[2] .

من أجل ذلك كان لابد للناس أن يفكروا لأنفسهم .. قبل الانهيار ! هل يعدون أنفسهم لطاغوت آخر أم يبحثون عن العلاج ..

وما العلاج ؟ !

---

(١) سورة الأحزاب [٦٢] .

(٢) سورة الرعد [١١] .

لابدّ من الإسلام !

حين قال برتراند راسل كلمته المشهورة : « لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الأبيض ... » لم يكن « يتنبأ » بنبوءة .. وإنما كان يقرر حقيقة واقعة فى الأرض . حقيقة كان الفيلسوف المعاصر « يراها » بذهنه الثاقب . وإن كان لايراها الدهماء من البشر على سطح الأرض ، وفى مقدمتهم دهماء « المثقفين » !

والحقيقة التى كان يراها ذلك الفيلسوف ـ وإن كانت رؤية جزئية غير كاملة ، لأنه هو ذاته يعيش فى ظل الجاهلية الحديثة ، ويتأثر بمفاهيمها وتياراتها ـ هذه الحقيقة هى أن هذه الجاهلية كلها تؤذن بالانهيار ..

إن حضارة « الرجل الأبيض » قد أخذت مداها من الهبوط والانحراف .. ومن ثمّ **فلابد** لها أن تنهار ..

ولكن انهيارها ـ كما قلنا فى نهاية الفصل السابق ـ لايترتب عليه ـ آليا ـ أن يحكم الخير مقادير البشرية !

إن انهيار الجاهلية ـ أى جاهلية ـ يترتب عليه فقط أن يتيح الفرصة للناس ، ليقيموا حياتهم على الخير.. حين يهتدون إلى منهج الله ، ويؤمنون بأنه الحق من ربهم ، وأنه سبيل الخلاص ..

فإذا لم ينتهز الناس هذه الفرصة .. ولم يسعوا سعياً جادا إلى إقامة منهج الله فى الأرض .. فلن يحكم الخير ـ آليا ـ فى حياة الناس .. وإنما ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية ، ومن طاغوت إلى طاغوت جديد .

* * *

غير أننا نرى فى هذه المرة أنه لا مجال للاختيار !

لقد جربت البشرية فى هذه الجاهلية الحديثة كل نظام يمكن أن يخطر فى بال الإنسان .. الفردية والجماعية .. الرأسمالية والشيوعية .. الملكية واللاملكية ..

وجربت المتاع الحسى المنطلق بلا غاية .. فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس .. والجنس ..

وجربت الإيمان بكل « إله » من صنع الإنسان .. والإنسان المتأله .. والإلحاد بكل إله ..

ثم .. ؟

ثم ازدادت مع كل تجربة حيرتها وشقاؤها واضطرابها وخلخلة روابطها .. حتى جنت أو كادت تجن !

ومن ثم .. فلم يعد هناك مجال للاختيار !

إما الله .. وإما الانهيار !

* * *

ولسنا نتنبأ بما يحدث غداً للبشرية ..

« قل : لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله »(١)

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً »(٢)

ولكننا فقط نستقرئ سنة الله : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »(٣)

وسنة الله توحى ـ بعد هذه التجارب المريرة التى مرت بها البشرية فى الجاهلية الحديثة ـ بأنه إما الهدى وإما الدمار ..

إن الجاهليات تظل تعيش ، بمقدار مافيها من خير متناثر ، حتى يغلب مافيها من شر طاغ ، فيختنق الخير ولايكاد يستطيع أن يتنفس ..

وحين تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء ، تتدخل إرادة الله ، فتحدث التغيير. ولكنها تحدثه من خلال سعى البشر وحركتهم :

---

(١) سورة النمل [٦٥] .

(٢) سورة لقمان [٣٤] .

(٣) سورة الأحزاب [٦٢] .

« إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1]

تتدخل تدخلا حاسماً فتخسف الأرض بالطغيان كله ..

أو .. تهدى الناس إلى الله .. فيدخل الناس ـ أفواجاً ـ فى دين الله .

ونحن على أبواب تدخل سافر من تدخلات الإرادة الإلهية الحاسمة .. لأن الطاغوت الحاكم فى الأرض وصل إلى حد حاسم . وانقلب الخير حسيراً لايملك أمراً فى ظل الطاغوت ..

والناس يختارون لأنفسهم ..

إما التدمير الشامل إن ظلوا فيماهم فيه من الشرود عن المنهج الحق .

وإما الهدى إلى دين الله .. والثبات والطمأنينة والاستقرار .

ونحن أحسن ظنا بالبشرية ، وبقدر الله ، من أن نظن أن الله ـ سبحانه ـ قد كتب على البشرية الدمار !

وإذن . فلابد من الإسلام .

« إن الدين عند الله الإسلام[2] .

* * *

لامخلص للناس من جاهليتهم وضلالهم ، وشقائهم وحيرتهم ، وقلقهم واضطرابهم ، وتمزق حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم .. إلا بالإسلام !

ولم يكن للناس مخلص من الجاهلية فى تاريخهم كله .. إلا بالإسلام بمعناه الواسع الشامل .. الإسلام الذى جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم .

وقد اكتمل « الإسلام » فى دين الله الأخير ..

---

(١) سورة الرعد [١١] .

(٢) سورة آل عمران [١٩] .

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »[1] .

وهذا الإسلام ـ فى صورته الأخيرة المكتملة ـ هو العلاج الوحيد لكل جاهليات الأرض ، ولهذه الجاهلية الحديثة على وجه التخصيص .

إن الإسلام هو الذى يعطى الوضع الصحيح لكل ما انحرفت به الجاهلية : فى التصور والسلوك . فى السياسة والاجتماع والاقتصاد .. فى الأخلاق والفن وعلاقات الجنسين .. وكل شىء فى حياة الإنسان ..

وسنتتبع فى هذا الفصل مفاهيم الإسلام فى هذه الأمور ، لنرى ـ بعد أن شهدنا الجاهلية الحديثة تفسد كل كيان الإنسان وحياته ، وتشيع الخلل والاضطراب فى جميع شئونه ـ كيف يرد الإسلام الأمور إلى مكانها الحق ، الواضح ، المستقيم .. فتستقيم حياة الإنسان فى مجموعها ، حين تستقر الكليات والجزئيات فى مكانها الصحيح .

انحرفت الجاهلية فى تصورها لله ، والكون والحياة والإنسان ..

ومن انحرافها فى هذه التصورات انحرفت فى سلوكها كله : فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفن ..

وسنرى كيف تستقيم هذه الأمور كلها حين يستقيم التصور فى فكر الإنسان وضميره .. لأن التصور هو الأصل الذى ينشأ عنه السلوك ، فينحرف بانحرافه أو يستقيم ..

ولقد استقام هذا التصور مرة فى حياة البشرية .. على يدى رسول الله ﷺ ، والأمة المسلمة التى رباها على عينه ، والتى قال فيها خالقها : «كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله»[2] .. وعندئذ استقامت شئون الحياة كلها ، فى جميع فروعها وميادينها .. وقامت أكبر حركة بعث فى التاريخ ..

وانطلقت الحركة المهتدية بمنهج الله ، تنشر الهدى فى كل الأرض ..

وعلى الرغم مما أصاب المسلمين من انحراف تدريجى عن هذا المنهج ، فقد ظلوا قبسا منيرا فى كل الأرض ، يعلّمون الناس ويهدونهم إلى سواء السبيل .. حتى انحسروا فى

---

(١) سورة المائدة [٣] .

(٢) سورة آل عمران [١١٠] .

داخل أنفسهم ، وكفوا عن الحركة والانطلاق .. وعندئذ انقضّت عليهم الجاهلية الحديثة تغمرهم بظلامها البالغ فى الطغيان .. حتى خرجوا من دين الله واتبعوا خطوات الشيطان[1] ..

ومهما يكن أمر « المسلمين » اليوم .. فالإسلام ليس مقيدا بهم ولا متوقفاً عليهم ! الإسلام نور الله لكل البشرية .. والباب المفتوح لكل بنى الإنسان ..

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[2] » « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[3] .

* * *

كل ما انحرفت به الجاهلية الحديثة يصححه الإسلام ..

وقد كان الانحراف الأكبر الذى أنشأ الجاهلية كلها ، وترتب عليه ماترتب من فساد فى التصور والسلوك ، وشقاء فى حياة الناس وقلق وحيرة واضطراب .. هو انحرافهم فى تصور حقيقة « الإله » ، ومن ثم انحرافهم عن عبادة الله ، المتمثلة فى اتباع منهجه وحده فى الحياة .

والإسلام يبدأ من هذه النقطة بالذات ..

ولم يكن مصادفة ولا اعتباطا ، أن أنفق القرآن ثلاث عشرة سنة كاملة ، فى تقرير قضية واحدة أصيلة : هى قضية الألوهية .. وقضية الاعتقاد .

لم يكن ذلك لأن العرب كانوا مغرقين فى الوثنية فحسب ..

ولكن كان السبب ــ إلى جانب ذلك وقبل ذلك ــ أن هذه القضية هى محور ارتكاز الحياة البشرية كلها . لايقوم لها بناء ولاتستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية فى نفوس الناس ، ورسخت فى ضمائرهم ، وصارت هى الأساس الذى يقوم عليه كل البناء ..

ولقد رأينا من واقع الجاهلية الحديثة مصداق هذه الحقيقة . رأينا كيف انحرفت حياة

---

(١) أنظر كتاب « هل نحن مسلمون ؟ » .

(٢) سورة سبأ [٢٨] .

(٣) سورة الأنبياء [١٠٧] .

الناس كلها لمجرد أن انحرفت فى نفوسهم قضية الألوهية ، فتفرقت بهم السبل ، وما عادوا يهتدون أو يستقرون أو يطمئنون .

لذلك ظل القرآن المكى كله لايقول للناس شيئاً سوى قضية الألوهية وقضية الاعتقاد .

ثم لما نشأ المجتمع الإسلامى والدولة المسلمة فى المدينة ، صار القرآن يتنزل بالتشريع والتوجيه ، فى العبادات والمعاملات ، والفروض المختلفة التى فرضت على الأمة المسلمة لتقوم برسالتها الكبرى للبشرية . ولكن قضية الألوهية وقضية الاعتقاد لم تتخل عن مكانها لتفسح الطريق لهذه التشريعات والتوجيهات ، وإنما ظلت مصاحبة لها حتى آخر لحظة ، بل ظلت هى الأساس الذى تقام عليه التشريعات والتوجيهات ، فى الشعائر والمعاملات سواء[1] .

وقد أعطى الإسلام الناس قضية واضحة فى شأن الألوهية والاعتقاد ..

الله هو الخالق . والله هو المدبر . والله هو الرازق . والله هو المالك .. والله هو المسيطر . والله هو المعبود ..

قضية غاية فى البساطة واليسر والوضوح .

لاتعقيدات فى طبيعة الألوهية ، ولا غبش فى قضية الاعتقاد .

إنه لا إله إلا الله .. لا إله فى الكون كله ، فى السموات والأرض ، إلا الله .. لا خالق غيره ولا مالك غيره ولا مدبر غيره .. ولا شريك له فى شىء من الملك أو الرزق أو الخلق أو التدبير ..

ومن ثم فلا معبود غيره .. ولاينبغى لغيره أن يكون معبوداً فى كل الكون .

تلك القضية البسيطة اليسيرة الواضحة هى التى قام عليها الإسلام كله ، وقامت عليها الأمة المسلمة ، وقام عليها تاريخ الإسلام .

وقد ترتب على ألوهية الله ــ سبحانه ــ أن تكون له العبودية من كل الخلق : السموات والأرض ومن فيهن والإنسان .

---

(١) راجع «فى ظلال القرآن» تفسير سورة : «المائدة» و «الأنعام» و «الأعراف» جـ ٦ ، ٧ ، ٨ .

قضية أخرى بسيطة يسيرة واضحة .. فما دام هو الخالق وحده ، والمالك وحده ، والرازق وحده ، والمسيطر وحده .. فمن ذا الذى يمكن أن يتجه له الخلق بالعبودية غيره . وكيف يتجهون بالعبودية إلى أحد غيره .. أو أحد معه ! ؟

من .. ؟

الإنسان ؟ ! وما الإنسان ؟ ! أو ليس خلقا من خلق الله ؟ الله هو الذى منحه القوة والتمكين ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ هل هو ـ الإنسان ـ الذى خلق السموات والأرض ومافيهن ؟ هل هو الذى وضع للكون قوانينه التى يسير عليها ؟ وهل يملك أن يغير شيئاً من هذه النواميس لو أراد ؟ هل يستطيع أن يمنح المادة خواص غير خواصها ، أو ينشئها على غير قوانينها التى خلقها بها الله ؟ فكيف إذن يكون معبوداً من دون الله ، أو معبوداً مع الله ؟ !

من .. ؟

الحتميات ؟ ! وماتلك الحتميات ؟ ! من الذى حتمها وأعطاها حتميتها على فرض أنها حقا حتميات ؟ ! أو ليست هى قَدَر الله فى الكون والناس والأشياء ؟ وهى حتمية بما فيها من قدر الله ، وليست حتمية فى ذاتها إلا أن يشاء الله .. فكيف إذن تكون معبوداً من دون الله ، أو معبوداً مع الله ؟ !

من .. ؟

من ذا الذى يمكن أن يتوجه له الخلق بالعبودية إلا الله ؟

* * *

• ومن مقتضيات العبودية أن تكون الحاكمية لله وحده وأن يأخذ الناس تشريعهم عن الله ..

ولقد جادلت فى هذا الأمر كل جاهلية فى تاريخ الناس !

حتى الجاهليات التى كانت تقول : إنها « تعرف » الله .. حتى الجاهليات التى كانت تقول : إنها « تعبد » الله .. حتى الجاهليات التى كانت تظن أنها تؤدى العبادة الحقة لله .. كل الجاهليات كانت تجادل فى هذا الأمر ، وتظن أن العبودية لله أمر يختلف عن الإقرار بالحاكمية لله وحده وأخذ التشريع عن الله دون سواه .

« وما قدروا الله حق قدره »[1]

كيف يعبدون الله ــ فى زعمهم ــ ثم يأخذون نظام حياتهم عن غير الله ؟

كان هذا يكون فرضاً معقولا لو أن الله لم يشرع لهم . أو لو أنه قال لهم : شرعوا لأنفسكم من دونى !

أما وقد شرع لهم ، وقال لهم : أطيعوا شريعتى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[2] » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون[3] » .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »[4] .. « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »[5] فأنَّى يكون لهم أن يحكموا بغير ما أنزل الله ؟

لقد ركز القرآن على تقرير هذه القضية تركيزاً شديداً مكرراً واضحا فى كل سور التشريع : أن قضية التشريع هى قضية الألوهية : الله ــ وحده ــ هو « الإله » ومن ثم فهو ــ وحده ــ صاحب التشريع . هذه من تلك . إفراد الله ــ سبحانه ــ بالألوهية ، هو كذلك ــ فى ذات الوقت ــ إفراده بالحاكمية . فما يكون لأحد أن يكون فى الأرض حاكما مع الله . وإلا فقد أشرك نفسه مع الله ، وأصبح مشركا ، ومن اتبعه مشركون[6] .

ولقد ضلت الجاهلية ضلالتها الكبرى حين فصلت « الشريعة » عن « العقيدة » . حين فصلت « الحاكمية » عن « الألوهية » .

ثم ترتب على ذلك كل ماترتب من طغيان فى حياة الناس .

وليس هناك نتيجة غير هذه النتيجة !

إنه حين يشرع أحد للناس غير الله ، فقد اتخذ من نفسه إذن « إلها » ، يحلل ويحرم ؛ وقد اتخذ من نفسه إذن « طاغوتا » .. فالطاغوت هو كل حكم غير حكم الله . وهو

---

(١) سورة الانعام [٩١] .

(٢) سورة المائدة [٤٤] .

(٣) سورة المائدة [٤٥] .

(٤) سورة المائدة [٤٧] .

(٥) سورة المائدة [٤٩] .

(٦)راجع ظلال القرآن جـ ٦ ــ ٨ .

« هوىً » فى جميع حالاته . هوى الفرد أو الطبقة أو الجماعة أو الأمة الحاكمة .. ولقد رأينا ـ من واقع الجاهلية الحديثة ـ كيف صار الطاغوت حين صار إليه حكم الناس ، وحين رضى الناس بالعبودية له من دون الله .. أى حين سمحوا له أن يشرع لهم من دون الله .. كيف صارت الأمور إلى عبودية من الناس وذلة . وتجبر من الطاغوت وطغيان .

وليس هناك نتيجة غير هذه النتيجة ! فى « الديمقراطية » المزعومة ، وفى الدكتاتورية سواء ! [1]

* * *

وإذ يعطى الإسلام التصور الصحيح للألوهية وللحاكمية .. يبسط هذا التصور فيشمل الكون والحياة والإنسان .

إن الكون ليس إلهاً : وليس كذلك مخلوقا بلا غاية ولاتدبير .

إنه لايُعبد فى ذاته . ولايستمد من ذاته حتمية حتى لنفسه .. وإنما يستمد وجوده وحتميات وجوده من الله .

الله هو الذى خلقه ، ومن ثم فهو ذاته عابد لله .. يسير بمقتضى سنته ، ويهتدى بهداه .

« ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين[2] » .

ثم إن الكون لم يخلق عبثا ، ولا باطلا .. وإنما خلق « بالحق » .

« ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق[3] » .

« وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلاً[4] » .

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب.الذين

---

(١) راجع الفصل السابق ، باب (فى السياسة) .
(٢) سورة فصلت [١١] .
(٣) سورة الروم [٨] .
(٤) سورة ص [٢٧] .

يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والارض : ربنا ماخلقت هذا باطلا .. سبحانك[1] » .

ولقد لايدرك الإنسان ـ بعقله ـ مدى هذا « الحق » الذى خلقت به السموات والأرض ، ولا أبعاده العميقة فى الكون .. ولكن مايعجز العقل عن إدراكه تتكفل به الروح . الروح المهتدية إلى الله . فهى ـ فى تجاوبها مع الكون ، وإحساسها بالمشاركة الحية له ، المشاركة فى العبادة ، والمشاركة فى التوجه إلى الله الخالق ، والمشاركة فى الصدور عن الله الواحد ـ تدرك فى لمحة ماخلق به الكون من الحق ، وعمق هذا الحق فى السموات والأرض ، وأبعاده العميقة فى بنية الكون .

وكلما اتسعت « معلومات » الإنسان زاد علمه بهذه الأبعاد والآماد .. ولكنها ستظل قاصرة عن الإحاطة « بالحق »الأعظم ـ فهى معلومات تتصل بظواهر الأشياء .. وستظل الروح هى الموكلة بذلك الحق الأعظم الذى خلق به الله الكون والحياة والإنسان .

* * *

والحياة ليست عبثا ..

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ؟ وأنكم إلينا لا ترجعون ؟[2] » .

إن الإسلام لايقطع الصورة من اكتمالها ، ويعرضها مجزأة مشطورة ، فتبدو مشوهة عابثة هازلة .

إنه يرسمها مكتملة .. بشطريها .. فتتبدى فى الحال جديتها وغائيتها وتنزهها عن اللهو والعبث والباطل .

الحياة الدنيا ـ وحدها ـ ليست هى الحياة . وليس مايقع فيها هو نهاية الصورة ولا نهاية   حداث . وإلا فهى باطل وقبض الريح !

وإنما الحياة الدنيا هى « المقدمة » التى تترتب عليها « النتيجة » . والدار الآخرة هى التكملة والنتيجة . وهى لذلك « الحياة » الحقة .

---

(١) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١] .

(٢) سورة المؤمنون [١١٥] .

« وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون[1] » .

الحياة الدنيا هى المكان والزمان المخصصان « للابتلاء » والحياة الآخرة هى المكان والزمان المخصصان « للجزاء » .

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا[2] » .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون[3] » .

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا[4] » .

« وخلق الله السموات والأرض بالحق . ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون[5] » .

« كل نفس ذائقة الموت . وإنما توفون أجوركم يوم القيامة[6] » .

وبذلك تكتمل الصورة فى التصور . ويطمئن القلب البشرى كذلك ويستقر .

فحين يعرف الإنسان أن هذه الحياة ليست نهاية الصورة ولا نهاية الأحداث تعتدل حياته كلها فى آن :

فمن ناحية لا يتلهف اللهفة المجنونة على متاع الأرض . اللهفة التى تتملك القلب البشرى ـ لا محالة ـ حين يستقر فى أعماقه أنها فرصة واحدة ـ ذاهبة ـ لاتتكرر . إما أن تهتبل وإما أن تضيع . ويترتب على ذلك صراع مجنون على « تملك » المتاع .

ومن ناحية أخرى لايدركه اليأس القاتل والشقاء المميت الذى يتملك القلب البشرى حين يرى مظالم الأرض وانحرافاتها . واضطراباتها وعذاباتها . التى لا حيلة له فيها ـ مهما حاول وصارع واستيأس فى الصراع ـ ثم يحس أنها النهاية الأخيرة . وليس وراءها تصحيح للأوضاع الفاسدة . ولا رد للمظالم الجائرة . ولا تعويض عن الشقاء الذى لم

---

(١) سورة العنكبوت [٦٤] .
(٢) سورة الكهف [٧] .
(٣) سورة الأنبياء [٣٥] .
(٤) سورة الملك [٢] .
(٥) سورة الجاثية [٢٢] .
(٦) سورة آل عمران [١٨٥] .

يستطع دفعه ولا اتقاءه ، رغم المحاولة والاستبسال ، فى الفترة المعطاة له من الحياة .

ومن ناحية لا يفسد ضميره ، ولا إيمانه بالحق والعدل الأزليين .. فلا ينحرف فى سلوكه وأخلاقه : يظلم ويتقبل الظلم ، ويبرر الوسيلة بالغاية ، ثم لا يتحرى نظافة الغاية ولا نظافة الوسيلة ..

ومن ناحية « يخشى » الله ويتقيه ، مادام لابد ملاقيه .. فيعمل حساب هذا اللقاء ، بالتطهر والنظافة واتقاء الفساد ..

من أجل ذلك يركز الإسلام تركيزا شديدا على القلب البشرى بذكر الآخرة . وتصويرها ، وتجسيم مشاهدها ، وإبرازها ، ووصلها بالحياة الدنيا ، وتوحيد الطريق من الدنيا إلى الآخرة ، وترتيب هذه على تلك .. لأن هذا هو « المفتاح » الذى يضبط الوتر على ضبطه الصحيح ، فلا تصدر عنه النغمة النشاز .

* * *

ثم يجىء دور الإنسان ..

والإسلام يقدمه فى أروع صورة وأبدعها ..

إن الإنسان ليس إلهاً .. وماهو كذلك بالحيوان .. ولا بالشيطان ! .. وإنما هو « إنسان » !

إنه خلق من خلق الله .. ولكنه فريد مميز ، كريم رفيع القدر .. إنه خليفة الله !

وبينما تخبطت الجاهلية الحديثة تخبطات شتى ، فجعلت من الإنسان إلهاً ، ثم جعلت منه فى ذات الوقت حيوانا ، ثم جعلته فى النهاية عبداً سلبيا خانعا لا حول له ولا طول بإزاء آلهة المادة والاقتصاد .. آلهة « الحتميات » ..

فإن الإسلام يضعه فى موضعه الحق الذى لاينحرف به ولا يتخبط تخبط الجاهليات ..

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1] .

---

(١) سورة البقرة [٣٠] .

« إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[1] .

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[2] .

« وصوّركم فأحسن صوركم »[3] ...

* * *

إن الإسلام لايمرغ الإنسان فى الوحل كما مرغته الجاهلية الحديثة ..

نعم ، لقد أشار إلى « حقارة » منشئه كما أشارت الداروينية :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون »[4] .

« ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ »[5] .

وليس بعد ذلك حقارة فى المنشأ .. الطين المتعفن والماء المهين .. ولكن ؟ !

ما الإيحاء الذى يعطيه التوجيه الإيمانى ؟

إنه لايدلى بتلك الحقائق ــ وهى حقائق نهائية قاطعة لأنها من المصدر الأوحد الذى يعلم الأمور علم اليقين ــ لايدلى بتلك الحقائق ليوحى بحقارة الإنسان ، أو ضآلة قدره ، أو ضآلة دوره فى الحياة ، مما أوحت به الداروينية إلى أتباعها الذين صاغوا كل التفسيرات الحيوانية للإنسان .. إنما يردف ذلك بالحقائق الأخرى المكملة لها ، حقائق التفضيل وحسن التصوير والاختيار للأمانة الكبرى : أمانة الخلافة عن الله ، فيتحقق بهذا التوجيه أمران فى وقت واحد : عظمة الخالق ورفعة الإنسان . وتعمل هاتان الحقيقتان معاً لربط الكائن الإنسانى بالله ، ورفعه إلى المستوى الكريم اللائق بخليفة الله ، وصيانته فى ذات الوقت من الغرور المردى والتمرد الذميم .

---

(١) سورة ص [٧١ ــ ٧٢] .
(٢) سورة الإسراء [٧٠] .
(٣) سورة التغابن [٣] .
(٤) سورة الحجر [٢٦] .
(٥) سورة المرسلات [٢٠] .

الإنسان فى تصوير الإسلام هو ذلك الكائن المزدوج الطبيعة ، المكون من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، ممتزجتين مترابطتين غير منفصلتين . ومن ثم لايكون قبضة طين خالصة فيهبط كالجماد أو الحيوان ، ولا نفخة روح خالصة فيؤلّه أو يتألّه ! إنما هو مزاج من الطين ونفخة الروح ، يكوّنان هذا الكيان المتفرد فى كل الخلق ، المتميز عن كل الخلق .. كيان « الإنسان » .

وهذا الكيان المتفرد قادر على الارتفاع قدرته على الهبوط .

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[1] .

« وهديناه النجدين »[2] .

« إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفورا »[3] .

وفى هذه الخاصية يكمن الابتلاء والجزاء .. فبمقتضى قدرته على الهبوط والرفعة ، والإرادة الممنوحة له ليختار بها ـ فى كل لحظة وفى كل حالة ـ بين الهبوط والرفعة ، بمقتضى ذلك يُترك فى الأرض ليعمل ، ثم يجازى على عمله يوم الجزاء .

* * *

ثم إنه كيان موهوب ..

فحين خلقه الله للخلافة وهب له أدواتها :

« وعلم آدم الأسماء كلها .. »[4]

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة »[5]

وبهذه المواهب يقوم بعمارة الأرض ، ويكلف بالخلافة ، ويتفرد بحمل الأمانة :

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... »[6]

---

(١) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .
(٢) سورة البلد [١٠] .
(٣) سورة الإنسان [٣] .
(٤) سورة البقرة [٣١] .
(٥) سورة النحل [٧٨] .
(٦) سورة الأحزاب [٧٢] .

ومن مقتضى ذلك كله أن يكون عنصرا فعالا فى الأرض ، لا كمًّامهملا تتحكم فيه « الحتميات » وهو أمامها خاضع ذليل . إنما يعمل قدر الله فى الأرض من خلال حركة الإنسان وعمله :

« إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1] .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »[2]

ثم يجعل الله الكون كله مسخرا للإنسان . والإنسان هو القوة الموجبة بالنسبة إليه :

« وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه »[3]

وحين يرفع التصور الإسلامى الإنسان إلى هذا المدى الهائل الرفيع .. فإنه لايجعله خصما لله يصارعه ويبغضه .. وإنما يحبه ويخشاه !

إن موهبة الله للإنسان لاتستدعي ـ بداهة ـ إلا الشكر والعرفان ! فالإنسان لم يمنح نفسه هذه المزايا ، ولاجعل نفسه خليفة الله ، ولا خلق نفسه ابتداء ! وكان فى استطاعة الله ـ لو أراد ـ سبحانه ـ ألا يخلقه أصلا ، ولا يعطيه هذه المواهب أصلا . ومن ثم فالرد على هذه العطايا هو الشكر ، والتعبد ، وليس البغضاء والصراع كما صورت الجاهلية اليونانية العلاقة بين البشر والآلهة ، وألقت ظلالها طويلة عميقة على جاهلية القرن العشرين ، فى تصورها للعلاقة بين الإنسان والله .

* * *

والإنسان فى نظر الإسلام ـ كما هو فى حقيقة فطرته ـ كائن مترابط . فلا انفصال بين عنصر الطين وعنصر الروح فيه . ليس جسدًا خالصًا ولا روحًا خالصة . ولا انفصال بين شعوره وسلوكه . ولا عمله وأخلاقه . ولا مُثُله وواقعه . ولا عقيدته وشريعته . ولا دنياه وآخرته ..

كلها مزاج واحد ، وحسبة واحدة !

---

(١) سورة الرعد [١١] .

(٢) سورة البقرة [٢٥١] .

(٣) سورة الجاثية [١٣] .

جسمه وروحه وحدة : جسمية روحية فى آن .

وشعوره وسلوكه وحدة : شعورية سلوكية معاً فى ذات الوقت .

وعمله وأخلاقه وحدة : عملية خلقية بلا انفصال .

وعقيدته وشريعته شيء واحد هو « الدين » .

ودنياه وآخرته جزآن متكاملان من حياة واحدة متصلة ليس فى داخلها انقطاع .

وهو كائن متوازن ـ أو ينبغى أن يتوازن .

لا الجسد يغلب فيه على الروح .

لا الواقع على الخيال ..

لا نزعته الفردية على نزعته الجماعية ..

لا نزعته السلبية على نزعته الإيجابية ..

لا دنياه على آخرته ..

لاثقلته نحو الأرض ولا رفرفته للسماء ..

ومن هذا الكيان المتوازن يتوازن الفرد والمجتمع ، والتصور والسلوك ...

* * *

حين يستقيم هذا التصور الواضح المضيء فى ضمير الإنسان .. تستقيم حياته كلها على الأرض .

ولقد استقام هذا التصور فى نفس محمد بن عبد الله ﷺ ، والأمة المسلمة التى رباها على عينه ، فحدثت معجزات فى الأرض لا مثيل لها فى التاريخ :

تجمعت القبائل الجاهلية فصارت أمة مسلمة ..

وتركت النفوسُ الجاهليةُ إلفَها وعاداتها ، وعرفها وسلوكها ، ولذائذها المنحرفة وشهواتها ، وأساطيرها وخرافاتها .. واستوت على الصراط .. نفوساً جديدة أنشأها الإسلام إنشاء كأنما ولدت اللحظة .. على المولد الجديد « للإنسان » كله .. المولد الحقيق فى ظل الله ..

وقامت هذه النفوس المسلمة تنشئ واقعها إنشاء على نمط غير مسبوق .. ولا ملحوق . نمط ليس من وحى هذه البيئة ، ولا من عاداتها ولا من عرفها ولا من سلوكها الجاهلى . وليس من وحى « ضرورة » من كل ضرورات الأرض ..

قامت تحرر « الإنسان » من الطاغوت .. لغير سبب بيئى ولا دنيوى يدفعها إلى هذا التحرير !

فما الذى تغير فى غضون هذه السنوات ؟

هل جد جديد فى حياة الناس .. غير الإسلام ؟

هل جد جديد يمنح الناس صفاء التصور للألوهية .. وهذه البشرية ــ فى غير الإسلام ــ ماتزال تتخبط فى تصور الألوهية حتى القرن العشرين ؟ !

هل جد جديد يمنح الناس التحرر من العبودية للناس .. وهذه البشرية ــ فى غير الإسلام ــ ماتزال يعبد بعضها بعضاً ، بالخضوع لبشر من البشر يشرّع لهم حسب هواه ، ويلزمهم بما يرتئيه هواه .. فيخرون سجداً منفذين ، بسطوة « الدولة » وإرهاب « القانون » فى دكتاتورية رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا على السواء ؟ !

هل جد جديد يمنح الناس التحرر من العبودية لشهواتهم .. وهذه البشرية ــ فى غير الإسلام ــ ماتزال تستعبد لشهواتها ، بل تزيد استعباداً لهذه الشهوات كلما انحرفت عن منهج الله وهداه ؟ !

هل جد جديد يصحح وضع « الإنسان » من الكون .. وهذه البشرية ــ فى غير الإسلام ــ ماتزال تتخبط فى وضع الإنسان .. فتارة تمنحه ألوهية زائفة لا رصيد لها من الواقع إلا الغرور الأجوف ، وتارة تضعه فى موضع العبودية الذليلة من هذا الكون : تتناوشه الحتميات الآلهة فتمرغ وجهه فى الوحل ، وهو صابر ذليل مستخذ للسلطان الباطل ، لايملك نفسه من هذا السلطان ؟ !

هل جد جديد يصحح أخلاق الإنسان .. وهذه البشرية ــ فى غير الإسلام ــ ماتزال تتخبط فى أخلاقها ، فتجعلها أخلاقاً « خصوصية » تارة ــ للبيض فقط ! ! ــ وأخلاقاً نفعية تارة .. ثم تظل تتدهور على الدوام ؟ !

هل جد جديد يصحح وضع الفرد من المجتمع ، والمجتمع من الفرد .. وهذه البشرية

ـ فى غير الإسلام ـ ماتزال تتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، فتفتت المجتمع لحساب الفرد مرة ، وتسحق الفرد لحساب المجتمع مرات ؟ !

هل جد جديد يصحح علاقات الجنسين .. وهذه البشرية ـ فى غير الإسلام ـ ماتزال تجعل علاقات الجنسين متاعاً حيوانيا مسعوراً لايسكن أو يهدأ .. وتبدد فى هذا طاقات الإنسان ؟ !

هل جد جديد يمنع الحاكم ـ فرداً أو طبقة أو شعباً ـ من أن يحكم بهواه ويحكم بالطغيان .. وهذه البشرية ـ فى غير الإسلام ـ ماتزال يحكمها الطاغوت بأهوائه فى ظل « الديمقراطيات » الزائفة أو الدكتاتوريات سواء ؟ !

ماذا جد فى غضون تلك السنوات ؟

لاشىء .. سوى استقامة التصور ، ينشأ عنها استقامة السلوك واستقامة الحياة !

* * *

قامت الأمة المسلمة التى رباها على عينه محمد بن عبد الله ﷺ تنشئ واقعها إنشاء .. من وحى الإسلام ..

قامت تنشئ استقامة عجيبة فى سلوك الناس .

فيها ضعف البشر الفطرى . نعم . مازال الناس على بشريتهم ! ولكنهم يستقيمون إلى أقصى ماتتيحه الطاقة البشرية .. وهى تقدر ـ فى ظل الإسلام الحق ـ على كثير .

قامت تنشىء ترابطاً عجيباً بين الناس ..

فيه ضعف البشر الفطرى . نعم . كل إنسان يحب لنفسه الخير : « وإنه لحب الخير لشديد »[1] ولكن هؤلاء الناس استطاعوا أن تصفو نفوسهم بعضهم لبعض بدرجة لا مثيل لها فى التاريخ : « يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .[2] « إنما المؤمنون إخوة »[3] « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »[4] .

---

(١) سورة العاديات [٨] .

(٢) سورة الحشر [٩] .

(٣) سورة الحجرات [١٠] .

(٤) سورة التوبة [٧١] .

قامت تنشيء شعورًا «إنسانيا» نحو الناس كافة . «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى»[1] . «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم»[2] . «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ..»[3] .

قامت تنشيء مجتمعًا يتوازن فيه الفرد والمجتمع .. الفرد له كيانه البارز ، المتحرر من الطغيان ، الإيجابى المحسوس الوزن ، المكلف ـ بفرديته ـ بالرقابة على الحاكم والمجتمع ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والمجتمع ـ المترابط ـ له كيانه فى توجيه الأفراد ، وصوغ نفوسهم وأفكارهم على الحق ، وصيانة حرمات الله .

قامت تنشيء اقتصادًا تتوازن فيه المغارم والمغانم ، ويقوم على التكافل بين المالكين وغير المالكين ، أمة واحدة بعضها مسئول عن بعض . والكل شركاء فى الخير ، لا تستبد فئة قليلة بالمال : «كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»[4] ولا يبقى فى المجتمع محروم ، فالدولة ـ بيت المال ـ مسئول عن الجميع .

قامت تنشيء «أخلاقا» عجيبة فى تاريخ الأرض .. فى كل أمر من الأمور .

السياسة تقوم على الأخلاق . بين الحاكم والمحكومين فى داخل الأمة المسلمة . وبين الأمة المسلمة ومن عداها ، فى الوفاء بالعهد وحفظ المواثيق .. وعلاقات المجتمع تقوم على الأخلاق . والاقتصاد يقوم على الأخلاق ، فى التعامل الفردى والجماعى . وعلاقات الجنسين تقوم على الأخلاق ، بدرجة من النظافة لم يشهدها التاريخ .

.. ومن ثم انطلقت هذه الأمة تنشيء بناء راسخًا ، يكفى من رسوخه أنه لم يتهدم فى أكثر من ألف عام ، عملت فيها كل وسائل الهدم ، من الداخل والخارج ،وبيد جميع الأعداء !

* * *

---

(١) سورة المائدة [٨] .

(٢) سورة الممتحنة [٨] .

(٣) سورة المائدة [٢] .

(٤) سورة الحشر [٧] .

ولم يكن واقع المجتمع الإسلامى ـ فى داخل الجزيرة العربية ـ هو العجيبة الوحيدة فى هذا الدين ..

فقد انساحت الأمة المسلمة فى الأرض ، تبشر بدين الله وتقيم قواعد عدله فى كل مكان حلت فيه .. فوصلت فى نصف قرن من المحيط إلى المحيط - بسرعة ما تزال تذهل الباحثين حتى اليوم - بالمقارنة إلى أية حركة أخرى فى التاريخ !

وأنشأت من ذلك المدى الواسع من الأرض والأمم والشعوب .. أمة واحدة !

لقد قامت «امبراطوريات» كثيرة فى التاريخ .. الامبراطورية الرومانية - والامبراطورية الفارسية . والامبراطورية الهندية . والامبراطورية الصينية .. وفى العصر الحديث قامت الإمبراطورية البريطانية والروسية ... الخ

ولكن الأمر فى الإسلام لم يكن أمر «امبراطورية» !

فكل هذه الامبراطوريات قامت ثم انهدمت وهى عاجزة عن أن تجعل من الأمم والشعوب أمة واحدة على الرغم من كل المحاولات التى تبذلها . أما «العالم» الإسلامى فقد صار أمة واحدة بغير ضغط ولا محاولة من الحاكمين ! !

والسبب بسيط .

هذه الامبراطوريات تحاول أن تخضع الشعوب **لنفسها** .. ومن ثم تحس الشعوب الأخرى أنها مغلوبة على أمرها ، وأنها تفقد صبغتها الخاصة لحساب الدولة الأم ، أو الدولة المسيطرة على قطيع الشعوب .

والأمة المسلمة فى مجموعها كانت خاضعة لله ! ومن ثم أحست أنه لا غالب ولا مغلوب ! واحتفظت ـ كما شاءت ـ بصبغاتها الخاصة ، طالما لم تتعارض مع الإسلام .. وارتبطت كلها فى شعور واحد : ارتبطت فى عقيدتها لله . ومن أجل ذلك مازال يربطها شعور الأمة الواحدة رغم كل المحاولات الجبارة التى بذلت وتبذل لتفتيت هذه الأمة بكل سبيل وكل شعار ..

وقامت «حضارة» إسلامية رفيعة بانية ...

لم يكن لدى العرب من مقومات الحضارة كثير .. فى بداوتهم ، وظروفهم الجغرافية والاقتصادية والعلمية ، لم تكن الفرصة أمامهم واسعة لإنشاء حضارة ..

وعلى الرغم من قيام حضارات سابقة فى الجزيرة .. وعلى الرغم من اتصال العرب بالرومان والفرس .. فالواقع الذى شهده التاريخ أن انطلاقة المسلمين فى إنشاء حضارتهم كانت شيئا آخر لا يقاس به ماضى العرب كله فى شبه الجزيرة ، كما لا يقاس به جهد أية أمة أخرى معاصرة فى ذلك الحين.

نعم . لقد اقتبس المسلمون كثيرًا من التشكيلات الإدارية من الروم والفرس . ولكن قاعدة النظام الذى يستخدم هذه التشكيلات الإدارية ظلت إسلامية ! على الرغم من كل ما أدخل عليها من الشوائب الغريبة على المدى التاريخى المتطاول نحو ألف عام . حتى كانت حضارتهم هى الحضارة .. وهى مصدر الحضارة الأوربية الجديدة كلها كما يشهد الغربيون .

يقول بريفولت فى كتاب «بناء الإنسانية **Making of Humanity** » .

«إنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة»[1] .

وكانت كذلك حركة علمية هى ـ فى وقتها ـ أكبر حركة علمية فى التاريخ .

والعلم ـ بصفة خاصة ـ لم يكن مما وجه العرب اهتمامهم إليه .. إذ كانوا مشغولين دائمًا بفن القول ، يجعلون همهم كله فيه .. وإنما الذى بعثهم يتعلمون وينشئون الحركة العلمية كان هو الإسلام .

وقد اقتبس المسلمون ـ كذلك ـ كل العلم الدنيوى من الأمم المجاورة لهم : علم اليونان القديم ، وعلم الرومان ، وعلم المصريين وعلم الهنود .. فى الفلك والرياضة والطب والطبيعة والكيمياء .

ولكنهم لم يقفوا عند ما اقتبسوه .. لا فى الكم ولا فى النوع ..

فقد كانوا هم ـ المسلمين ـ الذين غيروا وجه العلم ، حين أنشأوا ـ بهدى من التوجيه الإسلامى ـ المذهب التجريبى الذى تقوم عليه الحركة العلمية الحاضرة فى أوربا بلا استثناء !

يقول بريفولت فى كتابه الذى أشرنا إليه :

---

(١) عن كتاب «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» تأليف محمد إقبال وترجمة عباس محمود ص ١٤٩ .

«لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية [يقصد الإسلامية !) على العلم الحديث ... وعلى الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون .وأهم ما تكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى .

«... وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب [يقصد المسلمين !] ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة . بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا : **إنه يدين لها بوجوده نفسه** . فالعالم القديم ــ كما رأينا ــ لم يكن للعلم فيه وجود . وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ؛ وأخذوها من سواهم ، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجًا كليا بالثقافة اليونانية .

«وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات،ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى .. كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان .. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب [يقصد المسلمين !] إلى العالم الأوربى» .[1]

ويقول دريبر الأمريكى فى كتابه «النزاع بين العلم والدين» .

«تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم . وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن ثم كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى ...» .[2]

لقد كان هذا هو الترجمة العملية لتوجيه الله للمسلمين أن يتدبروا خلق الله ،

(١) المصدر السابق ص ١٤٩ ــ ١٥٠ .
(٢) عن كتاب «الإسلام دين علم خالد» لفريد وجدى .

ويبحثوا عن آيات الله فى الكون . وتوجيه لهم أن يعيشوا الحياة فى الواقع لا فى نظريات الخيال !

* * *

تلك كانت انطلاقة الأمة المسلمة فى واقع الأرض حين استقام تصورها لله ، واستقامت عقيدتها فى الله !

شىء يذهل له التاريخ .. من حيث الكم ومن حيث النوع سواء !

.. ولقد انحرفت الأمة المسلمة كثيرًا عن منهج الله ..

أدركتها ـ بالتدريج ـ جهالة الجاهلية . ففصلت العقيدة عن الشريعة .. وأخذت «الدين» عقيدة مستسرة فى القلب ، منقطعة عن الواقع ، بينما الواقع يحكمه دين غير دين الله ! فلم يعد منهج الله هو المحكم فى واقع الأمة الإسلامية .. ومن ثم لم تعد أمة «مسلمة» وإن كانت ماتزال تتسمى بأسماء المسلمين ، وتصلى ـ أحيانًا ـ وتصوم !

ثم إنها ـ كذلك ـ فقدت حضارتها وحاستها العلمية الفردية .. وانزوت فى داخل نفسها ، تستسلم للضعف والهوان .. فزادت بذلك بعدًا عن الإسلام ..

وانحلت أخلاقها .. فلم تعد تصدق . ولا تخلص . ولا تستقيم فى المعاملة . ولا تقوم بينها روابط «الإنسان» .

ثم زادت فانزلقت فى تيار الجنس الجارف .. فى مصيدة يهود !

وبذلك خرجت عن كل الإسلام !

* * *

والإسلام بعيد عن هؤلاء !

الإسلام هو النهج الربانى الخالد ، الذى نزل على محمد بن عبد الله ﷺ . لاينحرف بانحرافات البشرية .

وهو الباعث «للإنسانية» .. حيث تكون وكيف تكون ..

الإسلام هو المنهج الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور . من الطاغوت إلى الله .

وهو المخلص للناس من الجاهلية الراهنة الطاغية الرهيبة .. التى تدمر كيان الإنسان .

* * *

كل ما شهدناه من انحرافات الجاهلية لا يصلحه إلا الإسلام ..

حين يستقيم التصور على النهج الذى رأينا .. يستقيم السلوك .

حين تعود البشرية الضالة إلى الله ، تستقيم حياتها على الصراط .. فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن .. وكل شىء !

ولقد وضعت الجاهلية حجابًا كثيفًا بين البشرية ومنهج الله ...

التطور !

قالت إن التطور قد سار شوطًا بعيدًا بالبشرية بعيدًا عن الدين ! وقالت إن ما كان يصلح للناس قبل ألف وأربعمائة عام لا يصلح للناس اليوم .. لأنهم متطورون !

والتطور .. هو هذا الفساد المروع فى التصور وفى السلوك .. الذى صحبناه فى الفصلين السابقين من الكتاب ! والذى لم يدع جانبًا واحدًا من جوانب الحياة البشرية ولا النفس الإنسانية بلا انحراف !

التطور .. هو الذى أشرف بالبشرية على الدمار !

«ويحسبون أنهم مهتدون» !

أما منهج الله .. فهو كما هو منذ نزل .. المخلص من الجاهلية .. والمنقذ من الدمار !

حين يهتدى الناس إلى منهج الله ، ويتبعون هداه .. حين يؤمنون بالله الإيمان الحق .. حين يعبدونه حق عبادته لا يشركون به شيئًا من طواغيت الأرض .. لا يتبجحون على الله بترك شريعته والتشريع لأنفسهم .. لا يغتصبون لأنفسهم الحاكمية التى هى من شأن الله وحده .. حينئذ تزول كل الانحرافات والمظالم ، والشقاء والعذاب الذى حل بالناس حين انحرفوا عن سواء العقيدة وسواء العبادة ، واغتصبوا الحاكمية ، واتخذ بعضهم بعضًا أربابا من دون الله : هؤلاء يشرعون ، وهؤلاء يطيعون !

وما يزال الإسلام ــ كعهده يوم نزل ــ هو المصحح لانحرافات البشرية ، والهادى إلى الصراط ..

وهو اليوم ـ كما كان قبل ألف وثلثمائة عام ـ الفيصل بين الحق والباطل ، والبانى للإنسانية الرشيدة ، والهادم للانحراف والطغيان ..

وحين يؤمن به الناس .. تعتدل حياتهم وتستقيم ..

* * *

ولايتسع بحث كهذا لعرض مفاهيم الإسلام ـبالتفصيلـ فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن ... وكل شىء !

ولكنه يتسع لعرض مختصر لهذه المفاهيم ، يعرض فقط رءوس المسائل .. يعرض «المفاتيح» !

لقد أوضحنا من قبل انحرافات الجاهلية فى هذه الأموركلها .. من «مفاتيحها» . لم نعرض لتفصيلات الجاهلية فيها إلا بالقدر الذى يوصلنا إلى مكمن الانحراف وعقدة الاختلال .. وكذلك حين نعرض منهج الله فى هذه الشئون كلها لن نذكر من التفصيلات إلا القدر الذى ينير لنا السبيل لتصحيح الانحراف .

أما البحث التفصيلى فى المفاهيم الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والفنية .. الخ ، فمجاله كتب مستقلة فى كل باب .. كتب متخصصة يقدمها مختصون . وبعض هذه الكتب موجود بالفعل ، والباب مفتوح ـ دائما ـ للمزيد ..

هناك كتاب «نظرية الإسلام السياسية» للأستاذ المودودى وكتاب «الإسلام وأوضاعنا السياسية» و «سياسة المال والحكم فى الإسلام» للأستاذ عبد القادر عودة وهناك كتب للمودودى وسيد قطب تبين منهج الاقتصاد الإسلامى[1] . وكتب «التطور والثبات» و«دراسات فى النفس الإنسانية» و «منهج التربية الإسلامية» و «منهج الفن الإسلامى» تعالج موضوعات اجتماعية ونفسية وتربوية وفنية من وجهة النظر الإسلامية .

ولكن هنا لا نبحث هذه التفصيلات إلا بالقدر الذى ينير السبيل .

* * *

(١) للمودودى ثلاثة بحوث رئيسية فى الموضوع : «أسس الاقتصاد الإسلامى» و «الربا» و«ملكية الأرض فى الإسلام» ولسيد قطب كتاب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» .

عقدة الجاهلية فى السياسة أنها لا تحكم بما أنزل الله !

وبصرف النظر ـ مؤقتًا ـ عن تفصيلات ما أنزل الله فى هذا الشأن ، فإنه ينبغى أن نتبين ـ **أولا** ـ أن عدم الحكم بما أنزل الله ـ **ابتداء** ـ هو الذى ينشىء الانحراف لأن الحكم بما يضعه البشر معناه ـ **حتمًا** ـ حكم طائفة معينة من الناس على بقية الناس ، ومن ثم حكم مصلحة طائفة معينة من الناس على مصالح بقية الناس !

والذى يقول ذلك ليس نحن .. من وجهة نظرنا الخاصة !

كلا ! إنها شهادة الجاهليين أنفسهم ، بعضهم على بعض «وشهد شاهد من أهلها» !

إن من القواعد المقررة ـ عندهم ـ فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ـ مجتمعة ـ أن «الطبقة» التى تملك ، هى فى الوقت ذاته الطبقة التى تحكم ، وتحكم لصالحها هى ضد بقية «الطبقات» .

فالرأسمالية تملك .. وتحكم لصالح الرأسماليين ضد العمال أو «الكادحين» .

والبروليتاريا تملك .. وتحكم .. تحكم لصالح البروليتاريا ضد المالكين .

وكل منهما تحصل على المزايا لنفسها ، وتسلب المزايا من الآخرين .

ولا يحدث قط فى حكم البشر أن تحكم طائفة من الناس لكل الناس ! ولمصلحة كل الناس !

إنما يحدث ذلك فقط حين يحكم الناس بما أنزل الله . لأنه حينئذ لا يكون الحكم لأية طائفة من الناس ! وإنما يكون الحكم لله سبحانه . وليس لله طبقة ولا طائفة يشرع من أجلها . ولا مصلحة له ـ سبحانه ـ عند طبقة ولا طائفة ! إنما هو رب «الناس» جميعهم .. وحكمه هو لجميع الناس !

* * *

إن الله حين دعا الناس إلى عبادته وحده ، وإفراده بالألوهية والحاكمية ، كان يدعوهم إلى الكرامة والعزة والتحرر ، بصورة لم تعهد قط إلا فى عبادة الله !

إن الله لا يتعبد الناس لحاجته إليهم .. سبحانه !

«ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون»[1]

وحقيقة إن واجب الخلق نحو خالقهم ورازقهم ، ومالك أمرهم فى محياهم ومماتهم .. أن يعبدوه .

ولكن الله ـ سبحانه ـ من رحمته بعباده وفضله عليهم ، جعل فى هذا الواجب خير العباد ، بل جعله هو الخير ذاته .. فيعبد الناس الله بحكم أنه هو خالقهم ، وربهم ، وإلههم ، ثم تكون عبادته لخيرهم وصالحهم ، لا لصالح الله المستغنى عن العباد :

«ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . إن الله لغنى عن العالمين»[2] .

فحين طلب الله إلى الناس أن يفردوه بالألوهية وبالحاكمية ، ولا يحكموا بشريعة أحد منهم ، وإنما يحكمون بما أنزل الله وحده فى كل شىء ؛ وقال لرسوله ﷺ :

«واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك»[3]

حين طلب الله إلى الناس ذلك ، كان يريد أن ينقذهم من عبودية بعضهم لبعض ، ومما يترتب على هذه العبودية من «الطاغوت» الذى رأينا نماذج بشعة منه فى الجاهلية الحديثة ، وفى كل جاهلية فى التاريخ .

كان يريد لهم أن يحسوا بالتحرر الحقيقى ، الذى لا يمكن أن يحسوا به فى أى نظام آخر يصنعه البشر لأنفسهم ، وتستعبد فيه طائفة من الناس بقية الناس ، وتحكم لصالحها هى على حساب صوالح الناس !

كان يريد لهم الكرامة التى لا تتحقق لبنى الإنسان إلا حين يتساوون جميعًا فى العبودية الحقيقية لله ، فلا يبرز من بينهم أحد بطاغوته ، يقول : أنا أشرع للناس . أنا أسيطر على الناس . أنا أخضع لإرادتى الناس . أنا أصنع ـ على رغبتى ـ حياة الناس !

كان يريد لهم العزة التى لا تتحقق للناس إلا حين يحس كل منهم أن صلته بمصدر التشريع الحقيقى لا تقل ذرة واحدة عن صلة بقية الناس . وأن هذه الصلة متاحة ـ حقيقة ـ لجميع الناس بمقدار ما يجتهدون هم بجهدهم الخاص فى التقرب إليه : «إن

---

(١) سورة الذاريات [٥٧] .

(٢) سورة العنكبوت [٦] .

(٣) سورة المائدة [٤٩] .

أكرمكم عند الله أتقاكم » . لا بمقدار ما فى يد أحدهم من ملك أو قوة أو سلطان !

وفى هذا النظام ـ الوحيد ـ الذى يحس فيه الناس بالعزة الحقيقية والكرامة الحقيقية والتحرر الحقيق ، يكون للناس ولى أمر منهم ـ ينتخبونه انتخابًا حرًّا ، فى بيعة حرة ، ويولونه أمرهم ـ ولكن ولى الأمر هذا لا يشرع لنفسه . ولا يحق له أن يشرع ولا يملك رقاب الناس ولا يحق له أن يملك . ولا يخضع الناس لإرادته ولا يحق له أن يخضعهم .. إنما يحكم بما أنزل الله . وكل مهمته التى يبايع من أجلها ، ويملك السلطان من أجلها هى تنفيذ شريعة الله ، التى لم تضعها طبقة أو طائفة ، ولم تراع فيها مصلحة طبقة أو طائفة . إنما وضعت لجميع الناس .

وولى الأمر هذا واحد من الناس لا غير..

لايمثل طبقة معينة .. ولا تنتخبه ـ أو تساعد على انتخابه ـ طبقة معينة . إذ أنه ما مصلحة أى طبقة فى أن تبايع إنسانًا معينًا من الناس وتفضله على غيره ـ إلا صلاحيته الحقيقية لتولى الأمر ـ مادام ـ حين يصل الى السلطان ـ لا يملك أن يشرع لهذه الطبقة ولا أن يضع مصلحتها فوق مصالح الناس ؟

وكيف تستطيع طبقة معينة ـ مهما أوتيت من وسائل الإعلام ، والتأثير ، والإغراء ، بل التشويش كذلك ! ـ كيف تستطيع أن تغرى الناس بترك واحد معين ، أو اختيار واحد معين لصالحها هى ، ما دامت لا تملك ـ فى ظله ـ سلطة زائدة تستعبد بها الناس ؟ !

نعم ، يحدث فى ظل «الضعف» البشرى أن يبايع الناس رجلا لا يكون صالحًا لولاية الأمر ، ويكونوا مخدوعين فى صلاحه وتقواه ، فيتكشف لهم أنه ضعيف الإرادة أو قليل التجربة أو ضيق الأفق أو غير موفق فى الرأى .. نعم . وعندئذ يتحملون هم تبعتهم الكاملة فى الاختيار ، لأنهم هم ـ بإرادتهم الحرة ـ الذين اختاروه .. ثم هم يملكون الأمر .. فهو دائما فى أيديهم . يقولون له : لقد اخترناك ولكنك لا تصلح للتبعة . فسنعزلك ونختار شخصًا آخر !

بذلك تتحقق ـ فى عالم الواقع لا فى عالم النظريات ـ الحرية الحقيقية والعزة الحقيقية والكرامة الحقيقية للناس .

.. ولقد يجد ولى الأمر ، ويجد الناس معه ، أن شريعة الله المنزلة لم تسعفهم بالنص

فى مسألة معينة تواجههم[1] . فعند ذلك يسلكون طرقًا بعينها ، تعينهم فى استنباط الحكم الذى يريدونه ـ لا ندخل فى تفصيلها هنا ـ من بحث فى السنة ، ومن إجماع ومن قياس ومن اجتهاد بالرأى .. على أساس الشورى : «وأمرهم شورى بينهم» حتى يهتدوا بإذن الله وتوجيهه إلى حل القضية المعروضة عليهم .

إنما المهم ـ ونحن نضع المفاتيح ـ أن نقرر هذه الحقائق البارزة فى النظام السياسى فى ظل منهج الله :

أنه لا توجد طبقة تملك وتحكم لصالحها على حساب الناس .

أن ولى الأمر الذى يبايع مبايعة حرة لا يتبع طبقة معينة من الناس . وأنه **لا يملك** أن يشرع لطبقة معينة من الناس .

أنه يحكم فقط بما أنزل الله ولا سلطان له إلا السلطان الذى يستمده من تنفيذ شريعة الله .

أنه حين لا يجد النص فى الشريعة المنزلة لا يشطح ، ولا يتبع هواه ، إنما يتبع قواعد مقررة تجعل حكمه فى النهاية سائرًا فى حدود ما أنزل الله ..

تلك القواعد العامة فى السياسة على منهج الله هى **الوحيدة** التى تضمن للناس الحرية الحقيقية والعزة والكرامة ، وتمنع عن الناس أن يتملكهم الطاغوت !

وتلك القواعد ـ على ضوء الواقع الذى تعانيه الجاهليات كلها ، الجاهلية الحديثة بصفة خاصة ـ هى التى تبين لنا : لماذا ينبغى أن ينفرد الله وحده بالحاكمية ، ويكون وحده صاحب التشريع !

إن الجاهلية الحمقاء فى غرورها وفتنتها «بالإنسان» .. حين ألهت الإنسان وزعمت أنه

---

(١) فى كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية» بينت العناصر الثابتة والعناصر المتطورة فى النفس البشرية وفى الحياة البشرية . وبينت كيف يلتقى الإسلام ـ دين الله ـ التقاء كاملاً بهذه وتلك . فيعطى فى المسائل الثابتة تشريعات تفصيلية ثابتة لا تتغير ، لأنها تواجه أمورًا لا تتغير فى حياة البشر . ويعطى فى المسائل المتطورة إطارًا عاما ثابتًا ، ويدع للأجيال المتعاقبة ـ كل حسب نضجه و «تطوره» وصورة مجتمعه ـ أن يملأ الإطار الثابت بالتشريع المتطور . ومن ثم تكون الشريعة ثابتة ، والفقه دائم النمو لمواجهة حاجات الناس كما قال عمر بن عبد العزيز «يجد للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من القضايا» .

قد استغنى عن وصاية الله .. حين استنكفت أن تعترف بحاكمية الله وحده ، واغتصبت لنفسها الحاكمية .. قد وصلت إلى ما وصلت إليه من طغيان غائل ، يتمثل ـ اليوم ـ فى دكتاتورية رأس المال ودكتاتورية البروليتاريا ، وما يذوقه الناس من المذلة والمهانة فى ظل هذه الدكتاتوريات .

وإفراد الله بالحاكمية هو ـ **وحده** ـ الذى ينقذ الناس من هذه الدكتاتورية الطاغية ، ويردهم أحرارًا كما ولدتهم أمهاتهم . ويجعل فى أيديهم هم أمر أنفسهم ، فى ظل شريعة الله . فإن ركبهم طاغية من البشر ، فتبعة ذلك عليهم هم .. وهم يملكون دائمًا رده .. لأنه لا يركبهم « بحتمية » زائفة ، ولا يركبهم بمصلحة طبقة معينة منهم تأخذ دورها الحتمى فى التاريخ . وإنما يركبهم لأنهم تهاونوا فى رده إلى شريعة الله . وهم يملكون دائمًا أن يعودوا فيردوه إلى شريعة الله .. ولو تحملوا فى ذلك تضحيات وتعرضوا لأخطار ! فهى ـ فى النهاية ـ أقل على وجه التحقيق من التضحيات التى يدفعونها ثمن المذلة لطاغوت من البشر يحكمهم « بالحتمية » ولا يملكون من حتميته الفرار !

وبقى أن نعرف ـ ونحن نستعرض الاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن ـ أن شريعة الله هذه التى يحكم بها الناس فى ظل منهج الله ، هى العدل الكامل والخير الخالص للبشرية .. ولكنا نبرز أولا هذه الحقيقة ـ السياسية ـ الهامة ، أنه لا حرية للناس ـ ابتداء ـ إلا بمنع البشر من أن يشرعوا لأنفسهم ، وعزلهم من هذا السلطان الجائر ـ وهو **دائمًا** جائر ـ الذى يعطونه لأنفسهم حين لا يحكمون بما أنزل الله .

إن شرع الله لم يكن ينتقص كرامة البشر ووعيهم وفاعليتهم ونضوجهم وتقدمهم ... الخ ـ حين حرم عليهم أن يشرعوا لأنفسهم .. إنما كان يضع الوسيلة ـ التى لا وسيلة غيرها ـ لتحرير الناس تحريرًا حقيقيا من كل طغيان ...

* * *

وحين تتأكد لنا هذه الحقيقة وتستقر فى أذهاننا ـ كما ينبغى لها أن تصنع ـ ننتقل إلى عرض نماذج من شريعة الله ومنهجه فى الاقتصاد والاجتماع والأخلاق ... الخ .

لقد كان مصدر الطغيان فى الجاهلية ـ فيما يتعلق بالاقتصاد ـ أمرين اثنين : طريقة التملك من ناحية ، وكون الطبقة التى تملك هى التى تحكم من ناحية أخرى .

ومنهج الله يعالج الأمرين معا ، بما يصلح أمور الناس .

فهو أولا يعزل عن السلطان كل طبقة تريد أن تتجبر - بتقريره حاكمية الله وحده - ومنع الناس من الحاكمية.

وهو ثانيًا يعطى عدالة **موضوعية** فى مسألة الملكية.

فإذا كانت الجاهلية الرأسمالية تطلق الملكية الفردية بغير حد .. مما يترتب عليه استعباد غير المالكين ..

وإذا كانت الجاهلية الجماعية تمنع الملكية الفردية البتة .. مما يترتب عليه كذلك استعباد غير المالكين[1] ..

فالإسلام لا يمنع الملكية الفردية البتة .. ولا يطلقها بلا حدود !

إنه لا يمنع الملكية الفردية البتة - لأن ذلك يجعل أرزاق الناس كلهم فى يد « الدولة » .. وبالتالى يستعبدهم للدولة بلقمة العيش !

والإسلام يقيم نظامه السياسى والاقتصادى والاجتماعى على أساس أن يكون « الناس » هم الرقباء على ولى الأمر ، يتابعون مدى تنفيذه لشريعة الله - ويوجهونه إذا أخطأ فى تنفيذها - ويسقطون سلطانه عليهم إذا خرج عن شريعة الله :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير - **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** »[2]

« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده . فمن لم يستطع فبلسانه . فمن لم يستطع فبقلبه . وهو أضعف الإيمان[3] »

« أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم[4] »

وهذا كله لا يتأتى إذا كان الناس كلهم مستعبدين للدولة بلقمة الخبز ..

والإسلام نظام **واقعى** .. فهو لايفترض فى الناس الملائكية . ولا يفترض فيهم كذلك أن يكونوا كلهم من أولى العزم ! إنما يتعامل مع النفس البشرية فى واقعها : بضعفها وقوتها - وهبوطها ورفعتها . لذلك يضع نظمه على أساس هذا الواقع البشرى - ويساعد

---

(١) راجع الفصل السابق .

(٢) سورة آل عمران [١٠٤] .

(٣) متفق عليه .

(٤) من كلام الخليفة الراشد الأول أبى بكر رضى الله عنه .

الناس فى ضعفهم إزاء السلطان المتجبر .. فيحرص حرصًا شديدًا ـ **أساسيا** ـ على أن يكون للناس موارد أرزاق يطولونها بأيديهم مباشرة بعيدة عن التحكم الكامل للدولة ، الذى يجعل الدولة منفذ الرزق الوحيد إلى الناس ..

ولكن من جانب آخر يقدر الإسلام **فى واقعيته** ماينشأ من إباحة الملكية الفردية على **إطلاقها** ، من ظلم وطغيان من بعض الناس على سائر الناس .

لذلك يضع قيودًا موضوعية تمنع تزايد المال وتَضاعُفه فى أيدى فئة قليلة من الناس . منها تحديد وسائل الملكية ابتداء بوسائل حلال طيبة نظيفة . ومنها طريقة الميراث التى تفتت الثروة على رأس كل جيل . ومنها الزكاة التى تأخذ من رأس المال وربحه كل عام . ومنها تحريم الربا والاحتكار .. كما وضع فى يد ولى الأمر سلطة تصحيح الأوضاع كلما جنحت إلى الانحراف . دون مخالفة ولا هدم للأصل الذى تقوم عليه الحياة فى الإسلام . وهو أن يكون للأفراد موارد رزق خاصة لا تتحكم فيها الدولة تحكم المانع المانح ..

ولقد كان الربا والاحتكار هما مصيبة الرأسمالية الطاغية ، إذ مكناها رويدًا رويدًا من تجميع الثروات فى أيديها وحرمان سائر الناس منها .

ولو كان الأمر فى حاجة إلى شهادة على أن هذا المنهج منزل من عند الله ، لا من عند البشر ، لكفت هذه الشهادة ! فمصائب الرأسمالية كلها : من طغيان وفساد ، وإذلال للخلق ، واستعمار بشع واستغلال لشعوب الأرض . لم تكن واضحة للبشر يوم نزل الإسلام . ولم يكن واضحا لديهم أن هذه الرأسمالية الطاغية ستقوم على الربا .. ثم على الاحتكار .

وتحريم الربا والاحتكار فى هذا المنهج الربانى ، يكفى ـ وحده ـ لأن يثبت ربانية هذا المنهج ، ويشهد له ـ لو احتاج الأمر إلى الشهادة ـ على أنه منزل من عند الله : !

وليس هنا مجال التفصيل فى منهج الإسلام فى الاقتصاد . فذلك ـ كما قلنا ـ موضعه الكتب المتخصصة فى الموضوع .

إنما نعرض هنا عرضا ملخصًا للمفاتيح الرئيسية فى منهج الإسلام :

«النظرية العامة للاقتصاد الإسلامى تقوم على أساس أن الله سبحانه استخلف الإنسان ـ كنوع ـ فى الأرض ، وأن المال مال الله ، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه ،

وفق شروط الله الواردة فى شريعته ، سواء فى صورة مبادىء كلية أو تشريعات جزئية ـ والأولى هى الأكثر ـ وأن الفرد موظف فى هذا المال ، تقوم وظيفته فيه على أساس الملكية الفردية لجانب من هذا المال مقابل جهد يبذله ، وبشرط حسن التصرف فى هذه الملكية ـ بما يعود على نفسه وعلى الجماعة كلها بالخير . وفى حدود شروط الله التى بدونها لا يتحقق الخير . فإن هو سفه وأساء استخدام حق الملكية قيد حق التصرف وعاد حق التصرف هذا إلى الجماعة . صاحبة الحق الأول المستمد من خلافتها عن الله فى الأرض . وهذا لا يخل بقاعدة الملكية الفردية التى يقوم عليها نظام الإسلام كله ـ لا النظام الاقتصادى وحده ـ ولكنه فقط يحيط هذه القاعدة بالقيود التى تكفل حسن التصرف فى هذه الملكية ، ويحفظ للجماعة حقها المقرر فى مال الأفراد بالزكاة وغيرها من التكاليف بقدر حاجة الأمة وبحسبها ، مع الإبقاء على ملكية الأفراد . فيما عدا بعض الموارد العامة التى تبقى ملكية عامة :

«وآتوهم من **مال الله** الذى آتاكم»[1]

«ولا تؤتوا السفهاء **أموالكم** التى جعل الله **لكم** قياما»[2] .

ثم يجعل هناك قاعدة لتوزيع المال فى الجماعة :

«كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»[3]

«فلا ينبغى أن تحتكره أيدى الأغنياء فى أية صورة . يجب أن توزع ملكيته فى الأيدى الكثيرة كى تتداوله ، وكى تتم دورة المال الطبيعية فى أيدى أكبر عدد من الأمة .

«وهناك حق المعوزين والمحرومين ، تتقاضاه الجماعة حقا مفروضا ، وتوزعه على المحتاجين إليه :

«وفى أموالهم حق للسائل والمحروم»[4] .

---

(١) سورة النور [٣٣] .
(٢) سورة النساء [٥] .
(٣) سورة الحشر [٧] .
(٤) سورة الذاريات [١٩] .

«هو حق الزكاة . ووراءه التكاليف الطارئة التي يؤخذ بحسبها كلما وجدت من أموال الأغنياء» .

«ثم هناك قواعد لكسب المال والتعامل فيه . فلا يجيء هذا الكسب ، ولا يتم هذا التعامل بطريقة فيها مضارة من أى وجه لفرد أو أكثر فى الجماعة . ومن ثم يحرم النصب والنهب والسرقة والغش والاحتكار . كما يحرم الربا وهو أبشع هذه الوسائل جميعًا .

«يا أيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ...»[1]

«وهناك أمر بالمعاونة «النظيفة» : «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون»[2]

«تلك قواعد عامة . وهذا هو الإطار الذى ينمو فيه الاقتصاد الإسلامى بلا عائق . إلا العوائق التى تمنع الانحراف»[3] .

وتلك هى الطريقة التى يعالج بها المنهج الربانى أمور الاقتصاد فى كل طور من أطواره فيمنع عن الناس الظلم ، ولا يجعل الناس عبيدا لقوة طاغية فى الأرض ...

* * *

غير أنه ينبغى لنا أن نضيف إلى تلك القواعد العامة حقيقة أخرى كبيرة يتميز بها المنهج الربانى فى أمور الاقتصاد .

إن التصور الإسلامى لا يجعل الإنسان عبدًا «للحتميات» من أى نوع .. سواء حتمية المادة أو حتمية التاريخ .

إن «الناس» ـ فى الإسلام ـ هم الذين ينشئون مجتمعهم واقتصادهم . إنه ليست هناك أطوار حتمية تأخذ قالبًا معينًا فى حياة الناس ، وتغلب طبقة على طبقة ، بما تمنحها الحتمية الاقتصادية من التملك وما تمنحها من السلطان !

---

(١) سورة البقرة [٢٧٨ ، ٢٧٩] .

(٢) سورة البقرة [٢٨٠] .

(٣) من كتاب «التطور والثبات» .

إن هذا يحدث فقط فى ظل الجاهلية المنحرفة عن منهج الله !

أما فى ظل المنهج الربانى ، فالناس يعبدون الله وحده .. ولا يعبدون هذه الحتميات !

ولقد حدث بالفعل أن حال المنهج الربانى ـ رغم انحراف الناس عنه انحرافا جزئيًّا ـ دون قيام الإقطاع بصورته الأوربية البشعة فى أرجاء العالم الإسلامى . ولم يستطع هذا الإقطاع أن يفرض صورته «الحتمية !» على حياة المسلمين !

إن الإنسان هو القوة الفاعلة فى تصور الإسلام . والكون كله ـ بطاقاته جميعا ـ مسخر له :

«وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه»(١)

ومن ثم ينشىء الإنسان اقتصاده حسبما يعتقد هو ويتصور . بإرادته التى منحه إياها الله . ولا يكون عبدًا ذليلا خاضعًا لأطوار الاقتصاد «الحتمية» تستعبده وهو صاغر ، وتفرض عليه حتميتها وهو خاضع ذليل .

وحين يمنح المنهج الربانى الإنسان هذه الإيجابية الفاعلة ، فهو يكرمه فى عالم التصور ويصحح خطاه فى عالم السلوك فيجعل مجتمعه الإنسانى بريئًا من الظلم والانحراف والفساد .

* * *

والمنهج الربانى فى أمور الاجتماع يقيم التوازن بادىء ذى بدء بين الفرد والمجتمع ، ثم ينظم علاقة الرجل والمرأة فى المجتمع أدق تنظيم(٢) .

ليس الفرد والمجتمع معسكرين متقاتلين فى نظر الإسلام !

وما ينبغى لهما أن يكونا كذلك !

---

(١) سورة الجاثية [١٣]

(٢) لا نتحدث هنا عن العلاقات الجنسية ، وإنما عن العلاقات الاجتماعية ، وعلاقة الجنس واحدة من هذه العلاقات ولا شك ، ولكنها تتميز بطابعها الخاص ولذلك أفردنا لها الحديث .

إن «الخلافة» التى منحها الله «للإنسان» تشمله فردًا وتشمله جماعة . و «الإنسان» يشمل الفرد والمجتمع فى ذات الوقت .

ومن ثَم فلا عدواة ولا بغضاء .. ولا تشاحن على الغلبة بين هذا وذاك !

والقضية التى تصور المجتمع عدوًّا للفرد يسعى إلى سحقه وتحطيمه ، أو تصور الفرد عدوا للمجتمع يسعى إلى منع الخير عنه .. لا تصور الحقيقة إلا فى حالات الشذوذ والانحراف !

أما فى حالات الاستواء فالفرد من المجتمع والمجتمع من الفرد .. لا انقطاع بينهما ولا انفصال !

فى حالات الانحراف والشذوذ فقط يوجد الفرد الطاغى ـ أيا كان لون طغيانه ـ والفرد الفاسد . والفرد المنحل . والفرد الجشع .. الخ الذى يرى أن روابط المجتمع المتماسكة تحول بينه وبين تحقيق الانحراف المسيطر عليه ، فيسعى إلى تفكيك هذا المجتمع وتفتيته . أو إلى السيطرة عليه واستغلاله .. بحسب نوع الانحراف .

ويوجد المجتمع الطاغى ـ بصورة من صور الطغيان ـ والمجتمع الفاسد المنحرف عن سواء السبيل ، الذى لا يطيق من الفرد المستقيم استقامته ، أو لا يطيق منه دعوته إياه إلى الاستقامة . فيسعى إلى سحقه وتحطيمه .

أما فى حالة الاستواء ـ من الفرد والمجتمع كليهما ـ فهناك التجاوب **الطبيعى** الذى تلتقى عنده الأهداف والأفكار والمشاعر ، وتتآلف وتترابط ، ليتكون منها كيان متكامل سليم .

والإسلام ـ بطبيعة الحال ـ يسعى إلى الوصول إلى حالة الاستواء ، فى الفرد والمجتمع فى ذات الوقت . ويسعى إلى تقويم حالة الشذوذ والانحراف ، من الفرد والمجتمع على السواء .

* * *

يسعى الإسلام إلى إيجاد حالة من التوازن بين الفرد والمجتمع ، بإبراز كيان الفرد المستقل من ناحية ، وإبراز كيان المجتمع المترابط من ناحية . كلاهما على استواء .

الفرد يخاطبه الإسلام مباشرة ، ويعطيه حقوقا ويلقى عليه تبعات ، تبرز فى النهاية كيانه الفردى المستقل .

والجماعة يخاطبها الإسلام كذلك ، ويعطيها حقوقا ويلقى عليها تبعات تبرز كيانها المجتمع المترابط .

فالفرد فى الإسلام يتصل بالله مباشرة بلا وسيط . يخاطبه ويناجيه ويعبده ويتقرب إليه ، فردًا مستقلا ذا كيان محدد متخصص . والإسلام يشعره على الدوام برعاية الله له ـ فردًا ـ رعاية كاملة . فهو الذى يخلقه ـ فردا ـ من لقاء أبويه ، بقدر من الله محدد له هو شخصيا ، لا لأحد سواه .. ثم هو الذى يرزقه ـ فردا كذلك ـ وإن كان يسبب لرزقه الأسباب الظاهرة التى تشترك فيها الجماعة ـ كما يشترك فيها الكون كله ـ ولكنه رزق محدد له هو ذاته ، مكتوب له شخصيا من عند الله ، لا يناله أحد سواه . ثم الله هو الذى يستجيب له حين يدعوه ، فيجيب حاجته فى الحياة الدنيا ـ إن شاء ـ أو يكتبها له فى الآخرة ، ولكنه فى الحالين يستجيب لدعائه الفردى المستقل عن كل فرد سواه . ثم هو يلقى الله فى النهاية فردا : «وكلهم آتيه يوم القيامة فردا»(1) ولا يسأل إلا عن نفسه وأعماله الذاتية : «كل نفس بما كسبت رهينة»(2) . «ولا تزر وازرة وزر أخرى»(3) .. وبذلك كله يتحقق الأساس الشعورى للفردية الذاتية المستقلة ، عن طريق الاتصال المباشر بالله .

ثم يكلف الإسلام الفرد تكاليف فردية تبرز ذاتيته . فهو ـ شخصيا ـ كل فرد بمفرده ـ مكلف أن يقيم شعائر الله وشرائعه . وأن يدعو «المجتمع» ـ أى غيره من الأفراد ـ إلى إقامتها ، ثم هو مكلف أن يقاوم المنكر من المجتمع ـ أى من غيره من الأفراد ـ بكل ما يملك من طاقة ، وبقدر ما فى نفسه من إيمان . ولايقف دون هذا التكليف حائل ، فالفرد ـ كل فرد ـ ينبغى أن «يتبنى» القضايا العامة للجماعة بحيث تصبح هى قضيته الخاصة والقضايا العامة فى الإسلام هىتنفيذ شريعة الله . أى إقامة حكم راشد ، وإقامة اقتصاد راشد ، وإقامة مجتمع راشد وإشاعة القيم الأخلاقية فى المجتمع ، والإشراف على تنظيف المجتمع وتطهيره من كل فساد خلقى ـ بمعناه الواسع ، ومعناه الضيق [الفاحشة الجنسية] على السواء ـ والرقابة على أعمال الحاكم ، لضمان أنها لاتنحرف عن شريعة الله ، أى عن الحق والعدل الشامل للجميع .. وبذلك كله تبرز له

---

(1) سورة مريم [95] .
(2) سورة المدثر [38] .
(3) سورة الأنعام [164] .

شخصية إيجابية فاعلة فى واقع الحياة لا فى عالم النظريات . تبرز عن طريق « تربية » الفرد نفسيا وخلقيا واجتماعيا ليقوم بكل هذه المهام .

ثم إن الإسلام يعطى الفرد حق الملكية الفردية ، فيبرز له ذاتيته المستقلة من جانب آخر . وسواء تحقق له هذا الملك فى عالم الواقع أم لم يتحقق ، فالحق قائم . والفرصة كذلك قائمة . والحق والفرصة كلاهما يحققان للفرد الذاتية المستقلة . فهو من ناحية ملك شخصى ، يتعلق بشخص الفرد ، ويحس فيه الفرد بوجوده ، ومن ناحية أخرى يجعل رزقه ــ الممنوح له من الله ــ على مقربة من كيانه الفردى ، يطوله بيده ، فيشعر فيه بالوجود الذاتى . ومن ناحية ثالثة يجعل فى يده وسيلة ارتزاق يستطيع بها أن يقاوم الطغيان حين يتعرض له من جانب الحاكم أو المجتمع المنحرف سواء .

وحين لا يتحقق الملك فى عالم الواقع ــ رغم وجود الحق ووجود الفرصة النظرية ــ فالإسلام كذلك لا يدع شخصيته الفردية تنسحق وتضيع وإنما يرتب له كفالة الدولة ــ من بيت المال ــ تحميه من الضياع . وكفالة الدولة فى مفهوم الإسلام تشمل إعداده لعمل نافع ، وتوظيفه فى عمل نافع . أو الإنفاق عليه من مواردها إذا عجزت عن إعداد العمل له أو عجز هو عن العمل للضعف أو الشيخوخة [أو الطفولة] وهو فى هذا كله يأخذ « حقا » له مفروضا من الله ولا يأخذ « إحسانا » من أحد من الناس . فالناس لا يرزقون أنفسهم إنما هو رزق الله . خصص منه نصيبا « مفروضا » يأخذه المستحقون له بحق الله .

وذلك كله أقصى ما يمكن أن يصل إليه نظام يطبق فى الأرض لإبراز ذاتية فردية سوية .

ومن الجانب الآخر يبرز الإسلام « شخصية » الجماعة ..

فكما كلف الفرد تكاليف ، لإثبات ذاتيته الفردية ، فكذلك ألقى على عاتق الجماعة تبعات تثبت ذاتيتها الجماعية .. المترابطة .

فهى مكلفة ــ كمجموعة ــ بإقامة شريعة الله وتنفيذها والرقابة على تنفيذها ..

هى التى تولى ولى الأمر .. وهى التى تملك أن تسحب منه البيعة [لا الأفراد !] وهى التى تراقب سيره فى الحكم ، وتحاسبه ، وترده إلى الصواب ، وتؤدى له المشورة .

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[1] .

«وأمرهم شورى بينهم[2] » .

«وشاورهم فى الأمر[3] » .

وينادى القرآن «الجماعة» المسلمة نداءات عديدة متكررة : «ياأيها الذين آمنوا ..» :

«ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى[4] » .

«ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة[5] » .

«ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[6] » .

«ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثُبَاتٍ أو انفروا جميعا[7] » .

«ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه[8] » .

وفى هذه النداءات المتكررة يضع لهم تشريعاتهم – ليقوموا بتنفيذها – وتوجيهاتهم – ليربيهم عليها كجماعة ، وينشئوا عليها أنفسهم وأولادهم و «أفراد» المجتمع جميعًا – ويكلفهم تكاليف ينهضون بها مجتمعين :

«واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ...[9] » .

«وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ...[10] » .

وكلها أمور تقتضى وجود «جماعة» متماسكة مترابطة .. ومهيمنة فى ذات الوقت على سير الأمور .

---

(1) سورة آل عمران [١٠٤] .
(2) سورة الشورى [٣٨] .
(3) سورة آل عمران [١٥٩] .
(4) سورة البقرة [١٧٨] .
(5) سورة البقرة [٢٠٨] .
(6) سورة النساء [٢٩] .
(7) سورة النساء [٧١] .
(8) سورة المائدة [٩٠] .
(9) سورة آل عمران [١٠٣] .
(10) سورة المائدة [٢] .

والإسلام يقيم الجماعة من الأفراد .. فهذه الجماعة المؤمنة التى تنادَى هذه النداءات وتقع عليها هذه التكاليف تنشأ من الأفراد المؤمنين ـ الذين كل واحد منهم مؤمن على حدة ومتصل بالله ـ فردًا ـ على حدة ـ ولكن الإسلام يعطى هذه الجماعة ـ التى تكوّنت من الأفراد بهذه الطريقة ـ كيانًا متميزًا متبلورًا «كجماعة» ويعطيها من الهيمنة ما يوازن الكيان المستقل للفرد الذى قد تغريه فرديته واستقلاله أن ينحرف عن سواء السبيل . فهى رقيبة عليه وهى موجهة لأعماله ، وفى يدها السلطة المخولة لها من الله ـ عن طريق ممثلها ـ ولى الأمر ـ أن تقوّم الفرد المنحرف وترده إلى الصواب . ولكن يمنع من طغيانها بهذه السلطة ـ فى المجتمع الإسلامى ـ أنها تنفذ ـ فى جميع الأحوال ـ شريعة الله لا هواها الخاص . وشريعة الله منزلة «للإنسان» .. الفرد والجماعة على السواء .

والجماعة كذلك هى المكلفة حماية أرض الإسلام وشريعته وأهله .. ككيان مجتمع مترابط متناسق .

والجماعة هى ـ من الوجهة النظرية ـ صاحبة المال الأولى ، التى تمنح حق التصرف فيه للفرد .. ومن الوجهة العملية تملك استرداد حق التصرف من الفرد الذى لا يحسن القيام على المال :

«ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيامًا . وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفًا»[1] .

ثم هى المكلفة ـ فيما بينها ـ بكفالة أفرادها الضعاف وحمايتهم ، قبل الدولة التى هى الموئل الأخير . فى حدود الأسرة أولا ، ثم فى حدود كل جماعة محلية على حدة ثم فى حدود الأمة الإسلامية عامة .

وبذلك كله تبرز شخصية الجماعة **على استواء** ، ثم تتوازن شخصية الفرد وشخصية الجماعة على استواء !

وحقيقة إن الأمر فى واقع الناس ليس بالسهولة التى تكتب بها هذه الألفاظ !

فالذى يحدث فى حقيقة الواقع أن الفرد يطغى أحيانًا ، والجماعة تطغى أحيانًا أخرى .

ولكن هذه الحقيقة مردها إلى «الناس» وليس إلى النظام !

---

(١) سورة النساء [٥] .

الناس ينحرفون ، بما فى فطرتهم من استعداد للانحراف ، مقابل لاستعدادهم للاستواء .

والفرق كبير ـ من الوجهة النظرية والعملية معًا ـ بين هذا الوضع ، وبين أن يكون الانحراف قائمًا فى النظام ذاته ، حيث لا يملك الناس له ردا إلا بتغيير النظام من أساسه ، وإقامة نظام جديد .

فى النظرية الرأسمالية يطغى الفرد **بطبيعة النظام** ،ولا يملك الناس رده إلا إذا غيروا النظام الرأسمالى من جذوره وأما فى ظله فلا يستطيعون أن يردوا مايقع عليهم من طغيان ، ولا أن يقوّموا الطغاة .

وفى النظرية الجماعية تطغى الجماعة **بطبيعة النظام** ، ولا يملك الفرد إلا أن ينسحق تحت ثقلة النظام الهائلة المروعة ، التى تكتسح فى طريقها كل فرد خارج عليه . أو فى الحقيقة خارج على الزعيم المقدس الذى يدير الدولة بالدكتاتورية الصريحة التى تسمى دكتاتورية البروليتاريا .

أما فى الإسلام فلا يقع طغيان من الفرد أو الجماعة بطبيعة النظام ، **إنما يقع إذا انحرف الفرد أو الجماعة عن النظام**. وعندئذ تقع تبعة انحراف الناس على أنفسهم . وعليهم تقويم هذا الانحراف الواقع فى أنفسهم والرجوع إلى الله ورسوله .. فتستقيم الأمور .

«ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر»[1] .

ومما ينبغى الإشارة إليه هنا أن الله والرسول هما السلطة التشريعية التى يرجع إليها فى جميع الأمور ، والطاعة لهما طاعة مباشرة . أما طاعة أولى الأمر فهى متعلقة بطاعة الله ورسوله . لذلك كرر الفعل «أطيعوا» مع الله ومع الرسول ، وأدمج طاعة أولى الأمر فى طاعة الله وطاعة الرسول بغير فعل مستقل . ثم جعل المرجع فى حالة التنازع بين المؤمنين على شىء ، هو الله والرسول وحدهما باعتبار تشريعهما هو الأصل الوحيد للتشريع .

وفى ظل هذا التصور لا يكون الفرد والمجتمع معسكرين متقابلين متقاتلين ، وإنما

---

(١) سورة النساء [٥٩] .

يكونان قوتين متداخلتين ـ كما هما فى حقيقة الواقع ـ متعاونتين ـ كما ينبغى أن يكون الأمر ـ متحدتين فى الأهداف والمشاعر والأفكار ؛ فلا يحدث الصراع ولا يحدث الطغيان ...

* * *

أما أفراد المجتمع من رجال ونساء وأطفال ، فالإسلام شديد العناية بهم ، شديد الحرص على تنشئتهم النشأة الصالحة التى تمنع ما وقع لهم فى الجاهلية من انحراف ، تَبِعَةُ الشقاء والعذاب والحيرة والاضطراب .

فأولا هناك تقسيم عام شامل ، للعمل والاختصاصات : الرجل مكلف بالإنتاج المادى وما ينتج عنه من اقتصاد وسياسة .. والمرأة مكلفة بالإنتاج البشرى ، وما يترتب عليه من رعاية الأسرة وتربية النشء الجديد على أسس صالحة .. والأطفال ينالون الرعاية والتربية والتقويم فى ظل الأسرة ، محضنهم الطبيعى الفطرى .

وليس هذا التقسيم تعسفيا من ناحية . وليس صارما قاطعا من ناحية أخرى .

إنه يرعى فطرة الرجل وفطرة المرأة واستعدادهما الطبيعى الأصيل ..

فالمرأة باستعدادها الفطرى ـ البيولوجى ـ للحمل والولادة والإرضاع ، قد ركبت تركيبا نفسيًّا معينًا ، يجعل الجانب العاطفى فيها هو الأقوى والأغزر ، والأقرب للاستثارة ، وهو الأملك لكيانها كله .. وليس معنى ذلك أنها لا تصلح أية صلاحية للعمل فى خارج نطاق البيت ، وخارج نطاق هذه الوظيفة الفطرية .. ولكنا رأينا من شهادة الطبيبة النمساوية فى الفصل السابق كيف فعلت المرأة بنفسها حين سعت إلى «المساواة» مع الرجل فى جميع وظائفه وأعماله ، وكيف أثر هذا على كيانها البيولوجى ، فضمرت أجهزة الأمومة ووظائفها ، ولم تعد المرأة امرأة ـ ولا رجلاً كما تمنت فى داخلية نفسها ! ـ وإنما جنسًا ثالثًا فى طريقه إلى الظهور ! جنسًا حائرًا قلقًا مضطربًا غير مستقر !

إنها عقوبة الفطرة الحاسمة التى لا تخضع لحماقات الجاهلية وأهوائها .. لأن الفطرة من صنع الله ، الذى خلق كل شىء ثم هداه إلى فطرته ووجهته بلا تبديل !

وحماقة فارغة كل ما تقوله المرأة «الحديثة» ، أو يقوله لها الرجل الذى يستهويها للخروج من مملكتها الطبيعية الفطرية ، لتكون بين يديه أسهل منالا ، وأقرب إلى

إجابةنزواته فى حمّى المجتمع المختلط الهائج بالنزوات ! حماقة فارغة أمام شهادة الفطرة .. فالفطرة لا تعرف أن «عقارب الساعة» قد تقدمت إلى الأمام أو أنها لا يمكن أن ترجع إلى الوراء !! فليس للفطرة علاقة بعقارب الساعة ! وعقارب الساعة هذه حين اختل توازنها فاندفعت بلا ضابط ، جرّت معها المرأة ذاتها ، وكذلك الرجل والأطفال إلى التشرد والشقاء ! فحين خرجت المرأة شاردة إلى الطريق ، صار الأمر فى المجتمع كله كما وصفه ول ديورانت.[1] شقاء شامل ، وضياع مدمر.. لا بيت ولاأسرة ولااستقرار !

ولم يكن الإسلام ليتبع أهواء الجاهلية وحماقاتها ..

إنه لم يرد للمرأة أن تكون ذلك الجنس الثالث الضائع المحير الذى نشأ من انحراف الجاهلية عن فطرة الله ، فلم يسعده انحرافه ، ولا وصل به إلى تحقيق السعادة والاستقرار .

لذلك وكل إليها وظيفتها الفطرية .. وكفل لها - فى هذه الوظيفة - كل رعاية ممكنة وصيانة .

كفل لها رزقها .. دون أن يحوجها إلى العمل .

وكفل لها احترامها الإنسانى .

وكفل لها صيانة جهدها أن يتبدد ما بين العمل الخارجى والبيت .

وكفل لها صيانة أخلاقها فلا تتعرض للفتنة فى المجتمع المختلط بلا ضابط ، ولا تصبح هى فتنة يستغلها أعداء البشرية لتدمير البشرية .

الرجل هو المكلف بالإنفاق . فى الخطبة والزواج وفى داخل الأسرة . ومهما يكن للمرأة من مال - وحق الملك مكفول لها بشريعة الإسلام ، وحق التصرف المباشر فى الملك مكفول لها كذلك فى هذه الشريعة ، وهو الحق الذى لم تنله فى الجاهلية الحديثة إلا أخيرا جدًّا - ومازال غير كامل ! - وفقدت فى سبيل الحصول عليه أنوثتها وفطرتها وأخلاقها - مهما يكن لها من مال فلا تكلف أن تنفق منه شيئاً إلا برضاها الكامل حين تريد .

والاحترام الإنسانى تكفله التشريعات والتوجيهات .

---

(١) راجع شهادة ول ديورانت فى الفصل السابق .

فحق الملك والتصرف المباشر فيه مكفول :

«للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن»(١)

«ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن .. »(٢)

والمساواة فى الإنسانية مكفولة من عند الله :

«من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة .. »(٣)

«فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . بعضكم من بعض»(٤) .

والاحترام فى داخل الأسرة مكفول :

«وعاشروهن بالمعروف»(٥)

حتى فى حالة الكراهية !

«فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا»(٦)

وبذلك يكفل لها ــ شعوريا وعمليا ، واقتصاديا واجتماعيا ــ أن تتفرغ لوظيفتها الأولى بغير إرهاق ، وتحقق كيانها الفطرى الذى أفسدته الجاهلية الحديثة بقضية «المساواة»

ومع ذلك فليس هذا التقسيم للعمل صارما قاطعا بالنسبة للمرأة .. **فالعمل ليس ممنوعا ولا محرما** .. ولكنه أمر لا يستريح إليه الإسلام ، إلا فى حالة **الضرورة** .. الضرورة **الفردية والاجتماعية معا** . وفى حدود هذه الضرورة فحسب .

أما إقامة الحياة البشرية كلها ــ اجتماعيا واقتصاديا وفكريا وروحيا وخلقيا ــ على أساس أن تعمل المرأة .. فحماقة جاهلية مدمرة رأينا بالفعل آثارها ونذرها ، فى هذا الجنس الثالث الذى ينذر بأن تتحول إليه المرأة العاملة ، حاويًا لكل أنواع الشذوذ العقلى والعاطفى والوجدانى والأخلاقى والجنسى ، وفى نشأة جيل من الأطفال بغير أمهات متفرغات يتربى على أيدى الخدم ، أو فى المحاضن الصناعية ، فيتعرض هو الآخر لكل

(١) سورة النساء [٣٢] .
(٢) سورة النساء [١٩] .
(٣) سورة النحل [٩٧] .
(٤) سورة آل عمران [١٩٥] .
(٥) و (٦) سورة النساء [١٩] .

هذه الأنواع من الشذوذ .. ويتكون منه غدًا نساء المجتمع ورجاله .. بما يحملون فى أطوائهم من الشذوذ !

أى أننا ندمر كيان البشرية كله ، فى سبيل قدر من الإنتاج المادى ، مهما عظم فهو تافه بالقياس إلى الخسارة الكبرى فى «الجوهر» الإنسانى الفذ .. وهو جوهر كريم لا يعوضه كل ما يزيد فى الإنتاج المادى .. والآلات الإلكترونية فى طريقها غدًا إلى القيام بمعظم هذا الإنتاج !

* * *

كلا ! لا يتبع الإسلام أهواء الجاهلية وحماقاتها ...

إنما يضع الرجل والمرأة والأطفال كل فى مكانه الصحيح ..

الرجل يتفرغ للإنتاج المادى وما يترتب عليه من سياسة واقتصاد .. والمرأة تتفرغ للإنتاج البشرى وما يترتب عليه من حضانة وتربية وتنشئة .. والأطفال يلقون الرعاية فى المحضن الطبيعى الذى لا يغنى غيره غناءه ، وهو الأسرة الهادئة المستقرة التى يربط رباطها الوجدانى امرأة مستقرة العواطف مستقرة الكيان .

ولا يمنع هذا أن تعمل المرأة فى الإنتاج المادى عند الاقتضاء على ألا تكون هذه مشغلة دائمة للجنس ، ولا «قضية» تبدد فيها الطاقات وتفسد فيها الأخلاق ..

ثم يلتقى الرجل والمرأة كلاهما ـ لقاء مباشرًا فى حدود الأسرة ، ولقاء حكميا فى محيط المجتمع ـ على أهداف اجتماعية **جادة نظيفة مستقيمة** .

إنهما لا يلتقيان للهو والعبث والاستمتاع على مستوى الحيوان .. ولا للاشتغال بالفتنة من هنا وهناك .. إنهما يلتقيان لإقامة مجتمع صالح رشيد .

والأم التى تربى أبناءها على أخلاق الإسلام ومثله .. تصنع ذلك .

والرجل من جانبه كذلك ..

بغير حاجة إلى الاختلاط المجنون ـ بلا هدف إلا إثارة نوازع الفتنة ـ الاختلاط الذى يبدد طاقة الرجل والمرأة والفتيان والفتيات فى هذا السبيل ..

ولتسأل الجاهلية الحديثة نفسها كم تنفق من الوقت والجهد فى المراقص والنوادى

والحفلات . فى سبيل ماذا فى النهاية .. ؟ غير الاستمتاع الحيوانى وفساد الأخلاق !

وماذا أصاب «المجتمع» كله .. إلا فساد كيان المرأة ـ البيولوجى ذاته ـ وفساد الرجل وفساد الأطفال ؟!

* * *

والأخلاق هى القواعد التى يسير عليها «المجتمع» فى تعاملاته ..

والإسلام لا يترك أمر هذه الأخلاق «للناس» .. حتى لا يصيبها ما يصيب الناس من تقلب وانحراف !

إن الأخلاق ـ فى الإسلام ـ من صنع الله .. إنها لا تفترق شيئًا عن التشريع الذى ينظم الحياة !

وكما أن الإسلام يركز على حقيقة تفرد الله بالألوهية وتفرده بالحاكمية ، فكذلك يجعل المصدر الوحيد للأخلاق هو الله ، وما يقرره الله .. لأنها قضية واحدة فى النهاية .

وكما أن الجاهلية حين انحرفت عن إفراد الله بالألوهية والحاكمية ، وقعت فى تلك الاضطرابات والاختلالات التى وصفناها فى الفصل السابق . فى السياسة والاقتصاد والاجتماع فكذلك حين انحرفت عن أخذ قواعدها الخلقية من منهج الله ، وقعت فيما وقعت فيه من الاضطرابات والاختلالات .. لأنها قضية واحدة فى النهاية .

إن «الطاغوت» الذى يحكم الناس فى السياسة والاقتصاد والاجتماع حين ينحرفون عن منهج الله ، هو ذات الطاغوت الذى يوجه أخلاقهم ويضع لهم قواعدها .. **هو ذات الطاغوت !**

فما الأخلاق ؟

لقد فسرها التفسير المادى للتاريخ بأنها انعكاس الوضع الاقتصادى .. وقال إنها «متطورة» وحتمية التطور ، لأنها تتبع أطوار الاقتصاد الحتمية الحدوث ..

وهذا التفسير ـ ولو أنه باطل ضخم ـ إلا أنه صادق فى ناحية واحدة :

إنها حقيقة واقعة أن الأخلاق ـ فى الجاهلية المنحرفة ـ تتبع التطور الاقتصادى و«تتطور»

معه ! ولكن لماذا ؟! لا لأن ذلك أمر حتمى وطبيعى كما يزعم التفسير الجاهلى للتاريخ . ولكن لأن الذى يحدث فى واقع الأمر أن الطاغوت الذى يضع قواعد الاقتصاد ـ لصالح طبقة معينة على حساب سائر الناس ! ـ هو ذاته الذى يضع قواعد الأخلاق ، لصالح نفس الطبقة على حساب سائر الناس ! ومن ثم يبدو للنظرة المقلوبة التى ينظر بها التفسير الجاهلى للتاريخ أن الارتباط بين الاقتصاد والأخلاق ، هو ارتباط السبب والنتيجة . وحقيقة الأمر أن الارتباط القائم بينهما ـ فى الجاهلية المنحرفة ـ هو توحد المصدر الذى تصدر عنه هذه وتلك .. وهو الطاغوت !

وفى منهج الله يقوم الارتباط كذلك بين السياسة والاقتصاد والاجتماع .. وبين الأخلاق ! ولكنه ـ مرة أخرى ـ ليس ارتباط السبب والنتيجة كما تراه النظرة المقلوبة ، نظرة التفسير الجاهلى للتاريخ ، وإنما هو ارتباط المصدر الواحد الذى تصدر عنه هذه وتلك .. وهو الله !

ولا تكون الأمور إلا كذلك !

إنه مصدر واحد هو الذى يشرع للناس حياتهم بأجمعها : فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين .. الخ . إما أن يكون هو الله .. وإما أن يكون هو الطاغوت !

وحين انفصلت الأخلاق فى الجاهلية الأوربية الحديثة عن معينها الأصلى ، وهو منهج الله ، أصابها ما أصابها من انحراف .. بطئ جدا ، وتدريجى جدا ـ لأن هذا هو الشأن فى أمور الأخلاق ، المرتبطة بأعماق النفس البشرية من الداخل ، التى لا تتحرك ولا تمور حتى يكون السطح قد وصل إلى درجة من الاضطراب الذى لا يطاق ! ـ ولكنه حاسم فى النهاية .

انفصلت السياسة عن الأخلاق بادئ ذى بدء . ثم انفصل الاقتصاد . ثم انفصل الجنس . ثم صارت الأخلاق نفعية وأنانية ، ثم .. فى النهاية أخذت تتداعى هذه الأخلاق النفعية الأنانية ذاتها على يد الجيل الناشئ فى الغرب .. مؤذنة بالانهيار ..

ولن يحدث فى أى وقت من الأوقات أن تنهار **جميع** الأخلاق ! لن يحدث ! فالنفس البشرية ـ بطبيعتها المزدوجة ـ لا يمكن أن تتمحض ـ بمجموعها كله ـ للشر . وإنما تبقى ألوان من الخير متناثرة هنا وهناك .. ولكن يحدث أن يزداد الشر حتى يصبح هو الغالب .. وعندئذ ينهار البناء .

والإسلام ـ فى شأن الأخلاق ـ يضع الأمور فى موضعها الطبيعى الحق .. الأخلاق ـ ككل شئ فى منهج الحياة ـ مصدرها الوحيد هو الله ، ومنهج الله . ومن ثم تصبح فى وقاية من تلاعب الطاغوت ، الذى يسمى «تطورًا» ليستر الطاغوت ! ولييسر الفساد على نفس البشرية !

ومن أجل أنها أخلاق «ربانية» لا أخلاق من صنع البشر ، فهى لا تتعرض للأهواء ، ولا تتحول عن قواعدها الراسخة ، ولا تتحول لخدمة طبقة أو طائفة من الناس .. ولا تنحل كذلك اتباعًا للأهواء والشهوات .. ولا تصبح «مودات» متغيرة كما تتغير الأزياء !

ومن أجل أنها أخلاق ربانية ، فهى أخلاق «إنسانية» ! إنسانية بمعنى أنها تتعامل مع كل بنى الإنسان . لا على أساس المصلحة القومية أو المصلحة العنصرية ، أو العصبية الدينية .. أو أى لون من ألوان الانحراف الذى أصاب «الأخلاق» الغربية حين انحرفت عن منهج الله .

إنها تتعامل مع الإنسان على أنه إنسان .. بصرف النظر عن فوارق اللون والعنصر والطبقة .. والاعتقاد .. إنسان مشتق من «النفس» الواحدة التى خلقها الله بادئ ذى بدء ، وخلق منها زوجها وبث منهما الرجال والنساء :

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء»[1] .

«وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[2] .

وتظل قواعد الأخلاق ثابتة ، على تطور الاقتصاد والسياسة ، لأنها تنبع من قضية ثابتة فى حياة البشرية ، وهى مساواة الناس فى الإنسانية ، وتكافؤ حرماتهم ووجوب صيانتها عن العدوان[3] .

وقد عرف الواقع الإسلامى نماذج رائعة من هذه «الأخلاق» توضح الفرق بينها وبين

---

(١) سورة النساء [١] .

(٢) سورة الحجرات [١٣] .

(٣) انظر كتاب «التطور والثبات» فصل «الإسلام وحياة البشرية»

الأخلاق الغربية النفعية الأنانية القائمة على أساس المصلحة ، ومصلحة طبقة معينة أو شعب معين على حساب بقية الناس .

«فنى وسط الحرب الخبيثة التى كان يشنها اليهود على الإسلام فى مهده ، يحاولون زلزلة المؤمنين واقتلاع العقيدة الجديدة من جذورها قبل أن ترسخ فى الأرض ، والدس والكيد ونشر الأراجيف ، وتشكيك الناس بعضهم فى بعض ، وإيذاء المسلمين والمسلمات فى أعراضهم .. بالإضافة إلى الحرب الرسمية التى تستخدم فيها أدوات القتال ، مع الغدر فى هذه الحرب ونقض المواثيق وانتهاك الحرمات .. فى وسط كل ذلك لا يقبل الإسلام عدوانًا وقع على واحد من اليهود ، إذ رُمِىَ بتهمة ظالمة وكاد يحكم عليه من أجلها ، فيتنزل الوحى بتبرئته فى هذه الآيات البينات : «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيمًا . واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيمًا . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطًا . هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلاً ؟ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا . ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليمًا حكيمًا . ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرم به بريئًا فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيمًا »[1] .. وقد نزلت هذه الآيات التسع بهذا التفصيل والبيان والتوكيد الشديد المكرر ، لتحمى الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكم على هذا اليهودى البرئ الذى كانت القرائن ـ الظاهرة ـ كلها تتهمه ، وكان الحق أنه برىء من الاتهام ! ووضع الإسلام بذلك فى عالم الواقع هذا المبدأ الإنسانى الخالد .. الذى لا يوجد قط بهذه الصورة فى غير الإسلام ! »[2]

هذا فى مجال «العصبية ! » الدينية ..

---

(١) سورة النساء [١٠٥ ـ ١١٣] .

(٢) عن كتاب «التطور والثبات» .

وقد مر بنا فى مجال «السياسة» الداخلية موقف عمر من المعارضة وهو يخوض المعركة الحاسمة بين الإسلام وأعدائه المتربصين به من كل مكان.

فهذا مثال فى مجال «السياسة الخارجية» ..

«وكذلك حدث أن سجل فى المعاهدة التى أبرمها [أبو عبيدة] مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا» ... فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك [بتجهيز هرقل لمهاجمته] كتب إلى عمال المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم. وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم. ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم»[1]

وهكذا تدخل «السياسة» بشقيها فى إطار الأخلاق، ولا يوجد مبرر «ميكيافيلى» لنزعها من إطار الأخلاق!

أما الاقتصاد فقد زعمت الجاهلية الحديثة كذلك أن لا علاقة له بالأخلاق! وإنما تحكمه قوانينه «الحتمية» التى لا يقال فيها «خير» و«شر» .. ولا يقال فيها «فضيلة» و«رذيلة» .. إنما مقياس كل شئ كامن فى ذاته، مادام داخل الطور الحتمى الذى يسير فيه. فإذا انتهى الطور بصورة حتمية انقلب الميزان الأول وركب ميزان جديد، وصار الصالح المناسب بالأمس ملعونًا منبوذًا فى اليوم الجديد .. ولكن على غير أساس أخلاقى! فالإقطاع فى طوره مناسب ومقبول! وهو مقياس ذاته! فإذا انقضى طوره الحتمى وجاءت الرأسمالية فالإقطاع بشع ومرذول .. لا لأنه يجافى الحق والعدل الأزليين .. ولكن لأنه يعيش بعد موعده المقدر له! والرأسمالية صواب ... مهما اقترفت من آثام .. مادامت فى طورها «الطبيعى» .. فإذا انتهت انقلب عليها الميزان .. وهكذا على ممر التاريخ! لا مقياس لشئ خارج ذاته .. والأخلاق على وجه الخصوص هى آخر شئ تقاس به الأمور!!

وهذا ـ ولاشك ـ من شدة الرقى والتقدم والارتفاع!!

أما الإسلام ـ كلمة الله ـ فإنه لا يعترف ابتداء بأن شيئًا ما فى حياة الناس .. اقتصادًا

---

(١) عن كتاب «الدعوة إلى الاسلام» تأليف ت. و. أرنولد، ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميليه

أو غير اقتصاد ، يمكن ألا يكون له علاقة بالأخلاق !

من أجل ذلك حرم الربا **على أساس أخلاق** فى ذات اللحظة التى حرمه فيها على أساس اقتصادى ! لا فرق بين الاقتصاد والأخلاق فى أصل التشريع ولا فى واقع الحياة !

«يا أيها الذين آمنوا **اتقوا الله** وذروا ما بقى من الربا **إن كنتم مؤمنين** . فإن لم تفعلوا **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** . وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم **لا تَظلمون ولا تُظلمون** . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . **وأن تصدَّقوا خير لكم** إن كنتم تعلمون . **واتقوا** يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»[1] .

وهكذا يختلط التوجيه بالتشريع . والأخلاق بالسياسة والاقتصاد .. بغير انفصال .

فالربا يحرم على أنه ظلم .. ظلم اقتصادى واجتماعى .. وفى الوقت ذاته على أنه فاحشة أخلاقية . على نفس المستوى من التحريم . فليس تحريمه كفاحشة أخلاقية أقل أو أكثر من تحريمه كفاحشة اقتصادية ، ولا متميزًا عنه . وفى الوقت ذاته يكافح الربا مكافحة أخلاقية بالتوجيه إلى تقوى الله والترغيب فى مثوبته ، كما يكافح بالحرب من الله ورسوله أى بمحاربة الدولة المسلمة له بجميع أجهزتها السياسية والإدارية والقضائية .. الخ . على نفس المستوى من المكافحة . فليست مكافحته بالتوجيه الخلقى أقل أو أكثر من مكافحته بالتشريع والقانون والعقوبة ، وبإقامة الاقتصاد كله على أساس غير ربوى .. كلاهما شئ واحد من المبدأ إلى المنتهى .. بلا انفصال ولا افتراق !

وعلى هذا النحو المزدوج المتكامل من إقامة الاقتصاد على أسس أخلاقية ، وربط الأخلاق بالأسس الاقتصادية ، قام المجتمع الإسلامى الأول ببناء اقتصادياته فى داخل إطار الأخلاق ، وعلى ركيزة أخلاقية واضحة فى التعامل الفردى والجماعى سواء .

أقام المجتمع الإسلامى اقتصادياته على أساس تحريم الربا والاحتكار ، وتحريم الغصب والنهب والسلب والسرقة والغش . وتحريم عدم توفية الأجير أجره ، وتحريم إساءة استعمال الحق .. وكلها أسس أخلاقية واضحة لابد منها ــ فى منهج الإسلام ــ لإقامة البناء الاقتصادى ..

وقد كان الانحراف عن هذه الأخلاق التى أقامها منهج الله هى التى أدت بالاقتصاد

(١) سورة البقرة [٢٧٨ ــ ٢٨١] .

الغربى إلى وحشية الإقطاع وويلات الرأسمالية وبشاعة النظم الجماعية . وإن كان الجاهليون لم يفيقوا بعد من جاهليتهم ، ليعرفوا أن الذى ذاقوه كله والذى لا يزالون يذوقونه من الظلم والعسف والطغيان فى هذه النظم الاقتصادية سببه الأول هو الانحراف عن المنهج الأخلاق .. والفصل بين الاقتصاد والأخلاق .. والظن ــ الجاهلى ــ بأن الاقتصاد له قوانينه «الحتمية» الخاصة التى لا علاقة لها بالأخلاق .. ! !

أما الإسلام ــ منهج الله ــ فقد عرف ــ فى فترته المثالية الأولى ــ درجة من النظافة الخلقية فى عالم الاقتصاد لا مثيل لها فى التاريخ كله .. حين اشترك المهاجرون والأنصار فى المال العام عن طيب خاطر ، تطوعًا بغير أمر من الدولة ولا تدخل . وحين تسابق المسلمون إلى أداء الزكاة ــ ضريبة التكافل الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى ــ تقربًا إلى الله واحتسابًا دون ملاحقة من الدولة ولا مطاردة . وحين لم يقف الإنفاق عند الحد المرسوم فى الزكاة ، بل تطوع الناس ــ أحيانًا ــ بمالهم كله فى سبيل الله . وحين قام أبو بكر ــ وهو خليفة ! ــ يبحث عن عمل يرتزق منه ! حتى قال له المسلمون : إن هذا الأمر لا يصلح بذاك . فقال : فمن أين أعيش ؟ ! فجعلوا له دراهم من بيت المال يعيش بها هو وأهله ، ثم اعتبرها كلها دينًا عليه فردها قبل وفاته ! وحين قام عمر يوزع عكة من السمن اشتراها له غلامه من معاشه الرسمى الضئيل الذى فرضه له المسلمون من بيت المال إذ لم يكن له مال يعيش منه .. يوزعها على فقراء المسلمين لأنه لا يحل له أن يأكل ــ من معاشه الرسمى الضئيل ــ وفقراء المسلمين لا يجدون ما يجد ! وحين قام على بن أبى طالب يختم على جريب الدقيق الذى يخرج له من بيت المال يقول : حتى لا يدخل بطنى إلا ما أعرف ! وحين قام عمر بن عبد العزيز يرد على المسلمين ما أقطعه إياه بنو مروان بغير حق ، ويرد كل ما اغتصبه بنو أمية من الناس ..

ثم عرف ــ بعد فترته المثالية الكبرى ــ على الرغم من انحراف أهله عنه انحرافات جزئية كثيرة ــ كيف يحول دون قيام الإقطاع ــ الحتمى ! ! ــ فى العالم الإسلامى بصورته الأوربية البشعة ــ اللاأخلاقية ــ لأنه ــ على الرغم من انحراف الناس عنه انحرافًا جزئيًا ــ لم يتخل عن إقامة الاقتصاد على أساس الأخلاق .. بينما النظم الجاهلية ــ اللاأخلاقية ــ لم تعرف فى اقتصادياتها طعم النظافة و«الإنسانية» مرة واحدة فى تاريخها الطويل .. لا فى الإقطاع ولا فى الرأسمالية .. ولا فى النظم الجماعية ــ حتى فى فترتها «المثالية» على الأقل ! .. فى حماسة الناس للمبدأ الجديد ــ فقام الحزب الشيوعى فى كل بلد اعتنق الماركسية يرتب لنفسه حقوقًا خاصة

ليست لبقية الناس : فيأكل ويشرب ويلبس ويسكن غير ما يأكل الناس وما يشربون . وحتى المرض والاستشفاء .. يتداوى أعضاء الحزب الشيوعى بالدواء المضمون المستورد من الخارج بالعملة الصعبة . وجماهير الشعب تتداوى بالأدوية المصنوعة فى داخل روسيا .. كيفما تكن النتائج وكيفما يكن الدواء ! !

ذلك أن هذه النظم كلها لا تؤمن بأخلاقية الاقتصاد ! وإنما تؤمن بالمكيافيلية الجاهلية الهابطة التى تبرر الوسيلة بالغاية .. ثم لا تقيس الغاية ذاتها بمقاييس الأخلاق !

والإسلام ـ منهج الله ـ هو المخرج الوحيد من ذلك الفساد .. حين يقيم نظامه الاقتصادى على أساس أخلاق «إنسانى» يمنع الظلم ويحول دون تحكم الطاغوت ..

أما «الأخلاق» التى تعرفها الجاهلية الحديثة فى محيط المجتمع .. وبقية «الفضائل» القائمة فى الحضارة الغربية من صدق وأمانة ، وإخلاص فى العمل ، واستقامة فى التعامل ، فلا أحسبنا فى حاجة لأن نقول إنها فى صميمها أخلاق إسلامية .. وقد تعلمت أوربا الكثير منها من احتكاكها بالعالم الإسلامى [وإن كان الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» قد نبذوها اليوم وانسلخوا منها !] ولكننا فى حاجة لأن نقول : إنها فى الإسلام لا تقف عند المستوى النفعى الأنانى الذى تقوم عليه الأخلاق فى أوربا .

إنما الإسلام ـ مع احتوائه على هذه الأخلاق فى جميع صورها ـ فإنه يحتوى عليها فى مستواها «الإنسانى» الأعلى ، الذى لا يتوقف على المصلحة ولا العصبية ، لأنه يحتويها على مستواها «الربانى» الذى يضع القواعد لجميع الناس .. لجميع بنى «الإنسان» .

وحين يأخذ الناس فى حياتهم الواقعة بمنهج الله ، فستكون عندهم هذه الأخلاق ، التى يحتفظ الغرب بطرف منها ، ولكن على مستواها الأعلى . ثم يدخل فى نطاق الأخلاق كل ما يعرض للناس من شئون حياتهم ، فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .. والجنس . بحيث لا يشرد شئ واحد عن محيط الأخلاق ، لأن الأخلاق هى قواعد السلوك العامة . وليست خاصة بشأن دون شأن فى هذه الحياة !

* * *

والحديث عن الجنس بصفة خاصة حديث متشعب الأطراف !

وما نريد أن نتحدث عنه من الزاوية الضيقة التى يطلق عليها عادة اسم «الأخلاق» !

إن الأخلاق فى نظر الإسلام أوسع جدا من النظرة الضيقة التى اعتاد الناس أن ينظروا

بها وهم يتحدثون عن الأخلاق ، ويقصدون انحراف العلاقة بين الجنسين عما ينبغى أن تكون عليه .

الأخلاق فى نظر الإسلام هى «الإنسان» كله ... كل ارتباطاته بربه وبنفسه وبالناس .. إنها لا تشمل شئون الجنس وحدها .. ولا المعاملات مع الناس وحدها .. ولكنها تشمل حتى المشاعر الداخلية التى لا يفصح عنها الإنسان للناس ، بل حتى التى لا يفصح عنها لنفسه .. ومع ذلك ينبغى أن تستقيم على أصول الأخلاق لأن الله «يعلم السر وأخفى»[1] «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور»[2] . وينبغى أن يتطهر الإنسان إلى الله فى كل ما يعلمه الله منه ، من سره ونجواه ! ومن ثم فلا توجد فى الإسلام أخلاق للفرد بمفرده وأخلاق أخرى يتعامل بها ـ نفاقًا ـ مع الناس !

ومع ذلك كله فلم يكن اعتباطًا أن الناس ـ منذ القدم ـ ربطوا ربطًا شديدًا بين شئون الجنس وبين الأخلاق ، حتى كاد يغلب على حسهم أن الأخلاق هى أخلاقيات الجنس على وجه التخصيص .

لم يكن ذلك اعتباطًا من الناس ـ وإن كانوا على غير صواب فى حصر مفهوم الأخلاق فى هذا النطاق الضيق ـ لأنهم تعلموا بالتجربة الطويلة أنه لا بقاء للأخلاق ـ بمفهومها الواسع ـ إذا انحرف الناس فى شئون الجنس . وأن الذى ينحرف فى شئون الجنس لا يمكن ـ على المدى الطويل ـ أن تظل له أخلاق !

وقد جادلت الجاهلية الحديثة جدلاً عنيفًا جدا فى هذا الموضع ، لتقول إن الأخلاق لا علاقة لها بالجنس على الإطلاق ! وإن للناس أن يصنعوا ما يشاءون فى شئون الجنس ، ويظلوا مع ذلك محافظين على «الأخلاق» !

ومن قبل عرضنا لآرائهم ونحن نتحدث عن الجاهلية ، ورأينا كيف تسير سنة الله الحتمية حين ينحرف الناس فى تيار الشهوات .

ونحن هنا نتحدث عن الإسلام .. نتحدث عن الوجه المقابل للجاهلية .. ونعرض ـ من هذه الزاوية ـ لشئون الجنس .

---

(١) سورة طه [٧]

(٢) سورة غافر [٩ ١ .

ولا نريد أن نعرض لها من الزاوية الضيقة التى يطلق عليها الناس عادة لفظة «الأخلاق» !

إنما نعرضها بالمفهوم الأخلاقى الشامل الذى يقصده الإسلام وهو يتحدث عن الأخلاق .. المفهوم الذى يرتبط بكيان «الإنسان» كله .. والذى يميز هذا الإنسان عن غيره من الخلق ، وخاصة عن الحيوان .

إن الإسلام لا يحرم الفاحشة الجنسية لأنها تخالف قواعده الخلقية بمعناها الضيق ، ولكن لأنها تهبط بكيان الإنسان عن المستوى اللائق «بالإنسان» .. ومن ثم تخالف «الأخلاق» بالمفهوم الواسع للأخلاق .

الإنسان .. خليفة الله .. الذى حمل «الأمانة» وحده حين أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .. الذى كلف عمارة الأرض وإقامة الخلافة الراشدة فيها : إقامة الحق والعدل .. إقامة السياسة الراشدة والاقتصاد الراشد والمجتمع الراشد .. وكلف الجهاد فى ذلك كله ، لأنه لا بد لذلك كله من جهاد .

هذا الإنسان .. كيف يصبح حين يغرق فى مباءة الجنس ؟!

وأنّى له الخلافة الراشدة. وأنّى له الجهاد ؟!

ثم وأنّى له أن يفرق بين نفسه وبين الحيوان .. وهو لا يملك أن يرتفع عن ذلك الحيوان ، بينما الله قد منحه القدرة على الارتفاع ؟!

هل تظل له «أخلاق» ـ بمفهومها الواسع ـ وهو يتخلى عن رسالته الأصيلة ويهدر قدرته على الارتفاع ؟!

هل تظل له أخلاق وهو ينطلق كالمسعور وراء شهوة الجسد التى لا تشبع ـ ولا يمكن أن تشبع ـ ويبدد طاقته «الإنسانية» الكبرى فى جانب واحد من جوانب نشاطه الحيوى .. وعلى مستوى لا يليق بغير الحيوان .. ويتخلى على ضوابطه الإرادية التى ميزه الله بها على غيره من الخلق ، فيصبح وهو لا يملك حتى ضوابط الفطرة التى يملكها الحيوان ؟!

إن الإسلام حين يحرم الفاحشة .. إنما يريد إكرام الإنسان ! يريد أن يرفعه إلى ذلك المقام الكريم .. مقام الخلافة عن الله !

إنه لا يحرم الفاحشة شهوة فى التحريم .. أو تضييقًا على العباد !

ليس على هذا النحو يعامل الله الإنسان !

« هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج »[1] .

« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، **ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم . لعلكم تشكرون** »[2] .

« والله يريد أن يتوب عليكم . ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيمًا . يريد الله أن يخفف عنكم . وخلق الإنسان ضعيفًا »[3] .

« لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها »[4]

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟! وكان الله شاكرًا عليمًا »[5]

كلا ! لا يحرم الله الفاحشة على العباد ليضيق عليهم .. ولكن ليطهرهم .. ليرفعهم إلى مستوى « الإنسان » ! و « الإنسان » قد كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات . وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »[6] .

ثم هو خلق متفرد فى طريقة تكوينه :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »[7]

ومن أجل هذه الطبيعة المزدوجة من الطين والروح ، فهو ــ فى حالته السوية ــ لا يكون أبدًا « شهوة » منطلقة بلا ضابط .. ولا يكون أبدًا دفعة جسد غير ممتزجة بإشراقة الروح !

فى جميع أعماله .. ومن بينها الجنس ..

و « الأخلاق » التى وضعها له الإسلام .. فى جميع أعماله ، ومن بينها الجنس .. هى « قانون » هذه الطبيعة المزدوجة التى لا تكون أبدًا ــ فى حالتها السوية ــ شهوة منطلقة

---

(1) سورة الحج [78] .
(2) سورة المائدة [6] .
(3) سورة النساء [27 ــ 28] .
(4) سورة البقرة [286] .
(5) سورة النساء [147] .
(6) سورة الإسراء [70] .
(7) سورة ص [71 ــ 72] .

بلا ضابط . ولا تكون أبدًا دفعة جسد غير ممتزجة بإشراقة الروح !

إن الأخلاق فى الإسلام ليست قانونًا قائمًا بذاته ، منفصلاً عن الكيان الواقعى للإنسان . مفروضًا عليه من خارج نفسه فرض القهر والتحكم والسلطان ! إنما هى قانون الطبيعة السوية لهذا الإنسان ذاته .. مستمدة من طبيعته هو الخاصة المتميزة . لا من طبيعة أى كائن سواه !

فأخلاق الملائكة ، وأخلاق الحيوان .. إن صح أن نستخدم هذا التعبير ـ مجازًا ـ مع الملائكة والحيوان . شيءآخر مختلف تمامًا عن أخلاق الإنسان .. كل أخلاق نابعة من كيان المخلوق الذى يلتزمها .. وكذلك أخلاق الإنسان .. !

المَلَك مخلوق لا دوافع له .. ولا إرادة كذلك . وأخلاقه ـ النابعة من طبيعته ـ هى : «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون »[١] «يسبحون الليل والنهار . لا يفترون »[٢] .

والحيوان مخلوق عارم الدوافع ولا إرادة له . ولا ضوابط إلا الضوابط الفطرية غير الواعية . وأخلاقه ـ النابعة من طبيعته ـ هى تلبية هذه الدوافع بلا تفكير ولا تدبر ولا وعى فى حدود تلك الضوابط .

والإنسان هو المخلوق الوحيد ـ فيما نعلم من خلق الله ـ الذى له دوافع وضوابط واعية ، ناشئة من طبيعته المزدوجة من قبضة الطين ونفخة الروح[٣] . وأخلاقه المتمشية مع طبيعته فى حالته السوية ، هى أن يلبى الدوافع ولكن بقدر مقدور تمسكه الضوابط الفطرية الإرادية الواعية فى طبيعته . وأن يلبى دفعة الجسد ممتزجة بإشراقة الروح ..

ومن ثم لا تكون أعماله ـ قط ـ بلا ضوابط . ولا تكون أعماله ـ قط ـ بلا هدف مصاحب . ولا تكون ـ قط ـ دفعة جسد غليظة كالحيوان .

و «الأخلاق» بالنسبة للإنسان .. فى كل أعماله ، ومن بينها الجنس .. هى تلبية الدوافع الفطرية مع وجود الضبط ، ووجود الهدف الواعى المدرك ، ووجود إشراقة الروح التى تمتزج بدفعة الطين ..

---

(١) سورة التحريم [٦] .

(٢) سورة الانبياء [٢٠] .

(٣) انظر فصل «طبيعة مزدوجة» من كتاب «دراسات فى النفس الإنسانية» .

ومن ثم فأخلاقيات الجنس بالنسبة للإنسان ـ كأخلاقيات كل شئ آخر فى حياته ، من سياسة واقتصاد واجتماع .. الخ ـ هى أن يلبى دافع الجنس لا على مستوى «الشهوة» وإنما على مستوى «العاطفة» . ولا يكون الجنس هدفاً فى ذاته يشغل جهد الإنسان ، وإنما يكون وسيلة لهدف . ولا يكون بلا ضابط .. إنما تحكمه الضوابط التى لا تجعله مهلكة للفرد ولا مفسدة للمجموع ..

وتلك بذاتها ـ هى أخلاقيات كل شئ آخر فى حياة الإنسان : أخلاقيات المأكل والملبس والمسكن ، والملك ، والقتال ، والبروز[1] .

وبهذه الأخلاقيات يصبح الإنسان إنساناً .. وبغيرها يصبح أسوأ وأضل من الحيوان :

«لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام . بل هم أضل . أولئك هم الغافلون»[2] .

وعلى هذا الأساس الشامل ـ الذى لا يخصص للجنس قواعد خاصة غير ما يخصصه لبقية نشاط الإنسان ـ يعالج الإسلام شئون الجنس ، ويربى عليها «الإنسان» .

إنه ـ بادىء ذى بدء ـ لا يحرم الجنس فى ذاته .. لا يستقذره ولا يستنكره ولا ينفّر منه الحس البشرى كما تفعل الهندوكية والمسيحية فى صورتها التى صاغتها الكنيسة ، وغيرهما من المفاهيم المنحرفة التى تحاول التطهر والارتفاع بكبت الجسد واستقذار نشاطه . وإنما هو يبيحه .. كما يبيح كل الدوافع الفطرية وكل النشاط الحيوى ..

إنما فقط ينظفه ..

يضع له الضوابط التى تنظمه .. حتى فى الدائرة المباحة ! فالإباحة والمنع هما الخط الظاهر العريض فقط .. الخط الذى يمنع التهلكة .. ولكنه ليس هو كل أخلاقيات الجنس ، التى تليق «بالإنسان» !

والجنس فى هذا ليس بدعاً ..

فلنأخذ أخلاقيات الطعام .. وسنجدها صورة طبق الأصل من أخلاقيات الجنس .

---

(١) انظر فصل «الدوافع والضوابط» وفصل «القيم العليا» فى كتاب «الدراسات» .

(٢) سورة الأعراف [١٧٩] .

الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. محرمات ..

ولكن الباقى ليس مباحًا على إطلاقه !

فالطعام ينبغى ـ بعد ذلك ـ ألا يكون مسروقًا ! مغتصبـًا ! ولا مسرفًا !

«كلوا من **طيبات** ما رزقناكم[1] » .

« وكلوا واشربوا **ولا تسرفوا**[2] » .

وينبغى كذلك أن تكون له آداب : «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه[3] » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يُتنفس فى الإناء أو يُنفخ فيه .

وهكذا يرتفع الطعام عن غلظ الحس .. ليصبح نشاطًا حيويا يناسب «الإنسان» .. يشترك فيه جسمه وروحه فى آن .

والجنس كذلك .. وكل شئ فى حياة الإنسان ..

فى الجنس توجد محرمات ..

«حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ...... والمحصنات من النساء .. »[4] .

ولكن المباح ليس مباحًا على إطلاقه !

فهناك التوجيهات التى تطهره وتنظفه وترفعه ـ وهو دفعة جسد **غالبة** ـ عن أن يكون دفعة جسد **خالصة** !

« ويسألونك عن المحيض قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى **يطهرن** ، فإذا تطهرن **فأتوهن من حيث أمركم الله** . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »[5] .

---

(١) سورة الأعراف [١٦٠] .

(٢) سورة الأعراف [٣١] .

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم .

(٤) سورة النساء [٢٣ ـ ٢٤] .

(٥) سورة البقرة [٢٢٢] .

ثم تصاحبه الأقوال والمداعبات التي تلطف من غلظ الحس . وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم معها ما يثبت هذا المعنى ويؤكده .

ثم يذكّر الإنسان بأن له هدفًا ، وليس هو هدفًا فى ذاته : «نساؤكم **حرث** لكم » . وفى ذلك إشارة إلى البذور والإنبات .. أى إلى النسل بطريق المجاز .

ثم يُجعل علاقة روحية ووجدانية إلى جانب كونه علاقة جسدية :

«ومن آياته أن خلق لكم من **أنفسكم** أزواجًا **لتسكنوا إليها** ، **وجعل بينكم مودة ورحمة** »[1] .

وفى هذا المستوى من الترفع «الإنسانى» تبدو الفاحشة ولا شك عملاً هابطا بكل مقاييس «الإنسان» ! عملاً لا تتوفر له صفة واحدة من صفات الإنسان ! لا إشراقة الروح الممتزجة بدفعة الجسد . ولا القدرة على الضبط . ولا التفكير الواعى الذى يحسب حساب الأهداف ، وينظم علاقات المجتمع فى حدود الخلافة الراشدة التى ناطها الله بالإنسان .

ولذلك يحرمها الإسلام ! يحرمها لأنها لا تليق بخليفة الله ! لا لأنه يريد التضييق على الإنسان !

ويحرم كذلك كل ما يسهلها ويزينها ويدفع إليها .. يحرم الاختلاط المجنون بلا ضرورة . ويحرم التبرج الذى يدفع إلى الفتنة . ويحرم إظهار الزينة لغير المحارم .

ويحرم النظرة الفاحشة واللفظة الفاحشة .. فضلاً عن العمل الفاحش بطبيعة الحال .

ثم يبيح الطريق الواحد النظيف .. طريق الزواج .

وفى غير هذا الكتاب[2] تحدثت عن الأسطورة التى تقول إن هذا «غير ممكن» فى الحياة «المتطورة» التى يحياها الناس فى القرن العشرين !

حقًّا . إنه غير ممكن فى عالم البهائم الذى يحياه الناس فى الجاهلية الحديثة فى القرن العشرين .

---

(١) سورة الروم [٢١] .

(٢) «الإنسان بين المادية والإسلام» فصل «المشكلة الجنسية» و «معركة التقاليد» و «التطور والثبات فى حياة البشرية» .

ولكنه دائمًا ممكن فى عالم الإنسان .. حين يرتفع إلى مستوى «الإنسان» !

وكل ما يقال عن الضرورات الاقتصادية والضرورات الاجتماعية وَهْمٌ باطل جسمته الجاهلية فى نفوس أهلها .. لتفتنهم بملذات الجسد وشهواته عن حقيقة الطغيان الذى يمسك برقابهم ويستعبدهم .

والدليل على أنها ليست «الضرورة» الاقتصادية والاجتماعية ، أن الدولة الجماعية فى روسيا هى التى تكفل الأفراد وتطعمهم وتسقيهم وتسكنهم وتلبسهم .. وتزوجهم !

ومع ذلك فهى لا تبادر بتزويجهم ــ وهى تملك ذلك لأنها تملك **كل شئ** فى حياة الناس ــ وإنما تتركهم زمنًا يلهون ويعيثون فسادًا فى دنيا الجنس بلا ضابط .. وبغير ضرورة من ضرورات الاقتصاد !

كلا ! إنها الجاهلية الطاغية التى تترك للناس شهوة البهائم لتلهيهم عن العبودية للطغيان !

أما الإسلام فهو حين يضع الحواجز فى سبيل انحرافات الجنس ــ كما يضع الحواجز فى سبيل انحرافات كل دفعة فطرية ــ فهو ييسر الطريق النظيف للناس ، ليلبوا دوافع الفطرة على نظافة وارتفاع .

ييسر الزواج ويشجع عليه .. اقتصاديا واجتماعيا وفكريا وروحيا .. ويجعله عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله !

وبذلك يضمن أشياء كثيرة فى وقت واحد :

يضمن للناس راحة الأعصاب وراحة الضمير .

فهو لا يرهق أعصابهم بمقاومة الدفعة الفطرية الغلابة [وإن كان يسعى إلى تنظيف المجتمع من الفتنة التى تجعل الاصطبار على دفعة الجنس خارجة عن قدرة الإنسان] وإنما ييسر لهم سبيلها . وييسره فى نظافة لا تتعب الضمير .

ويضمن لهم كذلك الاستقرار ..

وقد مر من شهادة ول ديورانت عن الجاهلية الحديثة كيف يفقد الناس الاستقرار النفسى والعصبى والروحى حين يطيرون مع شهوة الجنس مشتتى المشاعر والأفكار .

ويضمن استقرار الأسرة .

وقد مر فى هذه الشهادة كذلك كيف تحطم رباط الأسرة حين انفلت ضابط الجنس

وتشرد الرجل والمرأة كلاهما ، معرضين للأعاصير .

ويضمن للأطفال ـ فى محضن الأسرة ـ أن ينشأوا فى جو من الحب والمودة يمنع عن نفوسهم الغصة الانحراف والشذوذ .

وبذلك يلبى كل حاجات الإنسان .. فى الوقت الذى يرفعه إلى حيث ينبغى أن يكون « الإنسان » !

* * *

والفن كذلك ينبغى أن يستقيم لمنهج الله .

وفى كتاب « منهج الفن الإسلامى » رددت ردا طويلاً مفصلاً على الذين يفغرون أفواههم عجبًا واستنكارًا أن يكون للفن أية علاقة بمنهج الله !

ولا يمكن حكاية كتاب كامل فى صفحات !

ولكنا أشرنا من قبل إلى أننا فى هذا لا نبحث بحوثًا مفصلة فى المنهج الإسلامى فى الحياة ، وإنما نضع المفاتيح فقط ، والإشارة التى تنير الطريق .

وكما تحدثنا عن مفاتيح منهج الله فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين ، فكذلك نتحدث عن مفاتيح هذا المنهج فيما يتعلق بالفن .

ونبادر فنقول للذين يفغرون أفواههم عجبًا واستنكارًا : إن الفن نشاط بشرى يقوم به الإنسان فى الحياة ، فإذا كان كل نشاط الإنسان من سياسة واقتصاد واجتماع وأخلاق يدخل فى نطاق منهج الله ، وفى منهج الله ما ينظمه ويرفعه إلى المستوى اللائق بالإنسان ، فلا عجب إذن أن يكون الفن كذلك ـ وهو نشاط بشرى ككل نشاط آخر ـ متصلاً بمنهج الله ، وأن يكون فى منهج الله ما ينظمه ويرفعه إلى المستوى اللائق بالإنسان ..

ثم نبادر ـ مرة أخرى ـ فنقول للذين يفغرون أفواههم عجبًا واستنكارًا من هذا الأمر الطبيعى ، إن التزام الفن بمنهج الله لن يحوله إلى مواعظ دينية وخطب منبرية .. ولن يجعله يعطى صورة مزورة للإنسان ، كلها أبيض طاهر نظيف مترفع متعال !

كلا ! فهذه سذاجة فى التفكير لا تخطر إلا على الذهن الجاهلى حين يتصور الفن فى نطاق منهج الله .

إن المنهج الإسلامى للفن يطلق الفن إلى أقصى حدود الطلاقة التى يتيحها منهج الله «للإنسان» ، فى شتى جوانب حياته .. ثم يزيد على ذلك .. الواقعية !

إنه يتتبع الوجود كله .. كله بلا استثناء !

الله .. والكون .. والحياة .. والإنسان .. هى مجال الفن الإسلامى .. على الاتساع !

كلها مأخوذة ـ بطبيعة الحال ـ من زاوية الرصد الإسلامية . لأن الفن ـ فى أشكاله المختلفة ـ هو محاولة البشر لتصوير الإيقاع الذى يتلقونه فى حسهم من حقائق الوجود ، فى صورة جميلة موحية مؤثرة .

فعلاقة الإنسان بالله . وعلاقته بالكون . وعلاقته بالحياة . وعلاقته بنفسه وبالآخرين .. هى مجاله فى التعبير الفنى .. سواء فى المنهج الإسلامى أو فى أى منهج سواه ..

فكل ما يحدث حين يلتزم الفن بالمنهج الإسلامى أن هذه العلاقات كلها سترصد من زاوية الرصد الإسلامية .. ومن خلال المشاعر الإسلامية .

وتلك بديهية .. فالشخص المسلم سيعبر عن المشاعر والإيقاعات التى يحسها .. لا التى يحسها أحد غيره من الناس ..

والمشاعر والإيقاعات التى يحسها المسلم هى علاقة الحب والخشية لله . وعلاقة الحب والمشاركة الحية للكون . وعلاقة الحب للحياة مع الإدراك الواعى لأهدافها وأغراضها ، وكونها شاملة للحياة الدنيا والآخرة ، غير مقطوعة عند الحياة الدنيا ، ذلك القطع الذى يجعلها تبدو شائهة محرفة مزعجة مظلمة غير ذات دلالة . وعلاقة المودة للناس .. وكذلك علاقة الصراع !

نعم . فالإسلام منهج واقعى .. وهو المنهج الذى يقول : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»[1] ويقول : «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه»[2] ويقول : «لقد خلقنا الإنسان فى كبد»[3] ..

---

(١) سورة البقرة [٢٥١] .

(٢) سورة الانشقاق [٦] .

(٣) سورة البلد [٤] .

فهو لا يوهم بجنة مثالية على الأرض ! ولا يقول للإنسان إنك تجد النعيم فى الدنيا تحت قدميك ! إنما يقول له إن الحياة كدح وكبد وتدافع وصراع ..

وكذلك هو منهج واقعى بالنسبة للإنسان ذاته . فهو لا يقول عنه إنه مَلَك رفيع مستو على الصراط ! ولا يقول إن الناس كلهم من ذوى العزم . إنما يقول : «وخلق الإنسان ضعيفًا»[1] ويقول : «كل بنى آدم خطاء»[2] !

ومن ثَم فالفن الذى يلتزم بالمنهج الإسلامى لن يعطى صورة مزورة للحياة والإنسان . لن يعطى صورة وردية حالمة .. ولا صورة مثالية بيضاء .. إلا على أنها خيال إنسان !

إنما هو يعطى صورة حقيقية واقعية لصراع الناس فى الأرض ، ومشكلات حياتهم وتعقدها ، واضطراب حياتهم بين الخير والشر ، والارتفاع والهبوط ..

وإذن .. فما الذى يميز الفن الإسلامى عن فنون الجاهلية ، إذا كان الأمر على هذا النحو ؟

أمور كثيرة فى الحقيقة[3] !

أولها أن الواقعية الإسلامية ليست هى الواقعية الضيقة التى تمارسها الفنون الجاهلية الحديثة التى تستمد من التفسير الحيوانى للإنسان . وإنما تستمد من التفسير «الإنسانى» للإنسان . وهو تفسير يشمل الهبوط والرفعة . ويشمل الخير والشر . يشمل قبضة الطين ونفخة الروح .. معًا فى ذات الوقت .

والثانى : هو نقطة التركيز !

فالصورة التى يرسمها الفن الإسلامى للحياة البشرية تشمل الأبيض والأسود ممتزجين كما هما فى واقع الحياة .. نعم .. ولكن على أيهما يكون التركيز !

فأما الفنون الجاهلية الحديثة التى تركز على التفسير الحيوانى ، وغيره من التفسيرات الجاهلية ، فهى تركز على الجانب الأسود كأنه هو الحياة !

---

(١) سورة النساء [٢٨] .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) أنظر كتاب «منهج الفن الإسلامى» .

ولسنا نقصد بالأسود ، الجانب «الأخلاقى» الضيق كما هو فى عرف الناس !
إنما نأخذ الأمور كما بيناها من زاوية المنهج الإسلامى ..

فحين يرسم الإنسان خاضعًا ـ أبدًا ـ للضرورة القاهرة لا يستعلى عنها ، ولا يستطيع أن يستعلى ، فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان !

وحين يرسم خاضعًا ـ أبدًا ـ للحتميات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية ، غير متحرر منها ، ولا إيجابية له تجاهها ، ولا عزيمة له فى مقاومتها ، أو وقفها ، أو تصحيح اتجاهها ، فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان !

وحين يرسم تائهًا فى الحياة لا يدرك لها معنى ، ولا غاية ، ولا حقيقة ، يدور فى دوامة التيه ـ أبدًا ـ ولا يهتدى ، ولا يستقر ضميره ولا يبصر النور .. فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان .

وكذلك حين يرسم فى لحظة الشهوة الجارفة الغليظة الممسكة بخناقه لا تفلته ولا يملك أن يفيق منها .. فذلك هو الجانب الأسود من الإنسان !

وهذا الجانب موجود .. نعم .. فى واقع الحياة ! ولكنه ـ بالنسبة للإنسان .. بالنسبة لحقيقة كيانه وحقيقة طاقاته وحقيقة أهدافه ـ ليس هو الواقع الدائم ، وكذلك ليس هو الأصل الذى ينبغى أن يكون عليه الإنسان !

ومن ثم فنحن ـ فى واقعيتنا فى ظل المنهج الإسلامى ـ نرسم ذلك الواقع كما نراه .. ولكنا ـ بواقعيتنا كذلك المستمدة من إدراكنا لحقيقة الإنسان فى ظل منهج الله ـ نوزع الأضواء بحيث لا تركز على هذا الجانب الأسود من الإنسان !

نرسم هذا الواقع الأسود على أنه **واقع الانحراف** .. لا على أنه واقع الإنسان ! ونرسمه على أنه **لحظة ضعف** .. يفيق بعدها الإنسان ويعود إلى ارتفاعه .. أو فهى لحظة ضعف لا توحى بالإعجاب والتقدير .. إنما توحى بالأسف ـ على الأقل ـ على هذا الإنسان إن لم يكن بالاستنكار .. كقوله تعالى : «يا حسرة على العباد .. ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون»[1] .

---

(١) سورة يس [٣٠] .

إن الضعف البشرى ليس «بطولة» كما ترسمه الفنون الجاهلية الحديثة ..

وهذا هو مفرق الطريق !

أما الانحرافات الأخرى فمنهج الفن الإسلامى كذلك برىء منها ..

فليس هناك فى حس المسلم ذلك الصراع الكريه بين الله والإنسان .. ومن ثم فالفن الإسلامى لن يعكس مثل ذلك الصراع . فإن وجد ـ على أنه واقع فى نفس إنسان منحرف ـ فسيرسمه الفن الإسلامى على أنه انحراف .

وليس هناك تأليه لغير الله ..

فالطبيعة جميلة ومحبوبة وحافلة ببدائع الصور ، والحس البشرى يتلقى عنها الأعاجيب المعجبات .. ولكنه لا يؤله الطبيعة كما صنعت الرومانتيكية الهاربة من إله الكنيسة ـ الباحثة عن إله وثنى تحقق ذاتها فى عبادته بعيدًا عن «رجال الدين» !

والإنسان كذلك ليس إلهًا .. وما ينبغى له أن يكون .. وهو ذو طاقات ضخام . نعم ! ولكنها كلها من صنع الله ، وموهوبة له من الله . ورده عليها هو الشكر لله . فإن كفر ولم يشكر .. فهذا واقع منحرف قد يوجد .. ويرسمه الفن الإسلامى .. على أنه انحراف .

والحتميات كذلك ليست آلهة ! وما ينبغى لها أن تكون .. ولا أن تذل الإنسان كما تصورها الآداب والفنون التى التزمت بالمذاهب الاجتماعية والتفسير الجاهلى للتاريخ ..

وخلال ذلك يجد الفن الإسلامى مجالاً واسعًا جدا للتعبير ..

لا يفوته أمر واحد من أمور الحياة ..

بل هو أوسع مجال للفن على الإطلاق . الفن الذى يأخذ فى حسابه : الله ، والكون والحياة ، والإنسان .. وما يقوم بينها جميعًا من ارتباط .

ولكنه ـ ككل شئ فى منهج الله .. متوازن . نظيف . مترفع . مأخوذ على المستوى الأعلى .. المستوى الذى ينبغى لخليفة الله .. مع الواقعية التى لا تغفل فى ذات الوقت انحراف الإنسان عن خلافته الراشدة فى الحياة ! ولا تغفل كذلك ضعفه الفطرى الذى لا يخرجه من دائرة الإنسان .

* * *

وهكذا يشمل منهج الله كل حياة الإنسان : فى السياسة . والاقتصاد . والاجتماع . والأخلاق . وعلاقات الجنسين . والفن .. وفى كل شئ !

ليس شئ واحد مما يقوم به الإنسان من نشاط على الأرض خارجًا عن منهج الله .

ومنهج الله - فى كل أمر - هو المنهج الوحيد الذى برئ من النقص والقصور والانحراف .

وما عداه كله جاهلية .. فكل تلك الانحرافات التى صحبناها فى الفصلين السابقين ، ورأينا كم صنعت فى حياة البشر من الشر والفساد والشقوة والعذاب ..

ولن تعتدل حياة الناس حتى يرجعوا إلى الله ، ويؤمنوا به ، وينفذوا منهجه فى الحياة .

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .. ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون»[1] .

وليس أمام الناس إلا أحد هذين الطريقين :

إما أن يؤمنوا ويتقوا ، فيفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ..

أو يكذبوا فيأخذهم الله بما كانوا يكسبون ..

ومع ذلك ..

مع وضوح هذه القضية - فى حقيقة الواقع - كما بيناها فى الفصول الثلاثة السابقة ، فإن الجاهلية الغارقة فى الظلام ، الدائرة فى الدوامة المجنونة .. لا تكاد تفيق من جاهليتها لحظة لتراجع الأمر مراجعة جادة مدركة واعية .. لتقدر كم أصابها من الفساد والدمار .. وكم أصبحت تحتاج إلى علاج حاسم سريع فعال ..

بل إن الأمر أسوأ من ذلك !

إن الإسلام - منهج الله - ليس بعيدًا عن واقع الناس فحسب ..

بل إن الناس .. فى هذه الجاهلية .. يكرهون الإسلام !

---

(١) سورة الأعراف [٩٦] .

لماذا يكرهون الإسْلام ؟!

هذا المنهج المتكامل الذى برئ من العوج والانحراف ..

المنهج الذى يعطى الجواب الصحيح عن كل مسألة ، ويحكم بالحق فى كل مشكلة ..

المنهج الذى يجمع شتات النفس كلها ويوحد وجهتها وأهدافها ، فلا تعود تتوزع بين هذه الوجهة وتلك .. أو بين هذا الجانب من النشاط وذاك .

المنهج الذى لا منقذ غيره للناس مما هم فيه من شقوة وعذاب ، وحيرة واضطراب ..

أليس من العجب أن يكرهه الناس ويتجافوه .. وكلما دعوا إليه زادوا تباعدًا عنه ؟

كلا .. ليس عجيبًا هذا الأمر .. !

أو إنه ـ على كل ما فيه من عجب ـ أمر «طبيعى» إلى أقصى حد !

فالجاهليات كلها ـ على مدار التاريخ ـ تكره الإسلام ! وتكرهه أولاً وأخيرًا لأنه هو الإسلام ! !

وعلى قدر عتو الجاهلية وبعدها عن الله ، يكون كرهها للمنهج الذى نزّله الله ليحكم الحياة ..

وإذ كانت هذه الجاهلية أعتى جاهلية فى تاريخ الأرض ، فمن «الطبيعى» إذن أن تكون أشد جاهليات التاريخ كرهًا للإسلام !

* * *

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها ـ فى دخيلة نفسها ـ لا تعرف ما فيه من الحق والخير.
أو لأنها ـ بينها وبين نفسها ـ تعتقد حقا أن باطلها الذى تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام !

كلا ! فهى تكرهه وهى عالمة بما فيه من الحق والخير ، وبأنه هو الذى يقوّم ما اعوج من شئون الحياة ! وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه ! وتود أن تبقى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم !

تكرهه لأنها هى الجاهلية .. وهو الإسلام !

«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى .. »[1] .

ذلك مثل يلخص جميع الأمثال .. وهو هو موقف الجاهلية فى كل التاريخ ..

«لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين .. ! »

«وإلى عاد أخاهم هودًا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ... ! »

«وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون ... ! »

«ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم مسرفون . وماكان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم إناس يتطهرون .. » ! !

«وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .. »[2] .

إنها قصة واحدة مكرورة فى التاريخ .. قصة الجاهلية الواحدة المكرورة مع دين الله الواحد .. الإسلام !

«فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى .. » .

* * *

(١) سورة فصلت [١٧] .
(٢) سورة الأعراف [٥٩ ـ ٨٨] .

كلا ! لا عجب أن تقف الجاهلية الحديثة موقف الكراهية من الإسلام .. فذلك هو الموقف المكرر لكل جاهلية خلال التاريخ .. تكره الإسلام ولا تطيقه . وتكره من يدعوها إليه . وتحاول «إخراجه» أو القضاء عليه . ولا تصبر حتى على ترك الدعاة إليه يعيشون فى سلام موادعين . عملاً «بحرية الرأى» ! و«حرية الاعتقاد» !

«وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ..** » ![1] .

كلا ! لا يصبرون ! حتى على المسالمين الموادعين الذين يقولون لهم : «فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» !

ولا يجيء هذا الموقف اعتباطًا بطبيعة الحال .. وإنما يحمل معه الأسباب !

حين يبدأ الانحراف عن منهج الله وعقيدته ، يكون انحرافًا يسيرًا فى مبدأ الأمر ، وعلى خجل وتوارٍ من المؤمنين ! لأن المؤمنين يومئذ هم القوة الغالبة ، ودين الله هو المحكم فى الأمور .

وقد يكون انحرافًا «حسن النية» ! منشؤه الضعف عن احتمال التكاليف ، والضعف عن الاستقامة على الصراط ..

أو يكون انحرافًا سيئ النية من المدخولين والمنافقين ، الذين ينتظرون الفرصة ليهدموا العقيدة التى لم يؤمنوا بها الإيمان الحق .. وإنما ينافقونها ما دام لها السلطان الغالب المرهوب ..

ولكنه فى هذا وذاك انحراف ـ بعد ـ يسير وقريب الغور .. لا يجرؤ على السفور .

ثم تبعد الشقة ، ويزداد خط الانحراف ، ويرين على النفوس ما يزيدها بعدًا عن العقيدة ، ويطمس الغبش على شفافية المنهج وشفافية النفس التى تتلقاه .. فلا تبصر النور ..

---

(١) سورة الأعراف [٨٥ ـ ٨٨] .

وعندئذ يبدأ الفساد فى الأرض .. ويتأهب الطاغوت !

ثم تزداد الشقة اتساعًا ، وتزداد النفوس ضراوة على الفساد ..

ويحكم الطاغوت بالفعل فى أمور الناس .. حيث لم يعد منهج الله يحكّم فى هذه الأمور ..

وعندئذ لا تعود الجاهلية تستجيب لمن يدعوها إلى الهدى .. بل تقف منه موقف المكابرة والعناد .. بل تحاربه أعنف الحرب وتسعى إلى إخراجه أو القضاء عليه .. وكلما ألح عليها بالدعوة أوغلت فى الحرب ولجت فى العناد ..

فى هذا الطور لا يكون «حسن النية» هو الذى يبعد الناس عن العقيدة .. ولا يكون كذلك الجهل بحقيقة المنهج هو دافع العناد !

إنما يكون السبب الحقيقى هو خشية الجاهلية على كيانها ومصالحها ، وشهواتها وانحرافاتها ، من النور الجديد ! فهى تحس ـ فى دخيلة نفسها ـ مقدار ما انحرفت عن الحق وحكمت بالهوى واستسلمت للشهوات . وتحس مقدار ما تحرمها العقيدة الصحيحة حين تحكم فى الأرض ، من مصالح ومنافع وشهوات ، اختلستها اختلاسًا فى غيبة النور !

ومن أجل ذلك تكره الجاهلية الإسلام ، وتقف منه موقف القتال والعناد .. يستوى فى ذلك الذين استكبروا والذين هم مستضعفون . فلكلٍ فى الجاهلية مصالح ومنافع وشهوات يحرص عليها ، ويكره أن يحرمها منه منهج الله حين يحكم بالحق .. فتنتهى المصالح الفاسدة والمنافع المنحرفة ويقف الحق فى طريق الشهوات !

ومن أجل ذلك نستطيع أن نفهم موقف الجاهلية الحديثة من الإسلام ..

إنه موقف الكراهة والعناد والحرب .. يستوى فى ذلك الشرق والغرب ، والبلاد التى تزعم لنفسها أنها «بلاد الإسلام» !

* * *

فأما أوربا ـ شرقها وغربها ، وامتدادها فى أمريكا ـ فموقفها «مفهوم» !

إنها ـ بادئ ذى بدء ـ تكره الدين كله ، وتنفر من العقيدة فى الله ، ومن سيطرة

العقيدة على واقع الحياة .. ولكنها فوق ذلك تكره الإسلام بصفة خاصة ، وترصد له من وسائل الحرب مالا يخطر على البال !

فأما كراهيتها للدين كله فقد قصصنا طرفًا من أسبابها فى فصول الكتاب ..

فى أيام الإمبراطور قسطنطين فرضت الديانة المسيحية فرضًا على الإمبراطورية الرومانية .. بأمر الإمبراطور ..

ومزجت العقيدة المسيحية السماوية بعناصر وثنية من التى كانت قائمة يومئذ ، تأليفًا لقلوب الوثنيين ، وتشجيعًا لهم على الدخول فى الدين[1] ! فلما أصبح هذا المزيج المختلط غير مفهوم للناس ، ادعت الكنيسة لنفسها التفرد بمعرفة «الأسرار» التى خفيت عليهم .. وعلقت إيمانهم بالله ، بالتسليم بهذه الأسرار دون مناقشة ودون علم .. وجعلت وساطة الكنيسة ضرورية لإتمام الاتصال بينهم وبين الله !

ثم فرضت الكنيسة لنفسها ـ عن هذا الطريق ـ سلطانًا بشعًا على القلوب والأفكار والمشاعر .

وفرضت عليهم الإتاوات من كل نوع ..

ثم دعتهم إلى رهبانية تصادم الفطرة ..

ثم تسامع الناس بعد فترة أن الأديرة ذاتها ـ مكان التطهر والعبادة والخلوص إلى الله ـ ترتكب فيها أبشع المحرمات .. يرتكبها «رجال الدين» المقدسون الأطهار !

ثم جاءت مهزلة صكوك الغفران لتجعل الأمر كله عبثًا لا يحترمه ضمير الإنسان ..

ثم كانت الطامة حين وقفت الكنيسة فى وجه العلم ، وقامت تحرّق العلماء وتعذبهم باسم كلمة السماء !

من تلك اللحظة بذرت بذور الشقاق فى أوربا بين الدين والعلم ، والدين والحياة ..

وكرهت أوربا ديانة الكنيسة ، وأخذت تنسلخ منها على مر الأيام .

فلما ولدت النهضة ـ على ضوء ما قبسته أوربا من الحضارة الإسلامية والمعارف الإسلامية ـ قامت على مبعدة من الدين .. بل قامت على عداء مع الدين !

---

(١) راجع شهادة دريبر الأمريكى ص ٢٨ من هذا الكتاب.

وقد كان لأوروبا عذرها فى صراعها مع «الكنيسة» .. ولكن ما عذرها فى صراعها مع «الدين» ؟

على أى حال فالذى حدث بالفعل أنها كرهت الكنيسة ودينها .. ثم كانت فى الوقت ذاته أشد كفرًا بالإسلام الذى علمها الحضارة وعلمها المعرفة وعلمها كيف تخرج من الظلمات إلى النور[1] !

فإذا كان لها «عذرها» مع الكنيسة .. فجريمتها مع الإسلام كانت تلك الروح الصليبية الكريهة التى جعلتها ـ رغم معرفتها بكل ما يحويه الإسلام من خير ، ورغم قيام حضارتها الفعلية على هذا الخير ـ تحاربه وتطارده ، وتشوه صورته فى الآفاق !

وقد كانت اليهودية ـ منذ دهور لا تحصى ـ تقف بالمرصاد لكل دعوة جديدة ، فى الوقت الذى لم تحافظ هى على ميثاقها مع الله ، ولم تتبع هداه ..

فلما قامت «النهضة» الأوربية على عداء مع الكنيسة أدركت بفطنتها أنها فرصة سانحة لتحطيم المسيحية التى سامتها سوء العذاب .. فعملت على توسيع الهوة بقدر ما تستطيع .

فلما جاء دارون يصادم الكنيسة بنظرياته ، دخلت اليهودية العالمية المعركة على اتساعها .. دخلت بعلمائها الثلاثة الكبار : ماركس وفرويد ودركايم تحطم ما بقى من مفاهيم الدين[2] . ثم قامت تعمق الهوة التى تبتلع المسيحية كعقيدة ، بإشاعة ألوان من الفساد الخلقى البشع الذى لا مثيل له ـ فى اتساعه ـ فى كل التاريخ ، يحطم تماسك الأمم والأفراد ويشيع فى بنيانها الانحلال ، فى الوقت الذى تركب اليهودية العالمية «سياسة» العالم فى الشرق والغرب ، فتسيطر فى وقت واحد على الرأسمالية العالمية وعلى المذهب الماركسى ! !

ثم .. اتجهت العداوة الصليبية الصهيونية المشتركة بكل عنفها وضراوتها إلى الإسلام !

فقامت أوربا الصليبية ـ تغذيها أموال الصهيونية وتنفخ فيها وتؤازرها ـ تستعمر العالم الإسلامى وتخضعه لنفوذها .. وتحاول اقتلاع الإسلام من جذوره ، بالتبشير تارة ، وبتشويه صورة الإسلام فى نفوس المسلمين تارة ، وبإفساد الأخلاق تارة ، وأخيرًا بتربية جيل من

---

(١) راجع شهادة بريفولت ص ٢٨ من هذا الكتاب.

(٢) أنظر فصل «اليهود الثلاثة» فى كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية».

العبيد النافرين من الإسلام تسلمه مقاليد الأمور فى البلاد ليقوموا بدلاً منها بالقضاء على الإسلام[1] !

وليس هنا مجال التفصيل فى مظاهر الحرب الصليبية الصهيونية على العالم الإسلامى ، والجهود التى تبذل فيها ، والكيد الخبيث الذى يستخدم فيها ، وقد يكفى فى هذا المجال الإشارة إلى ما أقر به المستشرق المعاصر « ولفرد كانتول سميث » فى كتابه « الإسلام فى التاريخ المعاصر Islam in Modern History » فيما بين صفحة ١٠٤ و١١٣ من أن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية لحرب الإسلام ، وأنه خلق إسرائيل فى قلب العالم الإسلامى كجزء من هذا البرنامج المخطط المرسوم ..

وإنما الذى يعنينا هنا هو إثبات هذه العداوة التى تمارسها أوربا نحو الإسلام !

* * *

أما الحال فيما يسمى « العالم الإسلامى ! » فهو يختلف « بعض الشئ ! » عن الحال فى أوربا .. ولكنه فى النهاية يلتقى به كما تلتقى الجاهلية بالجاهلية فى كل مكان فى الأرض وكل طور من أطوار التاريخ ، وإن اختلفت ـ قليلاً ـ السمات التى تميز هذه الجاهلية عن تلك ، وتميز ظروف هذه عن ظروف تلك .

الإسلام فى هذا « العالم الإسلامى ! » غريب على الناس كغربته يوم بدأ فى جاهلية الجزيرة العربية .. وهو ـ فوق ذلك ـ مكروه من كثيرين !

وخطوة خطوة فى هذا الفصل ، سنسير مع فئات مختلفة من الناس .. لنبين لماذا يكرهون الإسلام !

* * *

إن أى طاغية فى داخل العالم « الإسلامى » ـ سواء أعلن حربه صريحة على الإسلام أم تظاهر بالحدب على الإسلام ورعايته وهو فى دخيلة نفسه له عدو ـ إن أى طاغية لا يمكن أن

---

(١) أنظر كتاب « هل نحن مسلمون » فصل : « عوامل محلية » .

يطيق الإسلام ، لسبب واحد بسيط : أن الإسلام يجعل ولاء الناس لله ، بينما هو يريد الولاء لشخصه من دون الله .

وتلك ــ فى بساطة ــ قضية كل طاغية فى التاريخ مع العقيدة ومع المؤمنين !

وذلك فضلاً عن أن أمثال أولئك الطغاة فى العالم «الإسلامى ! » لا يقومون بأمر أنفسهم ، إنما يقيمهم الاستعمار الصليبى الصهيونى ليقوموا ــ بالوكالة عنه ــ بمهمة القضاء على الإسلام وتدمير المؤمنين !

* * *

أما «الناس» فهم فئات شتى فى عداوتهم للإسلام !

فأما «المثقفون ! » فهم خلاصة الكيد الخبيث الذى وضعته الصليبية الصهيونية للقضاء على الإسلام .

فهؤلاء «المثقفون ! » هم الذين رباهم الاستعمار فى مدارس «الحكومة» التى أقامها تحت سمعه وبصره لتنفذ سياسة معينة ، تؤدى إلى تخريج أجيال من المسلمين لا يعرفون شيئًا عن حقيقة الإسلام ، ويعرفون بدلاً منها شبهات تحوم فى نفوسهم حول هذا الدين .

أجيال لقنت أن الدين تأخر وانحطاط وتحجر ورجعية .. وأن الوسيلة الوحيدة للتحضر والارتقاء والتقدم هى الانسلاخ من ذلك الدين .. وإبعاده عن مجال الحياة العامة ، وإلغاء سيطرته على أى مفهوم من مفاهيم الحياة : السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية .. أو حتى الأخلاقية ! واستمداد هذه المفاهيم كلها من أوربا .. أى من مفاهيم الصليبية والصهيونية فى نهاية المطاف !

أجيال لقنت أن الدين معوّق عن الانطلاق . وأن السبيل إلى الانطلاق ــ الذى تعقبه «القوة» و«الحضارة» و«العلم» و«التمكن» ــ هو القضاء على هذا الدين !

وفى بلاهة غريرة راح أولئك «المثقفون ! » «ينهلون» من ينابيع الجاهلية الغربية المسمومة ، لا يفرقون بين ما ينفع وما يضر .. بين العلم البحت ــ الذى هو ضرورة ــ وبين المفاهيم الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية المنحرفة عن منهج الله ، والتى هى ــ فى بلادها الأصلية ــ سوس ينخر فى بنيانها ويؤدى بها ــ رويدًا رويدًا ــ إلى الدمار !

وفى بلاهة غريرة كذلك راح أولئك «المثقفون ! » يكرهون الإسلام ويحاربونه بكل

الأدوات التى وضعتها فى أيديهم الصليبية والصهيونية لتحطيم الإسلام !

* * *

وأما «الكتاب» و«الفنانون» و «القصاصون» و «الإذاعيون» و «السينمائيون» و«التليفزيونيون» .. الخ . فهم ولا شك يكرهون الإسلام !

يكرهونه لأن «التجارة» التى يقومون بها ويربحون عن طريقها .. تجارة إفساد الأخلاق وإشاعة الفاحشة فى المجتمع ، وإطلاق الأولاد والبنات بلا ضابط ، ينزو بعضهم على بعض .. هى تجارة محرمة يعرفون جيدًا أنها محرمة . وأن الإسلام يوم يجئ لن يدع لهم ذلك المستنقع القذر الذى يعيشون فى أوساخه القذرة ويتكاثرون . إنها تجارة محرمة كتجارة الأعراض والمخدرات سواء بسواء . وهم يعلمون ذلك جيدًا فى دخيلة أنفسهم . ويعلمون أن الجاهلية وحدها هى التى تتيح لهم الوجود والتكاثر ، والربح الوفير والعيش الوثير .. وأن الإسلام بنظافته وتطهره وأخلاقه المترفعة التى يربى أبناءه عليها لن يتيح لهم الوجود والتكاثر والربح .. ولذلك يكرهون الإسلام !

* * *

وأما الأولاد والبنات الذين فُتح لهم الباب على مصراعيه ليَفْسُدوا ويُفْسِدوا . وانجرفوا فى تيار الانحلال الخلقى ، وصارت حياتهم أغنية مائعة أو قصة داعرة أو رقصة فاجرة أو لحظة جنس مسعورة يمارسونها خفية أو علانية .. فهؤلاء ولا شك يكرهون الإسلام !

يكرهونه لأنهم يختلسون هذه الأعراض التى ينتهكونها .. أعراض بعضهم البعض .. ويختلسون هذه الشهوات التى يمارسونها .. فى غيبة من دين الله . وأن دين الله ـ بنظافته وترفعه وتطهره ـ لن يتيح لهم هذه القذارة الدنسة التى يعيشون فيها . وهم يريدونها ! يريدون هذه القذارة الدنسة ويحرصون عليها ، ويودون أن تدوم ! ولا يهمهم كيف فعلت فى أمم قد خلت من قبلهم ، وأمم ماثلة أمامهم قد هدها الفساد .. لا يهمهم لأن القوى التدميرية العالمية التى تدبر فسادهم وتوجهه وتخطط له لحساب الصليبية العالمية والصهيونية قد أعمتهم بالشهوات بحيث لا يفيقون ، وبحيث يكرهون من يوقظهم من متاعهم الفاجر ويطلب إليهم الارتفاع ..

ولذلك يكرهون الإسلام !

والمرأة «المتحررة ! » بصفة خاصة تكره الإسلام !

وقضية «تحرير ! » المرأة المسلمة من أخطر القضايا التى جند لها الاستعمار الصليبى الصهيونى جهوده خلال قرن كامل من الزمان !

جاء فى كتاب «الغارة على العالم الإسلامى La Conquête du Monde Musul-man »[1] وهو عبارة عن عدد خاص من «مجلة العالم الإسلامى» التى تصدر فى فرنسا لرصد أعمال التبشير فى العالم الإسلامى صدر قبل خمسين عامًا ؛ فى ص٤٨ من الترجمة العربية : «والنتيجة الأولى لمساعى هؤلاء (المبشرين) هى تنصير قليل من الشبان والفتيات **والثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية**» .

وجاء قبل ذلك فى صفحة ٤٧ :

«وينبغى للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من **المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء**» !

وفى صحفتى ٨٨ ، ٨٩ جاء تقرير عن أعمال وقرارات مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة «وهى مؤتمرات تبشيرية» فجاء عن مؤتمر لكنو التبشيرى الذى عقد سنة ١٩١١ أنه وضع فى برنامجه عدة أمور :

«أولها : درس الحالة الحاضرة» .

«ثانيها : استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين **والتعليم النسائى**» !

أما لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة [الذى عقد سنة ١٩٠٦] فقد وضعت هى الأخرى برنامجًا يحتوى على عدة مواد منها :

«المادة السابعة : **الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات**» !

وهكذا بدأ «تحرير المرأة المسلمة» فى مؤتمرات المبشرين !

أى والله ! المبشرون الصليبيون هم الذين يدعون ويعملون لتحرير المرأة المسلمة !

وتسأل : لماذا ؟!

فإليك الجواب !

---

(١) ترجمة السيدين مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب . القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ .

يقول مروبرجر : Morroe Berger وهو يهودى أمريكى معاصر فى كتابه «العالم العربى اليوم : The Arab World Today » ــ وهو من أدق الكتب التى صدرت عن العالم العربى فى الفترة الأخيرة وأخطرها[1] :

«إن المرأة المسلمة المتعلمة هى أبعد أفراد المجتمع عن تعاليم الدين ، وأقدر أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيدًا عن الدين » ! !

وإذن فقد كان أمرًا طبيعيا أن يصدر «استنهاض الهمم لتوسيع نطاق التعليم النسائى » عن المبشرين ومؤتمرات المبشرين ! مادام الهدف النهائى الذى يباركه الكاتب اليهودى هو «جر المجتمع كله بعيدًا عن الدين» !

إن أى قدر من التحطيم الموجه إلى هذه العقيدة لم يكن ليثمر ثمرته إذا بقيت المرأة بالذات .. مسلمة ! جاهلة أو غير جاهلة !

فالأم هى التى تنشئ النشأة الأولى للطفل . والأم «المسلمة» ولوكانت جاهلة تبذر فى أبنائها بذور العقيدة تلقائيا فى السنوات الأولى من حياة الأطفال . وهؤلاء ، مهما فسدوا بعوامل الفساد الخارجية ، ومهما عمل المجتمع ، أو المخططون للفساد على إفسادهم - فستظل هذه البذرة التلقائية الأولى تردهم عن الفساد الكامل ، وتعيدهم ــ بعد فترة ــ إلى الصواب !

وإذن فلا فائدة من جهد الاستعمار الصليبى والصهيونى كله فى هدم هذه العقيدة ــ **بكل الوسائل** ــ مادامت الأم لم تفسد بعد ..

لا بد من إفساد الأم ..

لا بد من إخراج العقيدة من قلبها إذا أريد قتل العقيدة على الاتساع .

لا بد من إخراج جيل من النساء لا يعرف الإسلام .. والسبيل هو «التعليم».. التعليم على طريقة الاستعمار التى جربها مع الرجل من قبل وآتت ثمارها ، ولكن على نطاق محدود ، لأن «الأم» ــ على جهلها ــ كانت تضع فى نفوس أبنائها حاجزًا أمام الفساد ..

وعمل الاستعمار الصليبى والصهيونى ــ بمؤازرة حركات «التحرر» التركية والمصرية

---

(١) صدر فى نهاية سنة ١٩٦٢ .

والعربية والهندية «قبل إنشاء الباكستان» والأندونوسية والأفريقية ..الخ ـ على «استنهاض الهمم لتوسيع نطاق التعليم النسائى» على البرامج الموضوعة بإشراف الاستعمار [سواء فى المدارس الحكومية أومدارس التبشير الأجنبية] لتخريج مسلمات لا تبعد مشاعرهن عن الإسلام فحسب ، بل ينفرن من الدين نفورًا ويكرهنه كرهًا !

وغنى عن البيان أن الإسلام الذى جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة لم يكن ليقف فى سبيل تعليم المرأة ، لو أنه هو المحكم فى الأرض . ولكنه بطبيعة الحال لم يكن ليسمح بتعليم المرأة ـ ولا الرجل ـ تعليمًا ينفرّهما من الله ، ومن منهج الله !

والذى قام به الاستعمار الصليبى الصهيونى لم يكن تعليم المرأة المسلمة لتكون مسلمة . ولكن تعليمها لتصبح كما يقولون «متحررة !» .. متحررة من الإسلام !

ثم كان لا بد بعد هذه الخطوة المباركة ! ، خطوة تعليم المرأة على غير أسس إسلامية ، من إحداث أوضاع اجتماعية وفكرية وأخلاقية فى العالم «الإسلامى !» تسمح بخروج المرأة ـ التى تعلمت على أسس غير إسلامية ـ لتكمل دورها فى «الإفساد» ..

لا بد أن تفسد هى أولاً لتستطيع الإفساد .. وقد كان !

وأُعِدَّ جيل من الشباب ـ الأولاد والبنات ـ ليفسد فى المدارس والجامعات ، على الحداء المسموم : حداء «الكتّاب» و«القصاصين» و«الفنانين» و«الصحفيين» و«السينمائيين» و«الإذاعيين» والحياة المختلطة فى الرحلات والمعسكرات ، وفى المصانع والمتاجر والدواوين والطرقات .. مع تركيز خاص على إفساد المرأة بالذات ..

وهذا الجيل ـ الذى يعيش الآن ـ فى العالم «الإسلامى» ! هو البغية الأخيرة للاستعمار الصليبى والصهيونى ، لأنه هو الذى سيقوم بالقضاء الأخير على ما بقى من بذور العقيدة الإسلامية . وبصفة خاصة المرأة التى قال عنها الكاتب اليهودى : إنها أقدر أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيدًا عن الدين !

نعم . كذلك .. !

فالمرأة «المتعلمة» «المتحررة» لن تقوم بعد ببذر بذور العقيدة فى نفوس أبنائها ، مادامت هى لا تؤمن بهذه العقيدة وليس لها فى حياتها حساب ! بل مادامت نافرة من هذه العقيدة ، كارهة لهذا الدين !

وعندئذ يستريح العالم الصليبي والصهيوني من الجهد الناصب الذى جهده خلال قرنين .. فأخيرًا .. أخيرًا جدا .. لن يحتاج إلى رصد الجهود لمحاربة المسلمين والدعاة والمؤمنين .. لأن المرأة التى قام بتعليمها و«تحريرها» لن تلد له من الأصل أبناءً مؤمنين !

ومع ذلك فلا بد من الحيطة الكاملة لئلا تفلت المرأة من التخطيط المرسوم ! لا بد من إنشاء العداوة للإسلام فى نفسها من كل سبيل !

ومن ثم فلا بأس من أن تكون للمرأة «المتحررة !» مع الإسلام «قضية» !

قضية صراع لنيل «الحقوق» !

قضية لا تحل إلا بالقضاء الصريح على الشرع الإسلامى .. أو بما هو أهون منه فى ظاهر الأمر وهو أخطر فى الحقيقة وأفعل فى القضاء على الإسلام .. وذلك هو «تطوير» مفاهيم الدين !!!

* * *

ووراء ذلك كله جماهير من الناس لا تكره الإسلام عقيدةً ، ومع ذلك لا تحب تطبيقه فى واقع الحياة !

هذه الجماهير التى تريد الإسلام عقيدة مستسرة فى القلب .. أو - على أكثر تقدير - عقيدة يصلى لها الإنسان ويصوم ! أما ما وراء ذلك فتعب قلب ليس له لزوم !!

إنهم يريدون البحبحة بغير قيود !

يريدون أن يتسلوا بالسينما - ولو كانت فاجرة - وبرقصات التليفزيون ، وبالأغانى الفاضحة .. على أنها مجرد تسلية !

ويريدون أن يكذبوا ويغتابوا ويتجسسوا .. «بحرية» لا يقول لهم قائل : هذا حرام وهذا حلال !

ويريد رجال منهم أن يستمتعوا بالفتنة التى تعرضها المرأة فى الطرقات !

ويريد نساء منهم أن يستمتعن بالقدرة على إغراء أولئك الرجال ! وأن يتبرجن فى الملبس والزينة بلا قيود !

ويريد أولئك وهؤلاء ألا يحسوا بأنهم مخطئون فى ذلك كله ماداموا «حسنى النية» !

ومن ثم فليكن الإسلام عقيدة منتسرة فى القلب ، أو ـ على الأكثر ـ عقيدة يصلى لها الإنسان ويصوم ! أما أن يصبح حياة حقيقية تحكم سلوك الناس الواقعى ، وتلزمهم بتكاليف الإسلام فى الصغيرة والكبيرة ، فى الملبس الشرعى والمأكل الشرعى و«الحكم بالشرع !» .. فهذا ـ والله ! ـ ليس له لزوم !

أولئك ـ وإن كانوا لا يكرهون الإسلام كرهًا حاقدًا كالمثقفين ! ـ إلا أنهم فى الحقيقة العميقة يكرهون حقيقة الإسلام !

* * *

تلك مواقف الفئات المختلفة من الإسلام ..

وفى النهاية تلتقى المصالح والمنافع والأهواء والشهوات على كراهية الإسلام !

ويستوى فى هذه الكراهية الذين استكبروا والذين هم مستضعفون ! فلكل مصالح ومنافع وشهوات يحرص عليها ، ولا يحب أن يحرمه منها هذا الدين ! وتلتقى الجاهلية فى داخل العالم «الإسلامى !» بالجاهلية الشائعة فى كل الأرض !

فماذا يتبقى إذن من «المسلمين» ؟!

يتبقى أفراد متناثرون على امتداد العالم الإسلامى يعرفون حقيقة هذا الدين ويحبونه ويقدرونه حق قدره .. يعرفون أنه الدين الحق والمنهج الحق . والعلاج الحق لكل عذابات البشرية ..

ويعرفون أن طريقه مملوء بالشوك .. بالعرق والدماء والدموع .. ويخوضون الأشواك فى سبيل الله .. لا يترقبون جزاء فى الأرض ولا يطلبون من غير الله الجزاء ..

ولكن هؤلاء الأفراد المتناثرين قد لا يستطيعون شيئًا فى هذا الجيل ! فالحرب الجبارة المرصودة لهم تستهدف القضاء عليهم حتى كأفراد ! فضلاً عن إقامة مجتمع يحكمه الإسلام !

* * *

ولكن البشر ليسوا هم المحكّمين فى دين الله !

إن «المسلمين» ! المزعومين الذين يعيشون اليوم ، ويزعمون أنهم مسلمون وهم ـ كما

رأينا ـ يكرهون الإسلام ويعملون على إقصائه عن الحياة .. هؤلاء ليسوا ـ ولا غيرهم من البشر ـ الموكلين بدين الله !

«ولله ما فى السموات وما فى الأرض . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله . وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدًا . ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً . إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرًا »[1] .

نعم ..

هنالك جيل قادم فى كل الأرض .. سيعود إلى الله !

* * *

(١) سورة النساء [١٣١ ـ ١٣٣] .

عودة الإنسان إلى الله

ظنت الجاهلية الحديثة بكل طواغيتها أنها ستقضى - أو قضت بالفعل - على دين الله ..

ويحق لها أن تظن ذلك ! فالذى يقرأ خريطة الأرض لأول وهلة ، سيهوله ولا شك أن يرى أعلام الجاهلية مرفوعة فى كل مكان فى الأرض ، وألا يرى راية واحدة خفاقة للإسلام !

ولكن البشر - كما قلنا فى نهاية الفصل السابق - ليسوا هم المحكّمين فى دين الله !

«والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[1] .

ليست هذه أول مرة تقف الجاهلية موقف العداء والكراهة والحرب والعناد من الإسلام ! إنما ذلك موقفها منه على الدوام !

ثم .. ؟

ثم لا يكون البشر هم المحكمين فى دين الله .. وإنما يحكم الله بأمره . ويقرر هو - سبحانه - ما يريد تقريره ، بغض النظر عن فقاعات الكيد الجاهلى التى تقف فى طريق الدعوات !

يحكم الله فيبيد الجاهليات الواقفة فى الطريق .. أو يهديها إلى الإسلام !

«لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . إنى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين . قال : يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه . **فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قومًا عمين**» .

---

(١) سورة يوسف [٢١] .

«وإلى عاد أخاهم هودًا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ! ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . **فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** .

«وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورًا وتنحتون الجبال بيوتًا ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين» .

«ولوطًا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم . إنهم أناس يتطهرون ! ! **فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرًا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين**» .

«وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى

يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال : أو لوكنا كارهين ! قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها ـ إلا أن يشاء الله ـ وسع ربنا كل شئ علمًا . على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون . **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم . فكيف آسى على قوم كافرين ؟ »

« وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفَوْا ، وقالوا : قد مسّ آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون .

« أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون »[1] .

* * *

تلك قصة البشرية كلها مع الله ..

« لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض .. »[2]

« والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[3]

إن الجاهلية مهما عتت فلن تعْجِزَ الله فى الأرض .. ولا بد أن تجرى فيها سنة الله . وسنته أن يأخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون . فإذا لم يضرعوا بدل الله لهم

---

(١) سورة الأعراف [٥٩ ـ ٩٩] .
(٢) سورة النور [٥٧] .
(٣) سورة يوسف [٢١] .

مكان السيئة الحسنة ، وأعطاهم من متاع الأرض بلا حساب .. حتى ينسوا ، ويستخفوا ، ويقولوا : قد مسّ آباءنا الضراء والسراء ! ونحن مثلهم ! تمسنا الضراء حينًا وبعدها السراء ! وعندئذ يأخذهم الله بغتة وهم لا يشعرون !

ونحن اليوم على أبواب تدخل حاسم من إرادة الله !

إما التدمير على الكافرين الذين يملأون بجاهليتهم أرجاء الأرض ..

وإما هدايتهم إلى الله ..

أو .. هداية جيل جديد من البشرية ينبع من هذا الفساد بإرادة الله .. «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ! »

* * *

حين نقرأ خريطة البشرية مرة أخرى لن تبدو كما بدت لأول وهلة غارقة كلها فى ظلمات الجاهلية !

هناك .. على آماد متفاوتة .. بشائر النور !

وعلى ضوء هذا النور المشرق من بعد .. المشرق للغد .. كتبت هذا الكتاب !

كتبته وأنا أرى ـ رأى العين ـ هذا النور النابع من الظلمات !

وما من أحد يعرف الغيب فى السموات والأرض .. ولكنا فقط نستقرئ سنة الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . وسنة الله هى التى تقول : إما الهدى وإما التدمير !

فما لم يكن فى تقدير الله التدمير الشامل للبشرية .. فلا بد إذن من الهداية إلى الله .

ونحن نتوقع هداية البشرية إلى الله .. ! ونجد البشائر ظاهرة فى قلب الظلمات !

* * *

هذا الشقاء الذريع الذى تقاسيه البشرية تحت وطأة الجاهلية الحاكمة فى كل الأرض ..

هذا العذاب القاتل الذى يصوغ واقع الناس .

هذا القلق المدمر للأعصاب ..

هذا الفساد الذى يوقع المظالم بالناس : فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وعلاقات الجنسين والفن .. وكل شئ ..

هذا ـ بذاته ـ عامل من العوامل التى ستعيد الإنسان إلى الله ..

إنه شقاء فوق الطاقة . وعذاب مميت ..

وإن الجاهلية لتحتمله اليوم عنادًا مع الله ! أو تحتمله فى سبيل ما أتيح لها من منافع جزئية وشهوات !

ولكن المسألة ليست مسألة الاحتمال !

إن التدمير قد وصل إلى أعماق الكيان البشرى ذاته .. فبدأ ينهار ..

وسينهار هذا الجيل الذى يعاند الله ..

ولكن الجيل القادم من بُعْدٍ فى الآفاق .. جيل سيعى الدرس من الجيل المنهار .. سيعود إلى الله .

* * *

ولقد كفر الناس فى هذا الجيل على ضوء «العلم» !

فقد أفهمتهم شياطين الأرض أن العلم ينافى الإيمان بالله . وأن العلم قد قضى على الخرافة التى كانت تملأ ضمائر الناس فى العصور الوسطى : خرافة «الله» !

ومن ثم كان تقدم العلم وسيلة من أخبث الوسائل فى أيدى الشياطين ! كلما تقدم العلم أوغلوا فى إبعاد البشرية عن الله .

ولكن العلماء ـ «أنبياء» هذا الجيل من البشرية ، الذين قادوه إلى الكفر ـ قد بدأوا يعودون إلى الله !

ونعيد هنا بعض شهادات العلماء التى أثبتناها من قبل ، ونضيف إليها إضافات :

يقول سير «جيمس جينز» عالم الطبيعيات والرياضيات :

«لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقًا واحدًا : وهو الطريق الذى رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفى تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأنه لا مناص من أن الحالة «أ» تتبعها الحالة «ب» . أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن : هو أن الحالة «أ» يحتمل أن تتبعها الحالة «ب» أو «جـ» أو « د » أو غيرها من الحالات الأخرى التى يخطئها الحصر. نعم إن فى استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة «ب» أكثر احتمالاً من حدوث الحالة «جـ» وإن الحالة «جـ» أكثر احتمالاً من الحالة « د » .. وهكذا . بل إن فى مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات «ب» و «جـ» و « د » بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أى الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائمًا عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار .. » .

ويقول «رسل تشارلز إرنست» أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا :

«لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات من طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازًا أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذى خلق الأشياء ودبرها .

«إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإننى أؤمن بوجود الله إيمانًا راسخًا» .

ويقول «إيرفنج وليام» (دكتوراه من جامعة إيوى وإخصائى وراثة النباتات ، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) :

«إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها . والتى لا يحصيها عد ، وهى التى تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا ـ بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها ـ كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكوّن الحياة ...

«ولقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء وهو من الميادين العلمية الفسيحة التى تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التى تسكن هذا الكون .

«انظر إلى نبات برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظيرًا فى روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار . بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية . ويتم ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم ـ وهو المادة التى تدخل فى تركيب جميع الكائنات الحية .

«فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها . ولكنه خلق الحياة . وجعلها قادرة على صيانة نفسها ، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل ، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التى تعيننا على التمييز بين نبات وآخر .. إن دراسة التكاثر فى الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارًا لقدرة الله» .

ونكتفى هنا بهذه النماذج ـ وهى مجرد نماذج ـ مأخوذة من كتاب واحد يحوى ـ وحده ـ مجموعة كبيرة من الآراء تتجه كلها إلى الله ، وإن كانت رواسب الجاهلية (العلمية !) ما تزال ترى فى كثير من التصورات وكثير من التعبيرات ! [١] .

وهكذا تتوالى شهادات العلماء ـ أنبياء هذا الجيل الذين قادوه إلى الكفر من قبل ـ تدعوه أن يعود إلى الله !

* * *

وانهيار النظم القائمة اليوم .. ستعيد الإنسان إلى الله !

فأما الرأسمالية فقد استُهلكت كعقيدة ونظام فى معظم أرجاء الأرض .. وهى وإن تكن

---

(١) كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

ما تزال ضارية فى أمريكا ، فصيرها هو المصير المحتوم الذى ذاقته فى الدول الأخرى.. لا على أساس الحتمية الاقتصادية أو المادية أو التاريخية .. وإنما على أساس سنة الله ! إنها تجاوزت مداها فى الشر فلابد أن تنهار !

وأما الشيوعية ـ الجديدة التى ما تزال تعتبر «بنت اليوم» وأحدث مبتدعات الجاهلية ـ فقد بدأت كذلك تنهار .

صرح خروشوف فى مارس سنة ١٩٦٤ بأنه لابد من القضاء على فكرة المساواة المطلقة فى الأجور ، وأنه لابد من استغلال الحافز الفردى لزيادة الإنتاج . وأن المزارع الجماعية ضعيفة المحصول !

وهذا كلام واضح الدلالة[1] .

إنه «كفر» كامل بالماركسية اللينينية التى قام عليها «المذهب» الشيوعى .

إنه «رِدة» إلى نظام آخر.. علمه عند الله .

وهذان هما النظامان اللذان يحكمان الجاهلية الحديثة . فإذا انهارا ـ كمذهب وعقيدة ـ بصرف النظر عن قوتهما السياسية الحالية ـ فلابد من نظام آخر يملأ الفراغ . فليست العبرة بالقوة السياسية . إنما العبرة بالعقيدة التى تحكم القوة السياسية وتقودها إلى النصر فى معترك الحياة .

والنظام الآخر هو الإسلام !

فليس هناك «تجربة» جديدة تجربها البشرية بعد الرأسمالية والشيوعية المتطرفتين من أقصى اليمين وأقصى اليسار إلا النظام «الوسط» الذى سماه الله «الإسلام» ! وسمى أهله «المسلمين» !

«هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس»[2] .

«وكذلك جعلناكم أمة **وسطًا** لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا»[3] .

---

(١) لم يعدل الانقلاب الأخير الذى حدث فى روسيا شيئًا من سياسة خروشوف فى هذا الباب !

(٢) سورة الحج [٧٨] . (٣) سورة البقرة [١٤٣] .

تلك كلها بشائر ودلائل على عودة الإنسان إلى الله ..

ولكن هناك ظاهرة «تاريخية» حاضرة أبلغ دلالة من كل هذه الدلالات !

إن من استهزاء الله بهذه الجاهلية التي تكيد لدينه في كل الأرض .. أن تبرز في أمريكا ـ زعيمة الجاهلية الحديثة ، التي ترصد أكبر قواها لمحاربة الإسلام في آسيا وأفريقيا ، وتتخذ لذلك أخبث الوسائل التي استخدمتها الجاهلية في التاريخ كله ، ويتحد فيها الكيد الصليبي والصهيوني ليعمل جاهدًا على قتل الإسلام ـ أن تبرز في أمريكا هذه بالذات ، في عقر دارها ومن بين أهلها القاطنين فيها ، حركة إسلامية شابة تدعو إلى إقامة حكم إسلامي ! !

وليس بعد ذلك استهزاء من الله ـ سبحانه ـ بأولئك الكائدين لدين الله !

لقد جهد الصليبيون والصهيونيون في محاربة الإسلام في داخل «العالم الإسلامي» والقضاء على كل حركة تدعو إلى دين الله ..

وظنوا أنهم ماداموا قد قتلوه في موطنه التقليدي فقد نجوا من هذا العدو المرهوب الذي يرهبون يقظته في أي يوم قريب أو بعيد ! وجلسوا في كراسيهم يهزأون بالله ودينه .. ويفركون أيديهم مسرورين !

ثم .. كانت المفاجأة المذهلة لهم .. في عقر دارهم .. مصيبة لهم لا يعرفون كيف يتخلصون منها وهي تزيد عليهم في كل يوم ، على الرغم مما يوقعونه بأولئك المسلمين من قتل وتعذيب وسجن وتشريد ! وعلى الرغم مما يسلطونه عليها من الدعاية للتشويه والتنفير ؛ وعلى الرغم من كل ما يحاولونه معها من إشاعة التميع فيها ، أو ربطها بالأوضاع التي أقاموها هم في ما يسمى بلاد الإسلام !

وتلك وحدها نموذج لمكر الله الذي أنذر به الكائدين .

«ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين»[1] .

«أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»[2] .

* **

(١) سورة آل عمران [٥٤] .

(٢) سورة الأعراف [٩٩] .

وهى كذلك نموذج لما يمكن أن يحدث غدًا فى البشرية !

إن الجاهلية ظنت أنها قد أبعدت كل ظل لدين الله عن الأرض ! وأن وسائلها الجهنمية قد جعلت مجرد التفكير فى الدين خاطرًا بعيدًا عن ذهن البشرية !

ولكن الناس ليسوا هم المحكمين فى دين الله !

فهذا مثل من أمثلة التوجيه الربانى لفريق من البشر يعيشون فى قلب الجاهلية ويتجرعون كل سمومها .. فإذا هم ينبذون هذه السموم كلها .. ويبحثون عن الله .. ويتوجهون إليه مسلمين .

والبشرية غدًا فى طريقها إلى مثل هذا التحول بشتى الأسباب وشتى الطرق المؤدية إلى الله !

وهو على الله هين هين .. كما نرى فى هذا المثل الحاضر الذى نطالع كل يوم أخباره فى الصحف والمجلات ..

هين على الرغم من كل الكيد الذى تكيده الجاهلية !

فهذا الكيد كله فقاعات فارغة لا وزن لها عند الله سبحانه حين يدبر لدينه فى الأرض !

«والله غالب على أمره .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون» !

* * *

«والمسلمون ! » فى العالم «الإسلامى ! » التقليدى يحملون تبعة باهظة أمام الله ..

تبعة التهاون فى أمر دينهم .. والقعود عن إقامة مجتمعهم الراشد الذى أمرهم به الله ..

بل تبعة الانسياق وراء الجاهلية ، واتخاذ أعداء دين الله أولياء .. منهم يستمدون مفاهيم حياتهم ، بل منهم يأخذون النصيحة فى أمر هذا الدين !

تبعة باهظة .. لا ينجيهم شىء فيها من عذاب الله ..

* * *

ثم تزداد هذه التبعة خطورة حين يمضى «المسلمون» سادرين ، فى هوانهم ومذلتهم وجهلهم وضعفهم وتهاونهم .. بينما البشرية تتهيأ ــ غدًا ــ لاستقبال دين الله !

وسيقوم غدًا هذا الدين ، وهم فى هوانهم ومذلتهم وجهلهم وضعفهم وتهاونهم .. !

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[1] .

ولن ينصر الله دينه على يد الضعفاء المهازيل الذين رضوا لأنفسهم الهوان والذل !

إنما هو ينشىء لدينه ـ حين يريد ـ قومًا آخرين يحملون التبعة ويقومون بها على حقيقتها .

«إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين . وكان الله على ذلك قديرًا»[2] .

وسيحمل هؤلاء «المسلمون !» التقليديون العار غدًا ، حين يرون قومًا آخرين يحملون راية الله وهم على هوانهم مقيمون !

وسواء قام هؤلاء «المسلمون» من نومتهم أم ظلوا فيها ..

وسواء كف الكيد المجنون عن الحرب لدين الله ، أم ازداد الكيد جنونًا وضراوة ..

سيعود الإنسان إلى الله !

سيعود شديد الإيمان .. !

فبقدر الكفر الحالىّ .. بقدر عذابات الناس .. وبقدر ظلام الطاغوت ..

سيكون النور .. !

وبشائر هذا النور .. بادية فى الظلمات ..

وغدًا يشرق دين الله ..

وسواء أبصرناه بأعيننا .. فى العمر المحدود .. أم كان غدًا .. فى جيل آخر ..

سيعود الإنسان إلى الله !

سيعود شديد الإيمان !

«والله متم نوره ، ولو كره الكافرون»[3]

صدق الله العظيم

---

(١) سورة الرعد [١١] .

(٢) سورة النساء [١٣٣] .

(٣) سورة الصف [٨] .

من كتب دار الشروق الإسلامية

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين
أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين
الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
قال الأولون _ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
الإيمان الحق
المستشار علي جريشة
الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد
الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني
أيها الولد المحب
الإمام الغزالي
الأدب في الدين
الإمام الغزالي
شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا
القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي
خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الحيت
الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي
تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري
الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر
سلسلة أعلام الإسلام ١/١٦
سلسلة أهل البيت ١/٦
إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا
الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

الفهـــرس

الموضـوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٨٩/٣٩٠٦
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٣٢٤ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

